(Arab)
PJ7842
.A38xM5

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 046831093

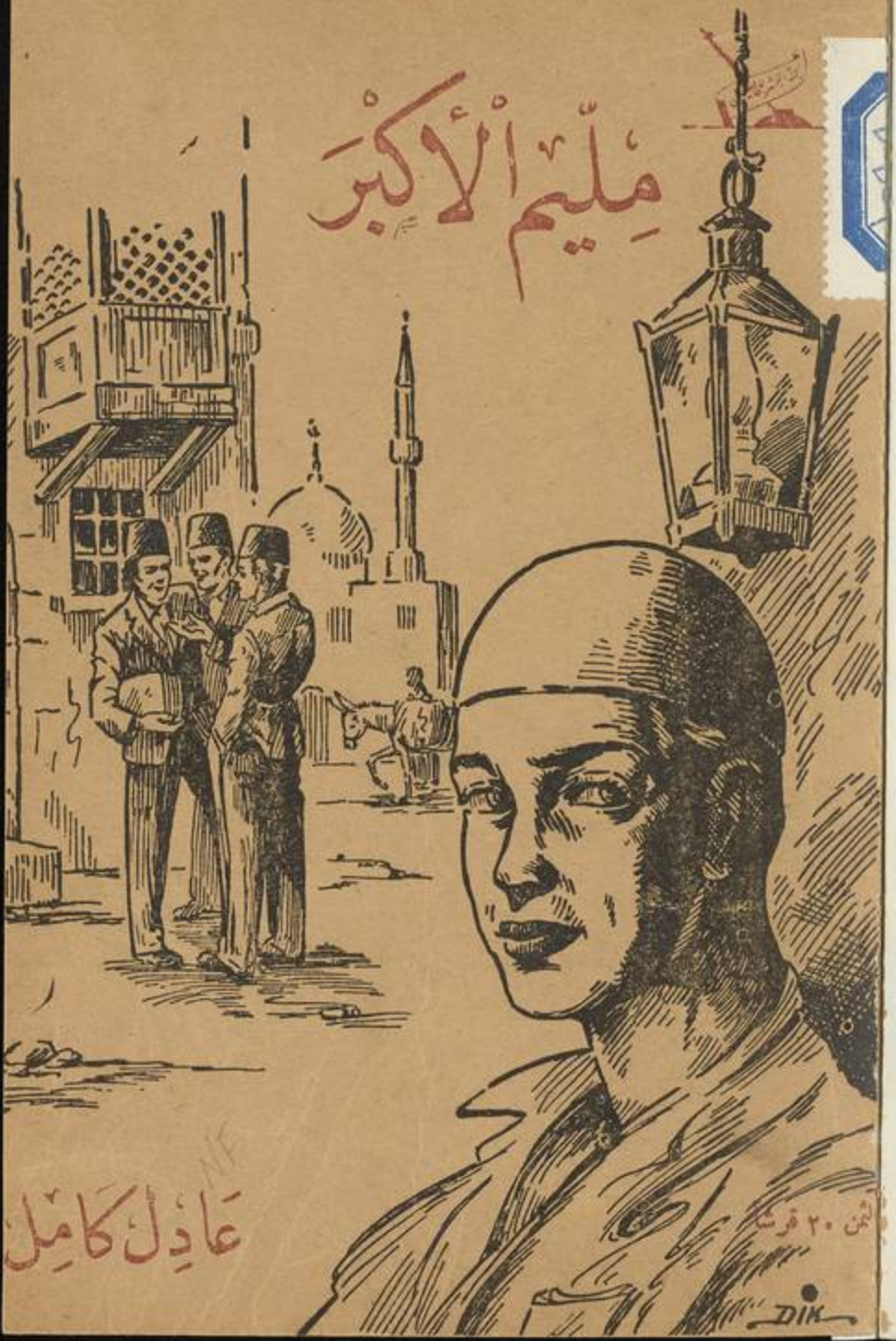

مِلّيم الأكبر
عادِل كامِل
الثمن ٢٠ قرشا
DIK

Kāmil, ʿĀdil

مِلّيم الأكبر

تأليف

عَادِل كَامِل

يطلب من

مكتبة مصر ومطبعتها

٦٣ شارع الفجالة - مصر

(Arab)
PJ7842
A38xM5

لجنة النشر للجامعيين (لجنة الإنتاج الفنى)

أحمس	عبد الحميد جوده السحار	مايو سنة ١٩٤٣
رادوبيس	نجيب محفوظ	يولية سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى	عبد الحميد جوده السحار	سبتمبر سنة ١٩٤٣
قنابل	محمود تيمور بك	نوفمبر سنة ١٩٤٣
اخناتون ونفرتيتى	على أحمد باكثير	ديسمبر سنة ١٩٤٣
ثلاثة رجال وامرأة	عبد القادر المازنى	يناير سنة ١٩٤٤
أقاصيص	لنخبة من الأساتذة	فبراير سنة ١٩٤٤
سلامة القس	على أحمد باكثير	مارس سنة ١٩٤٤
ويك عنتر	عادل كامل	ابريل سنة ١٩٤٤
رباعيات الخيام	حسين مظلوم رياض	» سنة ١٩٤٤
بلال مؤذن الرسول	عبد الحميد جوده السحار	مايو سنة ١٩٤٤
ع الماشى	ابراهيم عبد القادر المازنى	يونية سنة ١٩٤٤
حديقة أبى العلاء	كامل كيلانى	يولية سنة ١٩٤٤
كفاح طيبة	نجيب محفوظ	أغسطس سنة ١٩٤٤
خريف امرأة	إبراهيم المصرى	سبتمبر سنة ١٩٤٤
قصر الهودج	على أحمد باكثير	» سنة ١٩٤٤
عشاق العرب	كامل محمد عجلان	أكتوبر سنة ١٩٤٤
عطر ودخان	محمود تيمور بك	ديسمبر سنة ١٩٤٤

تحت الطبع

مليم الأكبر	عادل كامل	نوفمبر سنة ١٩٤٤

مقدمة

فى

تأديب مليـــم

فى

فنون اللغة والأدب

هذه القصة قصة . . .

ولست أعنى قصة واقعية أوحت بها ، وإنما قصة خيالية تلتها .

وهى قصة خيالية لأنها لا تستند إلى حقائق الحياة ، ولا تقوم على رأى واقعى حصيف فى فهم الأدب .

ولست أعرف تفصيل أمر هذه القصة على وجه اليقين ، وإن كنت أعرف فصلها الأخير . وإنه لعجيب . . .

قدمت رواية « مليم الأكبر » فى مباراة فاروق الأول للقصة المصرية التى تنظرها لجنة الأدب بمجمع فؤاد الأول للغة العربية . ولأمر ما رأت اللجنة أن تبيع سمسما مقشورا بغير مقشور ، فرفضت أن تعطى « مليم » بضعة الجنيهات المقررة ، أو أن تعطيه جائزة بدون جنيهات .

جاءنى المسكين معولا باكيا ، يشد شعره بيد ، ويضرب صدره بالأخرى . قلت له : « رشادك يا فتى . فالمال الذى كنت ستعطاه ما كان

يكفيك لمعالجة إحدى عينيك اللتين قرحهما سهر الليالى ، وأعماهما نقش الورق . أم تراك كنت فى حاجة إلى رباط عنق أو زوج من النعال ؟ »

قال وهو يزفر زفرة يلين لها قلب الكافر : « ليس الأمر ما ذكرت »

قلت : « لعله الحسد البغيض يأكل قلبك . . . عهدى بك فتى يعرف قدر نفسه »

فسمعته يئن أنة تتصدع لها بروج السماء ، ثم عاد يقول : « إنه أمر لا يخطر لك ببال »

قلت : « أفصح . ما بالك تتكلم بالهندية ! »

قال : « يحق لك أن تسخر . ولكن ماذا تراك قائلا ، لو علمت أن هناك جائزة وليس من يحوزها ولو كان من الفائزين ؟ »

قلت : « أتراها بعيدة المنال إلى هذا الحد ؟ أنا أعلم أنها جائزة نفيسة لا يجود الدهر بمثلها فى مدى قرن من الزمان »

قال : « بل هى قريبة المنال لكل من استطاع الرجز بمثل قولهم :

نم مبكراً واستيقظ مبكراً تعش سعيداً غنياً عاقلا

فإن لم يكن بهذا فبقولهم : .

كن ابن شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب

فإن لم يكن بهذا ولا بذاك ، ولم تستطع أن تقول :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أى مفسده

فعليك فى القليل ألا تهبط عن مستوى قول القائل :

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلجا عن غرة زلجا

ولكنك لم تستطع أن تجرى على لسانى مثل هذا ، بل كنت تجعانى فى بعض الأحيان أكفر بهذه المبادىء السامية . فكان ما كان »

قلت : « ويحك يا مليم ! ومن يقدر اليوم على إبداع مثل تلك الدرر الأخلاقية . . . ولكنك لا تزال تجمل وأنا أريد التفسير . فهلا حدثتنى بما انتهى إليه أمر هذه المباراة الفريدة ؟ »

قال : « صدر القرار بمد أجلها ، أو بفتح بابها — لست أدرى »

ولما لم تكن لى شهوة للمزاح ، تأوهت وأنشدت :

ولى كبدٌ مقروحة من يبيعنى بها كبدا ليست بذات قروح

ثم التفت إلى مليم وقلت له : « إن كان فى نيتك أن تشترى ذا علة بصحيح — فلا عليك . فإذا لم ترغب — ولست أراك راغبا — فرحماك ، رحماك . . لم تعد لى طاقة على تحمل الهذر »

قال : « بل هو ما قلت . لقد فتح الباب عوداً على بدء »

قلت : « كيف ! أسلعة تعرض فى سوق ، أم عقار يطرح فى مزاد ؟ لا تتكلم عن فتح الأبواب ومد الآجال ، فهى عبارات غريبة عن عالم الأدب »

فهز كتفيه مستخفا ، وارتسمت على شفتيه بسمة رثاء ، ثم عاد يقول : « لقد أنبأتك بما حدث . ولك الرأى فى أن تصدقه أو تطرحه »

عندئذ نهضت واقفا . وانطلقت أصفق طويلا طويلا . وكنت كلما التهب كفاى ، صببت عليهما ماء مثلوجا حتى تبردا ، ثم أشرع فى التصفيق من جديد وهكذا ... فلو لم ينل منى التعب لحضرتنى الوفاة وأنا أصفق . وما أن انتهيت من أمرى حتى سمعت « مليم » يسألنى : « فيم هذا الضجيج ؟ »

قلت : « إن مثلك لا ينتبه إلى الحكمة إن عثر بها . ولعمرى صدق من قال : لا تلقوا دركم إلى الخنازير . أما أنا فقد أدركت »

التوت شفتا مليم وهو يقول : « ماذا أدركت مما لم أدرك ؟ »

قلت : « لقد انكشف لى الحجاب. هذه جائزة خالدة خلود الأرض ، لن تعطى إلا يوم القيامة . لقد أريد بها أن تكون نبراسا وهدى للعالم إلى أن يحين الحين ، وأن تسترشد بها أجيال الخلق على مر العصور . حتى إذا كان يوم الحساب ، طرحت البشرية أعمالها وعددت مآثرها ، فإن نجحت فى إثبات جدارتها وحسن سلوكها ، كلل المجمع بالجائزة هامتها ، وإلا حرمت الأرض من الجائزة ، فتعطى لبشر المريخ أو زحل ، إن كان لديهم مجمع هناك »

إلا أن «مليم» لم يصدق قولى . فقلت له :

« سآتيك بالبينة إن كان لديك استعداد لسماع درس فى المنطق »

قال : « هات »

درس فى المنطق :

استرخيت فى مقعدى ، والتزمت هيئة الأساتذة الموقرين ، وبدأت أحدثه بصوت متئد ، فقلت له :

— إن معظم ما ينشب بين الناس من خلاف فى الرأى مرجعه الأول إلى أنهم يبادرون بالصياح والضجيج دون نظر إلى موضوع النقاش . فلو أنهم اتفقوا فيما بينهم - بادىء الأمر - على تحديد مبناه وتوضيح معناه ، لكفى الله المؤمنين شر القتال ، فى معظم الأحوال . لهذا أرجو ن أتفق وإياك على تعريف لكلمة مباراة . »

وأنت أيها القارىء إن كان لك شباب وفراغ وجدة ، فقرأت هذه القصة المفسدة لك أى مفسدة ، فستعلم أن « مليم » ليس ممن يحبون تصديع الرءوس بالكلام . وقد يكون للفتى عذره ، فلشد ما عانى فى فتوته من الكلام والمتكلمين . فلا تعجب إن سمعته يقول لى : « إنك خبير بتعقيد الأمور . هات ما عندك على أن توجز فى مقالك . أنت تعلم أننى خارج لتوى من تحت مباضع أطباء شديدى النكاية »

وكان فى نيتى أن أطيل الشرح والتفلسف . فقطع على الطريق ، وأرغمنى على الإيجاز ، فقلت : « إن المباراة فى تصورى مضمار يتنافس فيه المتبارون ، وجائزة تعطى للأسبق . فهل أنت موافق على هذا التعريف ؟ »

قال : « أجل »

قلت : « ألم يكن معك متبارون غيرك ؟ »

قال : « سل الأستاذ نجيب محفوظ زميلك فى السراء والضراء . لقد كانوا وأيمن الله كثيرين »

قلت : « ألم يتنافسوا فيما بينهم ؟ »

قال : « بذلوا ما فى طاقتهم من جهد ، وقدموا ما فى جعبتهم من فن »

قلت : « وهل بلغوا جميعا الهدف عينه ؟ »

قال : « وهل يعقل هذا ! »

قلت : « فما الذى حدث إذن ؟ »

قال : « يقول الأستاذ نجيب محفوظ إن الهدف استحال سرابا (١) »

(١) « السراب » قصة للاستاذ نجيب محفوظ تخرجت اللجنة من منحها الجائزة لأنها - أى القصة - تصف مألوف الحياة .

فأطرقت برهة ثم تمتمت قائلا : « أجل . لعمرى هو محق كالعهد به دائما . ولكنى الملوم يا «مليم» ، إذ أطلقتك فى أثر سراب »

قال : « أنت معذور أيها الكاتب . من أين لك العلم بأنه سراب ، وقد أذيع أمره فى الصحف ؟ »

قلت : « كان من واجبى أن أفطن إلى أن الحقائق نسبية، وأن الآراء على خلاف . ولكن خبرنى هل قيل لكم حين انتهت المباراة ، إن الأمر هذر والهدف سراب ؟ »

قال : « لا . بل أخذوا يتفحصوننا بأبصارهم ، ويغمزون جوانبنا بمباضعهم ، ثم يتناظرون ويعلقون . كنا عراة أمامهم ، ولم يكن لدينا من الوسائل ما ندفع به ذل الموقف عن أنفسنا . كان الدم يغلى فى عروقنا. لقد قبلنا لأنفسنا هذا الوضع ، وكان علينا أن نشرب كأس المر صاغرين . . . بربك لا تذكرنى بتلك الساعة المشينة ، فإن بدنى يقشعر منها إلى الآن »

قلت : « واذلاه ! أو لم تجد نصيرا يدرأ عنك بعض السهام ؟ »

قال : « ليس من شأنك أن تعرف . أتحسبنى من الضعة بحيث أطلعك على ما دار فى مداولة سرية ؟ »

فقلت لمليم وأنا أحاوره عله يقع فى الفخ : « لا عليك . أنا أعلم أن الرأى إنما يصدر عن إجماع . فإن أجمع قوم على رأى ، فهل تخالنى أصدقك وأكذبهم ؟ »

قال وقد بلغ به الضيق مبلغ الانطلاق : « كأنك لا تعرف خبر الذى وضعوه فى النعش حيا . وساروا فى جنازته يبكون ويولولون ، حتى إذا

مر بهم الوالى التركى ، صاح المسكين من النعش يستنجد به ، فما كان من الوالى إلا أن انتهره وقال له قولك : « كيف أصدقك واكذبهم ... » ثم أمر المشيعين أن ينطلقوا به إلى ظلمة القبر !

« أنت تعلم أن الناس قد يخرجون قاصدين مشرق الأرض ، متخذين من الشمس دليلا وهديا . ثم قد يظهر من بينهم من هو أضخم جثة وأعلا صوتا . فيصيح فيهم : إنما الشرق خلف ظهوركم ، وأنتم تسيرون إلى عكس ما تقصدون . فلقد يبرز من بين القوم واحد أو اثنان يناقشونه الحساب . ولكنه يزداد صياحا واندفاعا وتحمسا ، فما يلبث أن يسرى فى أفئدتهم الاعتقاد بصحة ما يقول . وحينئذ تعلو همهمة كأزيز النحل . وقد يميل الرجل على صاحبه قائلا : « ألم أقل لك ؟ لطالما حدثنى قلبى بأننا مخطئون » ويقول آخر : « أنا أيضا قد لحظت كذا وكيت . ولكننى أشفقت أن أجاهركم برأيى ، وقد رأيتكم مندفعين كالشهاب » . فما تلبث القافلة أن تحيد عن وجهتها ، فتولى وجهها ناحية المغرب . وإن كان القوم فيما بينهم قد أجمعوا على أنهم يقصدون مشرق الأرض ..

« أليس هذا إجماعا ؟ لك أن تسميه « إجماع الوالى التركى » أو غير ذلك من الأسماء ، ولكنه إجماع على أى حال . لقد أصاب صاحبك حين قال : « إن الأهداف قد استحالت إلى سراب »

ولمليم خاصية عجيبة هى أنه يكره نفسه وينقم عليها إذا أكثر من الكلام . لذا فقد رأيته ينزوى متخفيا كأنما ارتكب جرما . فرحت أطيب خاطره قائلا :

— مرحى يا مليم مرحى ... ها أنت تظهر للناس كافة أننى لم أعد

تصوير الواقع حين جعلتك تسود قوما كنت خادمهم. إن ما قلت جميل. ولكن ما قولك فى أناس اهتدوا إلى مشرق الأرض من قبل ؟ فهل تراهم يخطئونه إن سعوا إليه مرة أخرى ؟

قال وعيناه تقدحان شررا : «لعلك تقصد سلفى «ملك من شعاع ؟»

قلت : «نعم . فقد كان من حظه أن حاز جائزة يجمعية فى فرصة سابقة . فكيف تريدنى ألا أطمئن إلى حكم من توج هام سلفك بالغار ؟»

قال : «بربك لا تذكر لى حديث هذا السلف . إنه أس المصيبة وسبب النكبة . فلست أكتمك أننى حين قصدتك لتكتب قصتى ، كنت مخدوعا بهذا السلف من شعاع . فلقد حسبتك كاتبا «مضمونا» ، فضلا عن أنك «على قد الحال» . ولما أن فرغت من رسم صورتى ، وتدبيج قصتى ، كنت لا أزال على ظنى فى أننى لم أخطىء فى اختيارى إياك . فالحق أنك أظهرتنى فى الصورة التى أهوى . ولكننى إذ وضعت بعد ذلك فى أنبوبة الاختبار ، وتسلمتنى مجاهر الفاحصين من العمداء ، أدركت الحقيقة المؤلمة التى فاتنى إدراكها ، حين اصطفيتك واضعا لقصتى .

ولم أكن أحب أن أسمع من مليم هذا القول . فانفلتت منى ضحكة ساخرة وقلت : «قد عافانا الله بك وابتلى . فما تكون تلك الحقيقة ؟»

قال : «إنها - جعلت فداك - شىء يدعى «سحر التاريخ» . وهو سحر ساحر ، يحيل حرام الأمس حلالا ، والنقص حسنا وكمالا . وكنت قد جعلت سلفى ملكا عظيما ، وألبسته ثياب الفراعنة الأمجاد . فما أن سربلته بأرجوان الزمن السحيق ، حتى حصنته من عدوان الحاضر . فخليق بك أن تعلم أن «سحر التاريخ» يقابله عدوان الحاضر . ولو قد علمت هذا لكان سبيلك إلى النجاة من كثير من المهاوى التى لا تودها

لنفسك . أما أنا فقد حقت على اللعنة وانتهى الأمر . إنك حين خلعت عن بطلك الأردية الحمر ، وجردت رأسه من التاجين ، ثم جلوته فى سمت طبعى ، وألبسته ما ألبستنيه من أردية عصرية ، قيل إنه قد «انكشف» وبانت حقيقته ، وحينئذ كيلت له التهم ، ونسبت إليه شتى المثالب ، وطعن فيما لا يجوز أن يطعن فيه ، واتخذ مما لا حيلة له فيه أسباب للنيل منه ، وألقيت على كتفيه نقائص عصر وتبعاته بغير ذنب جناه ، سوى أنه بدا على حقيقته ، فلم يموه ولم يستتر .

استغرقتنى إطراقة طويلة ، فذهبت بى الأفكار كل مذهب ، حتى خفت أن أكون قد أخطأت فى حق مليم ، فلم أصب التوفيق فى تصويرى له . قلت : « أكنت تود لو جلوتك فى صورة كتلك التى يفتن فى تنميقها خطباء حفلات التكريم وشعراء المدائح ؟ .

قال : « بأبى أنت وأمى . معاذ الله أن يكون قصدى قد انصرف إلى العتاب ، وإنما أشتكى . . أشتكى كما يشتكى إنسان لإنسان ، مما فعله إنسان بإنسان . دعهم يقولون علينا بما يشتهون ، ولكننى لا أرضى أن أكون من سقط المتاع ، أو أن أبدو فى صورة أبطال حفلات التكريم .

قلت : « إذن فلتهون على نفسك ، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا . لقد علمت ما كان من أمرك . وأستطيع الآن أن أعلم ما كان من أمر صديقنا الأستاذ نجيب محفوظ دون أن تتبئنى به . فهل لك أن تحدثنى بما تم فى شأن أخوة لك تقطعت أنفاسهم فى السباق . لقد جنبت كما جنب غيرك لعيب متوهم ، أو وهم معيب ـ لست أدرى . فكيف لم يفز غيركما ممن لا عيب فيهم ، ولا مأخذ عليهم ، والحال أن لا بد قد تميز بعضهم على البعض الآخر . ؟ .

قال : « قضاء الله والمجمع »

قلت : « لست أفهم . ألم نتفق فيما بيننا أن المباراة مضمار يتناقس فيه المتبارون ، وجائزة تعطى للأسبق ؟ »

قال : « أنت واهم يا عماه . إنهم أضافوا شرطا آخر »

قلت : « جزاك الله كل خير . أنبئنى به »

قال : « أن يبلغ الفائز من المتسابقين مستوى معينا يرضاه المحكمون »

قلت : « أطربت فؤادى . إن كانوا قد أصبحوا يشترطون هذا المستوى فى الأدب ، فكيف فاتهم أن يشترطوه فى قيمة الجائزة التى يقوم بها هذا الأدب ؟ »

قال : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها »

قلت : « ولكن شرط المستوى هذا ليس من المنطق فى شىء . فلا يمكن تصور مباراة لا تنجلى عن فائز أو فائزين يبزون أقرانهم . فأنت يا مليم لست كأبى الذهب . وأبو الذهب ليس كالسيد ياقوت . والسيد ياقوت لا يبلغ مبلغ السيدة زمردة . والسيدة زمردة لابد فائزة فى مباراة لا يشترك فيها صاحب العظمة الماس المبجل . فهل ياترى تحرم السيدة زمردة من جائزة تستحقها ، لأن عظمة الماس لم يشترك فى المباراة ، ولو اشترك لكان أحق منها بالجائزة ! »

قال : « لا أفهم هذا »

قلت : « إذن فأنت معى فى أن كل مباراة لا بد أن تنتهى بجائزة ما دام قد وجد المتسابقون ؟

قال : « أجل »

قلت : « وهل أنت معى فى أن شرط « المستوى » الذى راحت ضحيته السيدة زمردة إنما هو من قبيل تفكير من يقول : حرام على الخبز المخلوط لأن الخبز النقى أبهى وأشهى - وليس فى السوق خبز غير مخلوط ؟ أو كمن يقول : لن أعطى الجارية أجرها فهى لم تبلغ المستوى الذى أرضاه للجاريات ؟ ألا ترى أن أولها قد ظلم نفسه ، وثانيهما قد ظلم غيره ، وكليهما قد التوى بمنطقه فقلبه ظهرا لبطن كما تقلب الشراب ؟ »

قال : « حسبك ما لقيت . واترك الرأى وحدك »

قلت : « عهدى بك شديد الجنان »

قال : « كنت حينذاك فقيرا ، وأنا اليوم غنى »

قلت : « ما علينا . ولكن لعلك لن تستطيع كتمان مشاعرك حين أبين لك أن مجانبة المنطق السليم مرة ستؤدى بمن جانبوه إلى ورطة نسأل الله لهم السلامة منها »

قال : « لو أنك نشدت السلامة لنفسك لأمسكت . ولكننى أعلم أنك لا تستطيع الصمت ، فكلانا مغامر يعمل لدنياه كأنه يموت غداً . ولا يجوز أن تموت وأنت على علتك »

قلت : « مرحى مرحى بمليم الأصيل . فالحق أن الثراء لم يغير فيك غير الطلاء . دعنا نتدبر الأمر سويا . الموقف الآن هو أن المباراة قد فتح بابها وامتد أجلها . وأن اللجنة - لسبب أو لآخر - لم تر أن تمنح الجائزتين المقررتين لأى اثنتين من القصص التى قدمت لها . ثم دعنا نرجو — أو نفترض — أن قصتك قد استوفت شرط المستوى ، وإن عجزت عن استيفاء شرط الهوى : فهل تراك على استعداد لأن

تجرى فيها وفى نفسك من التعديل والتغيير ، والحذف والإضافة ، والتستر والإدعاء ، ما ترجو معه أن تظفر بالرضا ؟ »

قال : « حسبى محاولة إرضاء الآخرين ، ولن أرضى بعد اليوم سوى نفسى »

قلت : « بارك الله فيك يا مليم ، فأنت إنما تتكلم بلسان فنان مطبوع . إذ على الكاتب ألا يلقى بالا إلى مدح أو ذم ، بل هو خليق ألا يهتم بعمله إلا من حيث صلته بنفسه . وقد يكون لوقع هذا العمل فى الناس أثر فى حالته المادية ، ولكنه لا يعنيه من الناحية الروحية فى قليل أو كثير .

« الكاتب إنما ينتج لخلاص نفسه وتحريرها . فمن مقتضى طبيعته أن يخلق ، كما أن من مقتضى طبيعة الماء أن ينحدر من أعلى التل . وهو لا يعدو الحقيقة حين ينظر إلى آثاره الفنية كأبناء له ، ولا حين يشبه محنة إنتاجها بمحنة الوضع . فلقد تظل الفكرة تختمر فى عقله وفؤاده ، وتتغلغل فى أعصابه وسائر شعاب جسده ، حتى تصل إلى درجة من الإيلام والتعذيب ، بحيث يشعر الكاتب بوجوب التخلص من استبداد هذا السجين المخيف فى أسرع وقت . فإذا ماتم له هذا غمره شعور بالتحرر والخفة ، وبقى وقتا ما فى أمن ودعة . ولكن الكتاب مع ذلك يختلفون عن الأمهات فى أنهم سرعان ما ينقطع اهتمامهم بالطفل الوليد . لقد أفرحهم وأشقاهم حين كان لايزال فى أحشائهم . فإذا ما انفصل عنهم ، انطلقت نفوسهم سراعا لتستنكح أحلاما جديدة .

« لهذا يقول الكاتب الانجليزى الأشهر سومرست موم أن الخلق الفنى نشاط من نوع خاص ، يبلغ غرضه بمجرد تحققه . وهكذا يستكمل الكاتب نفسه بمجرد أن يبدع آثاره . هذه الآثار قد تكون جيده ، وقد

لا تكون . هذا أمر يقرره الناقد أو القارىء ، ولكنه لا يعنى الكاتب. إنه قد استكمل أجره ، وفاز بجائزته ، حين فرج عن نفسه بوضع الوليد.

« ولقد أنجبناك يامليم ، فكبرت وأثريت ، ولم يصبح لك حاجة بنا ، كما لم يعد فى أمرك ما يشغلنا أو يغرينا بمعاودة النظر فى قصتك .

« ولقد كان الأجدر باللجنة أن تفطن إلى هذه الحقيقة ، وأن تفطن كذلك إلى أنه ليس من أحد يرعى حق نفسه ، ثم يرضى أن يزج بها فى هذا المعترك ، بعد أن رأى من أمرنا ما رأى . فماذا يكون الحال لو انقضى الأجل ، واضطرت اللجنة إلى النظر فيما لديها من قصص ، فلم تجد على المذود إلا شر البقر ؟ »

تنهد مليم وقال : « لا بأس . فهذا عصر شر البقر »

قلت : « وهل نسيت شرط المستوى ؟ »

قال : « سيقعون إذن فى حيص بيص »

قلت : « فإننى لم أعد الحقيقة إذن ، حين قلت لك إن مجانبة المنطق السليم مرة ، ستؤدى بمن جانبوه إلى ورطة نسأل الله لهم السلامة منها »

قال : « أو أن يكون الأمر فى هذه الجائزة أن تكون خالدة على مر العصور ، ونبراسا وهدى للعالم ، إلى أن يحين الحين »

قلت : « فلننتظر ونرقب أيها المسكين مليم ، فأنا لفى شوق عظيم ، لمعرفة نتيجة هذا المشكل الأليم ، وقانا الله وإياك بأس كل ظالم ظليم »

° ° °

وحين وصلنا إلى هذا الحد من النقاش ، كان التعب قد بلغ بمليم ونى حدا استحققنا معه أن نكافىء أنفسنا بشىء من العبث واللهو . فدلف بى

إلى حجرة حمراء فى منزله ، حيث أعد لنا جلسة عائلية بريئة ، لم تحضرها زوجه بطبيعة الحال . وأنا ومليم لنا قدرة على اللهو أعظم من قدرتنا على العمل . فانكببنا على عبث برىء استعملنا فى تذوقه حواسنا الخمس جميعا . وبقينا على هذا الحال حتى انفتق أديم الصباح ، وصاح الديك أن اهجعوا إلى مضاجعكم فقد حان وقت الرقاد . ونحن قوم لا نعصى للديك أمرا . . .

وأفقنا أخيرا ، فلم تكن هناك مندوحة من الإفاقة فى عالم الكد والنصب . وجلسنا نحتسى قهوة ساخنة ، وشطائر شهية ، وقد تشعب بنا الحديث إلى وجوه شتى . وأنا فى أمثال هذه الجلسات أقوم بدور نديم مليم وسميره ، فأسوق إليه القصص ، وأروى له النوادر والفكاهات بغية أن أسليه وأضحكه . فهذه ضريبة الغنى على الفقير إن ضمهما مجلس واحد . وما كنت ممن يهرب من أداء الضرائب لأصحابها .

ولقد حدث فى هذا المساء أن سقت لمليم نادرة أعجبته . فوجدته يقول لى بعد أن أتممت روايتها .

— لا أكتمك أنى سمعت هذه النادرة من قبل . غير أن طريقة أدائك لها دفعتنى إلى تتبعها باشتياق يفضل اشتياقى إذ سمعتها للمرة الأولى . وهذا ما يحيرنى فيك أيها الكاتب . فلقد سمعتهم يقولون إن أسلوبك فى الكتابة ليس كما ينبغى أن يكون .

قلت : « هذا حق . فإن الكاتب لا يصل إلى استحداث أسلوب سهل ، واضح ، حى ، إلا بعد جهد ومثابرة ، وتجارب طويلة منوعة . وأنا لاأزال فى مقتبل عمو إن طال — رغم ما يحيط به من محن وأشجان فما يكون هذا إلا بفضل من ربك » .

قال . « إنهم لا يعيبون عليك أن أسلوبك لم يكن بالسهل الواضح ، وإنما فهمت أنهم كانوا يريدونه جزلا ، متقعرا ، رنانا . فلقد كان من واجبك أن تستعمل ألفاظا ضخمة تملأ الفم ، وتلفق سجعاً موزوناً يلذ السمع ، وتأتى بمفردات غريبة تبهر النفس ، حتى يقال إنك كاتب متمكن ،

ضحكت ، وقد كان الضحك منى سفاهة ، إلا أننى لست ممن يستطيعون البكاء . وقلت لمليم :

— هذا يذكرنى بحادثة وقعت للكاتب سومرست موم الذى حدثتك عنه ، وقد وصفها بأنها كانت درسه الأول فى اللغة الإنجليزية . فقد حلا له يوما أن يتخذ لنفسه سكرتيرة تعاونه فى عمله . ووقع اختياره على فتاة تخرجت فى إحدى الكليات التى تعد الفتيات لهذا العمل بالذات . وفى ذات صباح وصلته أصول إحدى قصصه مضروبة على الآلة الكاتبة ، فدفع بعضها إلى سكرتيرته الجديدة ، وطلب إليها أن تصحح ما فيها من أخطاء . وكان كل ما عناه تصحيح الأغلاط المطبعية والهجائية وما إلى ذلك . ولكن الفتاة كانت ذات ضمير حى ، فوجدها حين أعادت إليه الأصول فى اليوم التالى قد أرفقت بها أربع صفحات طوال مشحونة بأنواع من التصحيحات . وكان موم فى هذا الحين كاتباً ذا شهرة عالمية ، وله أسلوب جميل يعتبر من أهم مميزات قصصه . دهش الرجل وأحس بشىء من الضيق ، ولكنه ملك زمام نفسه فجلس إلى مكتبه وأخذ يتفحص تقرير اتهامه المدون فى هاته الصفحات الأربع .

لقد هتكت الفتاة عرض أسلوبه هتكا .. وكانت مع ذلك أقرب إلى الصحة اللغوية من الكاتب الأشهر سومرست موم ذى الأسلوب الممتاز . تأمل المسكين نفسه فى حسرة ثم قال : يقينا لقد كنت أرسب فى أى

امتحان يعقده لى ذلك الأستاذ العتيد الذى تلقت سكرتيرتى على يديه معلوماتها القيمة .

ولعله استغنى عن خدماتها بعد تلك التجربة المؤلمة

ولموم حادثة طريفة أخرى رواها فى كتابه « التلخيص » الذى جمع فيه زبدة آرائه فى الأدب بعد أن قضى فى الاشتغال به ما يقرب من الأربعين عاما . قال إنه فى فجر حيـــاته الأدبية هاله فقره فى معرفته لمفردات اللغة . فانطلق إلى المتحف البريطانى بلندن ومعه قلم وأوراق أخذ يدون فيها قوائم طويلة بأسماء الجواهر الغريبة ، وبمختلف الألفاظ التى تطلق على إحساسات اللمس والشم والذوق . واستمر جاهداً فى تدوين هذا وغيره حتى خرج من ذلك بمحصول وفير . وكان هذا درسه الثانى فى اللغة الإنجليزية . فكيف انتفع به ؟

يقول إنه لحسن حظه لم تسنح له فرصة استعمال لفظ واحد مما جمع . ولا تزال هذه القوائم مودعة فى أحد أدراج مكتبه ، وهو على استعداد لإهدائها إلى كل من تحدثه نفسه بأن يكتب هراء ولغوا .

وهو يحدثنا مع ذلك أنه كان قد وضع كتيبا صغيراً وهو تحت تأثير هذه النزعة . فلما عاد إليه بعد بضع سنوات ألفى أنه لم يؤلف فى حياته أسخف من هذا الكتاب . كان كفتى نفاج (١) يرتدى ملابس العيد أول مرة .

واعلم يا مليم أن معظم ما يكتب فى مجلاتنا الأدبية لعهدنا هذا ، إنما هو من كتابة الفتى النفاج . وأنا لفقرى لا أدعى هذا الوصف لنفسى .

---

(١) قيل إن النفاج هو من يعنونه فى الانجليزية بكلمة snob .

قال : « كان الأخلق أن تدعيه ما اقتصر الأمر عندنا على الادعاء . لقد سمعت أنك عالجت موضوع قصتك على نهج يرضاه الفن . فما ضرك لو أسعفت ذلك بلفظ يرضاه المجمع ؟ »

قلت : « هذه سفسطة أوقعك فيها نظرة خاطئة إلى فن الأدب . إن كانت قصتك قد أعجبت أحداً ، فإنما تكون أعجبته كوحدة متماسكة لا تمييز فيها بين الأسلوب والموضوع . فهما فى الواقع غير متميزين . ولا يمكن أن يستقل أحدهما عن الآخر إلا عند من لا يدرك طبيعة فن الكتابة »

قال : « عجباً ! أحسبك لم تسمع قولهم إن الأفكار ملقاة إلى جانب الطريق يلتقطها من يشاء ، حين يشاء . فإن كان هناك فضل فهو فضل من صاغ الفكرة فى عبارة جزلة ، وليس فضل من التقطها فأدركها . فأنت ترى أن الفكرة واللفظ ليسا شيئين متميزين فحسب ، بل أن اللفظ هو كل شىء ، والفكرة لا تكاد تكون شيئا » .

قلت : « هذه سفسطة أخرى كانت السبب فى نكبة الأدب العربى فى جل عهوده ، وهى لا تزال نذير سوء يتهدد كل نهضة أدبية جديرة بهذا الاسم . اعلم أن اللفظ لا وجود له بغير الفكرة ، أما الفكرة فتستطيع أن توجد فى صورة غير صورة اللفظ . إنما اللفظ عالة يعيش من فضل الأفكار ، فما رأيك فى أمة درجت على أن تعيش بالألفاظ والألفاظ : أمة تاريخها ألفاظ لا أعمال ، وأدبها ألفاظ لا أفكار ، بل أكاد أقول إن نسلها ألفاظ لا رجال . . . إننى مبتئس يا مليم »

أطرق مليم هنيهة ثم رفع رأسه وقال : « هل الذى تشكو منه قد اختصت به الأقدار أمتنا وحدها ؟ »

قلت : « إلى حد ما . ولو أن الخصومة الناشبة حول لغة الكتابة — ولغة الرواية على الأخص — شملت آداب الأمم أجمع . فلقد وجد دائما من يقول بوجوب صقل تلك اللغة صقلا دقيقا وفقا للأصول التقليدية لفن الكتابة . بينما يؤكد آخرون أن الغاية من الرواية هي أن تخلق شخصيات ، وأن تنفث فيها الحياة ، وأما العناية بالأسلوب فأمر ثانوي.

هذه الخصومة ظلت تتجدد على مر العصور . وتتوقف غلبة أحد الرأيين على مقدار نضج كل أمة ومبلغ حيويتها . فإما أدب لفظي وإما أدب حي . وكان آخر من أثار هذه الخصومة في الغرب — في القرن الثامن عشر — الشاعر پوب الذي أتى ببدعة أن هناك أسلوبا بعينه هو الذي يلائم الشعر والأدب . وظل هذا الرأي ينتج أثره السيء في آداب هذا القرن حتى أحاله إلى أدب لفظي يعنى فيه بالعبارة الجزلة واللفظ الطريف على حساب بقية عناصر الأدب التي تفوقه في الأهمية .

أما في فرنسا فقد رد هذا الرأي جماعة « جونكور » الذين دعوا الكتاب إلى استعمال ما أسموه « الأسلوب الفني » . ويقول الكاتب ديهامل في كتابه « دفاع عن الأدب » إن هذه الدعوة أساءت إلى النثر الروائي أكبر إساءة ، إذ أثقلته بمحسنات متكلفة نأت به عن الأسلوب الطبيعي ..

استمع يا مليم إلى هذا الكاتب العبقري إذ يقول : « إن من الهواة الذين ملوا كل شيء من يفضل التنقيب عن شواذ اللغة وشواذ التراكيب واهما أن أصالة الكاتب في الألفاظ والتراكيب ، بينما الأصالة الحقيقية ليست في الصياغة وإنما هي صفة النفس . فالبيغاوات تقلد بنجاح الكتاب الذين ترجع أصالتهم إلى شذوذ في الصناعة ، بينما يشق تقليد أولئك

الذين تصدر أصالتهم العميقة عن جوهر نفوسهم . »

« لهذا تراه يشبه كتاب الألفاظ والتراكيب بأولئك النهمة المنحلين الذين يحلمون بالأطعمة الخارقة ، فيودون أن يأكلوا « أوكار القطاة » أو « خراطيم الحلاليف » أو « أجنحة الرقا » . ويقول : « تلك نزوة ساعة . نزوة حقيرة » .

فأنت ترى يا مليم أن كتاب الألفاظ هم الكتاب الذين يشعرون بعجزهم عن استنباط أسلوب ذاتى حى ، فتراهم يعمدون إلى فن الصياغة فيصبحون صناعا ، بدلا من اعتمادهم على فن الموسيقى ليكونوا خالقين . إنما الأسلوب هو الرجل .

« ولقد ظل أثر الاتجاه السيء الذى نادى به پوب سائداً فى انجلترا إلى أن ظهر الشاعر وردسورث فأظهر زيف هذا المقياس الخاطىء ، وأتى بالمبدأ السليم الذى أصبح مقياسا للنقد بعده ، وهو أن كل لغة تناسب المقام يجوز استخدامها فى الأدب . أما العيب الوحيد الذى يسيء إلى الأسلوب ، فهو أن يكون عاجزاً عن التعبير ، بمعنى أنه لا يستطيع إيصال الفكرة صحيحة دقيقة حية » .

قال : « لقد رفعت من شأن الفكرة حتى جعلت منها ملكا متوجا تخضع له الرقاب . وفى اعتقادى أنك محق فالعالم ذاته فكرة تتطور . ولكن حدثنى أليست الفكرة تخطر لكاتب بعينه فيعبر عنها تعبيراً حسنا أو سيئاً ؟ »

قلت : « هذا رأى النظرة العجلى . فالفكرة لا تخطر للكاتب مجردة بل تأتيه فى صورة ألفاظ . هذه الصورة اللفظية هى أسلوبه الذى تتحكم فيه الفكرة تحكما تاما . لهذا فأنت لا تستطيع أن تعبر عن الخاطر عينه

بطريقتين مختلفتين . فحتم أن يتغير المعنى إن اختلفت طريقة الصياغة ، لأن المعنى الذى يوحى به إليك كاتب ما هو خليط غير منفصل من الفكرة واللفظ .

فمن يفهم الأدب فهما صحيحاً لا يقر بإمكان وجود موضوع جيد مكتوب بأسلوب ردىء . لأنك إن أعجبت بالموضوع فأسلوب الكاتب وألفاظه هما اللذان أوحيا إليك بالإعجاب ، منهما الصلة الوحيدة بينه وبينك .

« ثمة فكرة جميلة سرت إلى نفسك وأنت نطالع كتابا . كيف تم هذا ؟ عن طريق لفظ وفى صورة لفظ . فحتم إذن أن يكون الجمال فى اللفظ . إذ لو كان الأسلوب رديئاً لما وصلتك الفكرة الجميلة .

« هذه الحقيقة أصبح يدركها كتاب الغرب حق الفهم ، حتى صارت الأساس الذى تقوم عليه المدرسة الحديثة فى النقد . لم يعد للنقد قواعد عامة جامدة مجردة . إنما القاعدة الوحيدة للحكم على الآثار الأدبية هى تلك التى أتى بها مانزونى الشاعر والناقد الإيطالى . ليس هناك فكرة ولفظ . بل أن كل مؤلف يبسط لمن يريد أن يتفحصه المبادىء اللازمة للحكم عليه . وهذه المبادىء يمكن استنباطها بأن تسأل أسئلة ثلاثة : ما الغرض الذى يرمى اليه المؤلف ؟ وهل هذا الغرض معقول ؟ وهل استطاع المؤلف أن يبلغ هذا الغرض ؟ فأنت لا تحكم على المؤلف وفقا لقواعد موضوعة أو آراء يتصورها الناقد سواء بالنسبة لطريقة العلاج أو بالنسبة للأسلوب ، ولكنك ملزم بأن تحكم على الكاتب فى حدود النطاق الذى رسمه لك .

ليس هناك فكرة ولفظ منفصلين مستقلين . لهذا يقرر الكاتب

الانجليزى أرنولد بنيت أنه لايستطيع فهم من يقول : إننى أقرأ لهذا أولذاك لجمال أسلوبه فحسب . إلاأن يكون مايعنيه حسن جرس الألفاظ ليس غير . ولكن المرء إن أعجبه بيت من الشعر لجمال موسيقاه فقط ، فإن قصيدة طويلة تجرى على هذا النمط ، قصاراها أن تبعث الملل فى النفس ، كما لو كنت فى حضرة امرأة جميلة ، ولكن ليس من وراء جمالها شىء . وحسبك أن تقرأ للجاحظ فتدرك صدق مقالتى » .

وهنا صاح مليم قائلا : « أجل . إنه الجاحظ ... لقد غاب عنى اسمه ، وقد كنت أريد أن أذكره لك ، فقد سمعت عنه كثيراً » . أحسست أننى على وشك الانفجار ، ولكننى جاهدت حتى استطعت أن أملك زمام نفسى ولذت بالصمت الحميد .

قال : « أراك لاتنطق » .

قلت : « وحق عندك ياماليم أن تتركنى لشأنى ، فرجلى يوشك أن ينفجر » .

قال : « أليس هو أمير البيان الذى يقاس به سائر الأدباء » .

قلت : « ليكن أمير البيان عند من يريد أن يوليه هذه الإمارة . ولكن القياس ممتنع على أى حال » .

قال : « كيف ؟ » .

قلت : « وبعد ياماليم ! » .

قال : أريد أن أفهم . أليس هذا من حق بعد أن أسقطتنى ؟ » .

قلت : « إذن فلتفهم من لسان غير لسانى . ليس عليك سوى أن تفتح كتاب الأستاذ أحمد الشايب المسمى « أصول النقد الأدبى » فتقرأ فى الصفحة ٢٥٤ منه : « مادام الأديب يؤدى إلينا فكرته ، ثم يشركنا معه فى شعوره مشاركة قوية ، فليس لنا عنده شىء ، بل ليس علينا دائماً أن نسأله كيف ظفر بهذه البراعة ، ولا أن نقرنه بأديب آخر اعتدنا أن

نجعله نموذجاً لحسن التعبير » .

« أفى هذا مايشبع نهم رغبتك فى الفهم ، أم تراك تطمع فى المزيد؟ » .

قال : « فهمنا هذا ، إنما بقى أن نسمع رأيك فى إمارة البيان ، أغلب ظنى أنك تنكرها على الرجل » .

قلت : « معاذ الله ! إننى إنما تذكرت قول شوقى رحمه الله » :

لست ليلاى داريا كيف أشكو وأنفجر
أشرح الشوق كله أم من الشوق أختصر

ثم استطردت قائلا : « دعنى بربك ياماليم فلا تزال لدى بقية من صبر أخشى أن تنفد » .

فسمعته يكرر قوله : « إنما أريد أن أفهم » .

قلت : « إذن فلتفهم من لسان غير لسانى . حسبك أن ترجع إلى الكتاب الذى أسلفت الإشارة إليه فتقرأ مايلى :

« عماد القدرة البيانية الأمانة . فهى السر الصحيح للأدب الجميل . والكاتب إذا أعوزته قوة الشعور أو جماله ، عجز عن التأثير فى القراء مهما يحاول ذلك التصنع الممقوت الذى لايلائم فكرة ولا إحساساً . على أن الأمانة أو الإخلاص ، لايمنع الكاتب استخدام قوة اللغة وعناصرها البيانية للظفر بالتعبير الدقيق المناسب . ولكنه يجب أن يجعل غايته هى التعبير عن نفسه ، ونقل مافى ذهنه إلى القراء ، لاأن يعكس الوضع فيتخذ الكتابة فرصة للعبث اللفظى أو البديعى أو الإغراب الذى يفسد غايته البيانية » .

قال : « ولكن كيف تفوت الجاحظ هذه الحقيقة الدارجة ؟ »

قلت : « أما أنها دارجة فلا . إنها لاتزال تفوت معظم من يمسك بالقلم فى شرقنا العربى هذا » .

فعاد يقول فى إصرار مقصود : « ولكن كيف تفوت الجاحظ ؟ »

ولما كان من عادتى أن أستعين على تفريج همى بالغناء فقد رحت أنشد قولهم « إنما ذلك لضعف فيكم يابنى عذرة . . »

ولعله كان قد بلغ هدفه فأطلقها فى وجهى كالقنبلة : « إذن فأنت ترمى الجاحظ بالضعف ؟ »

وهنا انفجر المرجل . . .

* * *

قلت : « أرى يا مليم أنك قد رميت بالقفاز . فإذا لم يكن ثمة من يقبل التحدى فسأكون كبش الفداء وأمرى لله . ولست أنقم عليك هذا فقد بات الأمر يستوجب التصريح بأشجان طالما جاشت بالفؤاد ، فكنا نتجنب البوح بها عن خشية أو عن كسل . أما وقد أصبح القوم يكثرون من التحدث عن براج وأهداف ما بعد الحرب ، فقد تكون الفرصة مواتية لأن نتحدث نحن أيضاً عن أسلوب مابعد الحرب . ولعمرى إنها مهمة كبيرة يضطلع بها رجل صغير . ولكن حسبى أن ألقى بدلوى فى الدلاء ، مدركاً أننى إنما أعبر عما يعتلج فى ألوف من النفوس منذ عهد بعيد .

تسألنى عن أسلوب الجاحظ وتريد أن تستخلص أننى رميته بالضعف . لاعليك ، إنه كذلك . إنه أسلوب لايقره أى كاتب يفهم فن الكتابة فهماً صحيحاً . ويدرك هذا السر الخفى الذى تسحر به الأفئدة .

لقد أردت أن تلقمنى حجراً . افتح الآن فمك فسألقمك آخر . إنى نظرت فيما وسعنى أن أقرأه من كتب الأدب العربى فلم أجد كاتباً واحداً عثر بطريق الأسلوب الفنى الصحيح . لقد غاب عنهم جميعاً أن الأسلوب

فكرة قبل أن يكون لفظاً ، وكان إحساسهم بالجمال بدائياً فجاء أسلوبهم كموسيق الزنوج » .

لم يفتنى ما خالج قلب مليم من الغبطة بما سمعه من حديثى . ولكننى رأيته يصطنع الدهشة أولا ، ثم يمزجها باستنكار دل عليه تقطيب جبينه وصوت يده التى هوى بها على المنضدة فى عنف لاموجب له .

قلت : « أسألك بدروى علام هذا الضجيج ؟ » .

قال : « وحق نفسى لقد أخشت بل كفرت » .

قلت : « فى مكنتى إقناع من يريد الاقتناع . إن فى يدى الدليل » .

قال : « سقه » .

قلت : « إنه يقتضيك أن تستمع إلى درس فى الأسلوب » .

قال : « أمرى لله . . . »

درس فى الاسلوب الفنى :

قلت :

الفكرة يامليم قد يعبر عنها بالموسيقا أو بالرسم أو بالنحت ، وقد يعبر عنها بالألفاظ . وتخطىء إن حسبت أن هذه وسائل مختلفة للتعبير يلتمس أيها من يشاء . بل إن الفكرة تخلق فى رأس صاحبها من أول الأمر إمامنغومة أو مرسومة أو منحوته أو فى صورة ألفاظ . والفكرة اللفظيه هى مايعنينا فى هذا المقام .

كيف تنقل هذه الفكرة اللفظية من ذهن صاحبها إلى ذهن غيره من الناس؟ لاجدال فى أن ذلك يكون عن طريق الألفاظ ؛ وهذا هو فن الكتابة.

فما تكون الألفاظ ؟

اللفظ هو اصطلاح ابتدعه الانسان حين وصل فى تطوره إلى مرحلة

الشعور الذاتى فاحتاج إلى التعبير عن الأشياء . والكائنات قبل أن يعرف الإنسان الكلام كانت أشياء بعينها يحدها الزمان والمكان . أما وقد سماها الإنسان بأسماء ابتكرها ، فقد أطلقها بهذا من حدود الزمان والمكان ، فصار اللفظ يعبر عن فكرة مجردة كشجرة وكلب ونهر .

قلت إن اللفظ اصطلاح ، وإنما الأصح أن نسميه رمزاً ، وأنت إن أردت أن تعبر عن فكرة جالت برأسك فما سبيلك إلى ذلك إلا أن تستعين بهذه الرموز : هذه الوسيلة الرمزية — كما يقول الأستاذ ابركرومبى — هى بطبيعتها وسيلة محدودة ، فى حين أنه ليس هنالك حد لتجارب الخيال البشرى . لهذا كان فن الأدب هو فن استخدام وسائل محدودة لتجارب غير محدودة . وكان لابد للفنان الأديب أن يعرف كيف يستخدم الألفاظ بطريقة تظهر كل ما احتوته من قوة التعبير والتصوير ، وأن يبث فيها عن دراية وعمد قوى خاصة إلى جانب قوة الكلام الصحيح .

ولا تظنن أن الأمر يسير ، أو هو مما يتاح إتقانه لكل من اجتهد فيه ، فإن اختيار الألفاظ يعتبر أعضل مشكلات الأسلوب جميعاً ، كما يقول الكاتب الانجليزى روبرت لويس ستيفنسون . ذلك أن فن الكتابة — على خلاف سائر الفنون الأخرى — أداته مادة جامدة معدة من قبل . والكاتب فى هذا الشأن يشبه صانع الفسيفساء ، لأنه مضطر إلى استخدام أداة صلبة محدودة هى الألفاظ . أما الفنون الأخرى كالرسم والموسيقا فمادتها طيعة مرنة ، يستطيع الفنان أن يسويها كيف يشاء .

ويشبه ستيفنسون فن الكتابة بلعبة الأطفال المعروفة التى هى عبارة عن قطع خشبية منوعة الأشكال ، إذا ضمت لبعضها بدت فى صورة

منزل أو كوخ ، حسبما تنهج فى ترتيبها . ولكنك لاتستطيع أن تستعمل هذه القطع استعمالا يتنافى مع صورها ، فهى إما عمود أو نافذة أو باب أو سلم . هكذا الألفاظ . فمن أراد الكتابة عليه أن يستعمل مثل هذه القطع الخشبية الموضوعة من قبل ، والمحدودة الحجوم والأشكال .

أما والألفاظ أدوات معدة من قبل ، فإن مهمة الكاتب تنحصر فى قدرته على أن ينتقى من بينها مايعبر أدق تعبير عن الفكرة التى يريد نقلها .

فمقياس نبوغ الكاتب هو براعته فى اختيار الألفاظ المحكمة ، ومقابلتها بعضها ببعض بحيث يستطيع أن يؤدى بها أرق المعانى ، وأن يعبر بها عن أدق خصائص الأشياء .

وهذا هو سر صناعة الكتابة ، وهو سر مغلق . فمن العسير أن تدرك كيف أن اللفظ العادى يبدو كالجوهر الثمين إن استعمله كاتب بارع . ولعل الأستاذ توفيق الحكيم هو أكثر كتابنا فهماً لهذا السر . فأنت تقرأ له فتحس بأنك تود لو تبتلع كلماته ابتلاعا ، وتسرى فى نفسك نشوة جميلة تدفعك إلى التهام الصفحة فى إثر الصفحة ، حتى إذا ماانتهيت من الكتاب أسفت لأنه لم يكن أطول مما كان .

ويحاول ستيفنسون أن يشرح هذا السر ، فيقول : إنه القدرة على أن تبث فى اللفظ روحه البدائية الأصلية حتى يستطيع القارىء أن ينفذ إلى أدق معانيه وكأنما يقرأه أول مرة . ثم هو القدرة على نظم الألفاظ وترتيبها بحيث تستطيع أن تنحرف بمعانيها إلى غير ما وضعت له . فأنت بذلك تكسر من حدة أداتك الجامدة ، فتجعلها مرنة طيعة ما أمكنك ذلك .

فيجب أن تعلم ياماليم أن المعنى الذى تجده فى معاجم اللغة ما هو إلا النواة التى يتجمع حولها طائفة من المعانى الثانوية . فالنواة تدل على شىء

أو حدث ما . أما المعانى الثانوية فتدل على النواحى المتعددة المتنوعة لذلك الشىء أو الحدث . وسر المهارة الأدبية هو فى إطلاق تلك المعانى الثانوية لتنتج أثرها فى الخيال بفضل ملاءمتها للفكرة ، وبما اختصت به من القدرة على إحياء التجارب فى نفس القارىء .

فاختيار اللفظ النابض بالمعنى ، المنتج لأثره فى النفس ، اللفظ المحكم الذى يفيض بسحر الشعر وأبهة المنطق السليم — هذا هو ما يمتاز به الأسلوب الجميل .

واختيار اللفظ هو العنصر الأول من عناصر الأسلوب . فهل وفق أدباء اللغة العربية إلى فهم اللفظ واختياره على الوجه الذى شرحت ؟ فى رأيى أنهم ابتعدوا كثيراً عن هذا الفهم ، وأن السبب فى هذا الابتعاد يرجع إلى عقيدتهم المتأصلة من أن اللفظ تابع للفكرة . وسأبين لك فيما بعد أن آداب اللغة العربية جميعها آداب لفظية ، وأن جل كتاب العرب كانوا على حد تعبير الأستاذ الشايب يفتهزون الكتابة فرصة للعبث اللفظى أو البديعى . ومرجع هذا إلى أن هؤلاء الكتاب — لأسباب بعضها سهل الادراك — كانوا يقدسون الألفاظ تقديساً خاصاً . وقد تملكتهم فكرة مؤداها أن اللغة العربية أعظم لغات العالم وأغناها وأجملها — ولست أدرى لم — فأحبوها لنفسها ، ونظروا إلى ألفاظها كغاية تقصد لذاتها لا كوسيلة وأداة للتعبير عن الفكرة . فكان الأديب منهم يرتحل إلى البادية حيث يمكث بين الأعراب ليتعرف منهم على غريب اللغة ، فإذا ما انتهى من تحصيله نزح إلى عاصمة الخلافة لاستغلال هذه الذخيرة فى الشعر أو النثر . فهو لم يكن يحصل أدباً وعلماً يمكنانه من استنباط الأفكار الفريدة ، ولكنه يكتفى بتحصيل اللغة — وهى أداة — على أنها غرض يرتجى لذاته . لاعجب إذن أن تكون بضاعته لفظية محضة ، يستغلها فى

تأدية الأفكار الدارجة ، والخواطر المتناقلة من عصر لعصر . لذلك كنت ترى الأديب ينقل عن الدهماء فلا يزيد فى أفكارهم سوى أنه يصوغها فى ألفاظ غريبة وتراكيب معقدة . بهذا انقلب الوضع الصحيح للأدب .

ولهذا لم يكن الأدب العربى من عوامل نهضة الأمم فى أى عصر من عصوره . فهو تابع لامتبوع ، شأنه فى ذلك شأن الفكرة المسكينة حيال اللفظ المتسلط .

ولعل مما يلقى بعض الضوء على سر استبداد اللفظ بأدباء العرب ماقاله «موم» بصدد الأسلوب الأدبى فى أمريكا . ففى رأيه أن هذا الأسلوب الذى يستمد معظم مقوماته من لغة الجمهور الحية : يعتبر — فى نماذجه الجيدة — أكثر أصالة وحيوية من أسلوب الكتاب الانجليز . وهو يرجع علة ذلك إلى أن الكتاب الأمريكيين نجوا من استعباد الترجمة الانجليزية للتوراة التى وضعت فى عصر الملك جيمس ، كما أنهم كانوا أقل تأثراً «بالأساتذة» الانجليز القدماء . والحق إن تحكم كتاب بعينه فى أدب شعب من الشعوب — ومثله تقديس كاتب قديم أو نخبة من الكتاب — معناه منع هذا الأدب من النمو والتطور ، والوقوف به عند حد معين لايتعداه إلا بالثورة . والثورة تصلح ، ولكنها تحطم وتفسد فى نفس الوقت . ومع ذلك فقد تصبح فى بعض الأحيان شراً لا بد منه . ويصيب هذا الشر — أول مايصيب — أولئك المساكين الذين أشعلوا نارها .

فإن كنت قد فهمت ياماليم مالاختيار اللفظ من أهمية قصوى ، وأدركت مايتطلبه هذا العمل من عناء وفطنة وحساسية ، علمت ان هذه محنة شديدة تستنفد جهد المؤلف ، فلا تترك له من الفراغ مايستطيع ان يصرفه فى استبدال لفظ ضرب بلفظ رطس ، ولا من الاستعداد مايدفعه إلى البحث عن سجع رنان ، أو تصيد تعبير متكلف أو تشبيه رث .

ومن حقك يامليم بعد ماأسلفت من رأى أن تبألنى الدليل عليه . وأنا لن أستشهد إلا « بأمير البيان » فيأتيك الدليل على لسانه . انظر إليه إذ يقول عن البخيل فى كتاب البخلاء !

« فلو أنه فطن لعيبه ، وفطن لمن فطن لعيبه ، فطن لضعفه عن علاج نفسه ، وعن تقويم أخلاطه ، . . . » وعن وعن إلى غير نهاية .

ألست تفطن إلى أن اللفظ قد استبد بالرجل ؟

ولست أطلب جوابك الساعة ، بل اقرأ له إذ يقول :

« وإذا ذموا قالوا : هو عبوس ، وهو كالح ، وهو قطوب ، وهو شتيم المحيا ، وهو مكفهر أبداً ، وهو كريه ، ومقبض الوجه ، وحامض الوجه ، وكأنما وجهه بالخل منضوح »

خبرنى هل قرأت هذه القوائم اللفظية فى كتاب أدبى غير عربى ؟

ولكنك قد تقول أننى أتجنى على الرجل ، وأن واجب الانصاف يقتضينى أن أتركه يعبر عن فكرة مالترى كيف يختار اللفظ المناسب . على رسلك واقرأ :

« لايغترن أحد بطول عمره ، وتقوس ظهره ، ورقة عظمه ، ووهن قوته ، أن يرى أكرومته ، ولا يخرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه ، وتحويله إلى ملك غيره ، وإلى تحكيم السرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه . فلعله أن يكون معمراً وهو لايدرى ، وممدوداً له فى السن وهو لايشعر ، ولعله أن يرزق الولد على اليأس ، أو يحدث عليه بعض مخبآت الدهور مما لايخطر على البال ، ولا تدركه العقول ، فيسترده ممن لايرده ، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه ، أضعف ما كان عن الطلب ، وأقبح ما يكون به الكسب . . . »

حسبك هذا القدر فقد أطلت عليك . وما كنت لتشعر بالإطالة لولا

شعورك بالتفاهة . فإن هذه المعركة الكلامية المحتدمة ، وتلك التراكيب الملتوية المعقدة ، وهذا التكرار الممل ، وهاته الألفاظ المتكاتفة التي تبخس الرجل قيمتها لأنه يلقي إليك بها كما تلقي الحجارة من المجرفة — كل هؤلاء للتعبير عن أن الأجدر بالرجل ألا يغتر بتقدمه في السن فينفق من ماله ، خشية أن يقع به مالم يكن في الحسبان فيندم .

فهل هذه الفكرة التافهة المسكينة المعروفة هي التي استوجبت أن يحشد لها الجاحظ هذه الجيوش المتراصة من الألفاظ للتعبير عنها ، أم أن الرجل قد انتهز الكتابة فرصة للعبث اللفظي ؟

إن كان كلام الجاحظ قد ترك في نفسك أثراً فأنا مخطئ . وإلا فقل معي إن أمير البيان العربي لايعرف فن اختيار اللفظ ، ففاتته الدعامة الأولى للأسلوب الجيد .

° ° °

اعلم يامليم أن الكاتب إذا انتهى من اختيار الألفاظ المعبرة عن فكرته كان عليه أن يصوغ هذه الألفاظ في جمل والصياغة هي العنصر الثاني من عناصر الأسلوب . ولا تظن أن أمرها يسير .

إن مهمة الكاتب المبدع هي أن ينسج معانيه بحيث تتكامل في كل واحد يدور حول محور يجذبه ويجمع شمله . فيجب أن تكون الجملة وحدة فنية مصقولة . والوحدة الفنية هي الصورة المستكملة العناصر من جهة ، والخالية من كل حشو أو فضول من جهة أخرى . فكل لفظ يكتب هو كل لفظ لا يمكن الاستغناء عنه ، ولا يتم المعنى بدونه .

ومع ذلك فمهمة الكاتب لاتقف عند هذا الحد . فالمعنى قد يؤدى على وجوه مختلفة . والكاتب المتفنن هو الذي يتحايل على المعنى ، فلا يدلي به

جزافاً بغير اعتناء ، أو بطريقة مفاجئة كمن يلقم حجراً ؛ بل سبيله إلى الأداء الروائى الصحيح هو أن يسير بمعناه خلال عبارات جملة حتى يصل به إلى ما يشبه العقدة . فاذا ما وصل إلى هذه العقدة عليه أن يكبح جماح المعنى وأن يتمهل فى الكشف عنه حتى يثير شوق القارىء . فاذا ما أوضحه بعد ذلك ، وحل تلك العقدة المشوقة ، وقع هذا فى نفس القارىء وقع قدوم حبيب طال انتظاره .

ويقول الكاتب ستيفنسون إن اصطناع هذه العقدة ضرورى لكل جملة حسنة التركيب .

وقد يعمد الكاتب إلى مضاعفة شعور لهفة القارىء على استنباط المعنى فيضيف إليه عنصر المفاجأة . فهو قد يعد ذهن القارىء لترقب معنى معيناً ثم يأتيه بنقيضه ، وقد يذهب إلى أبعد من هذا فيوهم باتباع هذه الحيلة ثم لا يلبث أن يروغ منها فلا يأتى بالمعنى العكسى الذى سعى لايهام القارىء بأنه سائر إليه .

فأنت ترى يا مليم أن الحيلة والخداع هما أساس الصياغة الروائية . وما سقت ما سقته إليك إلا على سبيل المثال . فظاهر وصور هذه الملكة الفذة لا تقع تحت حصر ، وإن كانت تجمعها قاعدة واحدة هى أن تكون طريقة عرض المعنى متغيرة أبداً ، مثيرة دائماً ، على أن تلتزم حدود الذكاء والوضوح وسرعة الخاطر . فعلى الكاتب أن يجعل من نفسه (حاوياً) يلعب بكرات مختلفة متعددة الألوان ، وأن يثير اهتمام القارىء بها جميعاً حتى لا يهمل النظر إلى احداها ، أو ينصرف عن حمراء منها فى سبيل تتبع الزرقاء .

ولقد تتناول كتاباً يا مليم فلا تستطيع أن تصبر على قراءة صفحة أو صفحتين ثم تلقى به جانباً . وقد تقع على كتاب آخر فتنسى الزمان والمكان ، وتتجاهل الطعام والشراب ؛ فلا تفيق إلى نفسك إلا بعد أن تلتهم آخر كلمة فيه . وأظننى قد وضعت أصبعك على سر هذا . إنه ملكة

اللعب بالكرات المتعددة الألوان . لقد كان أحد كاتبيك حاوياً، أما الآخر فنجار .

إحذر دائما ياعليم الكتاب النجارين . إحذر الجاحظ — إلا إن كنت تلتمس النوم فى ليل قائظ — ولا أحسبنى فى حاجة إلى أن اضرب لك مثلا يدلك على أن صاحبك لا يعنى بتشويقك أية عناية. فأسلوبه يسير على وتيرة واحدة لا عقدة فيها ولا حل . ويكفيك ما أوردته لك من أمثلة لتعرف أنه لا يعرف كيف يلعب بالكرات المختلفة الألوان ، بل هو يتناول كرة كالحة باهتة فيظل يضربها فى الحائط ثم يلقفها ساعة أو ساعتين . فلقد يستولى عليك النعاس وتنتابك الأحلام ، ثم تصحو فتلقاه لا يزال يضرب ويلقف .

* * *

ليس الأسلوب الفنى مقصوراً على اختيار اللفظ وصياغته فى عبارة . هذان العنصران قد يكفيان للتعبير عن الفكرة تعبيراً دقيقاً ، إلا أنهما وحدهما لا يسموان بالأسلوب إلى مرتبة الفنون الجميلة .

فالعبارة سواء قرأتها فى سريرتك أو تلفظت بها ، هى بطبيعتها صوت لا يكون جميلا بغير أن يكون موسيقياً . فالعنصر الثالث من عناصر الأسلوب هو جرس العبارة .

يقول سان سانس : « من المستحيل أن تتحدث بغير أن تغنى ، لا فى الشعر فحسب بل فى النثر أيضاً . وما أن ترفع صوتك أو تستثيرك عاطفة قوية حتى تأخذ فى الانشاد . وإذا بك ترتجل دون أن تشعر نشيداً تتخلله أجزاء من ألحان » .

فالحق أن الموسيقى تصحب كل أفكارنا سواء عبرنا عن هذه الأفكار لفظاً أو اكتفينا بادارتها فى أذهاننا . وما الكاتب — كما يقول ديهامل —

سوى رجل يلجأ فى العبارة عما يعلم إلى موسيقى لفظية يستخدمها بطبيعته فيتميز بها كأمارة خفية لخصائص نفسه . وهو لا يستطيع أن يؤثر فى نفس قارئه وأن يسيطر على حواسه إلا إذا لجأ إلى هذا الإيحاء الموسيقى يلتمسه فى التأليف بين جرس الألفاظ .

غير أن موسيقا الأسلوب ليست « شعر الألفاظ » على النحو السائد فى الأساليب العربية . وانه لما يثير الشجن حقاً ان نرى معظم كتابنا يقيسون موسيقية الأسلوب بهذا المقياس . بل ومنهم من نصب نفسه مدافعا عن هذا النثر الشعرى الموزون ، ويسمونه فى عرفهم التوازن أو الازدواج . وكيف لا يكون الازدواج حسنا وقد قال أبو هلال فى الصناعتين « لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا . ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج . . . » وقال فى موضع آخر « واعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط . ولا يلزمك فيها السجع . فان جعلتها مسجوعة كان أحسن ، ما لم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد . . . »

فالسجع الخالى من الاستكراه — ولست أفهم ما يكون الاستكراه — هو أرقى الأساليب فى اللغة العربية . وعليك أن تصدق هذا الرأى فقد قال به أبو هلال . ومن أبو هلال ؟ إنه صاحب كتاب الصناعتين . ولا تحسب أنهما صناعتا النجارة والحدادة بل هما النثر والشعر . فكيف لا تخشع احتراما لصاحب هذا الرأى الخطير ، وهو الذى أدرك بفطنته الوقادة أن النثر والشعر صناعتان !

— أنجب السيد أبو هلال أهلة كثيرين درجوا على اعتبار الأسلوب نجارة

ألفاظ تقتضى التقطيع والتشطير وفقا لمقاييس محددة ، وقواعد معلومة .

ولست بمستطيع أن أقنعك بمدى بعد هذا الرأى عن الفهم الصحيح للأسلوب الفنى ، إلا بأن أورد لك قول أحد الكتاب المعاصرين فى الدفاع عنه . وقد اتخذ لمقالته عنوان الدفاع عن البلاغة .

قال:(١) « رأيت معى أن تقطيع المنثور من الكلام جملا أو فقرا أو فواصل عمل بلاغى تقتضيه حالة النفس وحركة الذهن وطبيعة التنفس (!) وهذا التقطيع — وإن نشأ فى اللغة على مقتضى الطبع — له فلسفة وهندسة وموسيقى هن عناوين علم البلاغة ، وبراهين فن البليغ . . . أما الهندسة والموسيقى فلا كهما التلاؤم بين أجزاء الفقر وفواصلها . »

أرأيت كيف قرن بين الهندسة والموسيقى كما تقرن بين الدبّابة وإشعاع الشفق الوردى ! ثم اسمعه يقول :

« فالازدواج على إطلاقه ، والسجع على تقييده يؤلفان الموسيقية فى الأسلوب البليغ منذ كان للعرب ذوق وللعربية أدب . . . فالذين ينكرون على من يحسنون التأليف بين الأصوات ، والمزاوجة بين الكلمات ، والمجانسة بين الفواصل ، إنما ينكرون جمال البلاغة وجميل البلغاء فى دهر العروبة كله . »

ونحن يا مليم قد أنكرنا جمال البلاغة وجميل البلغاء فى دهر العروبة كله ، فلم تعد هذه التهمة مما يحرجنا أو يخيفنا . ولسنا وحدنا من ينكر هذه البلاغة المسجعة ، بل ينكرها معنا — لأنهم خرجوا عليها — الأساتذة توفيق الحكيم ، وأحمد بك أمين ، ومحمود بك تيمور ، وابرهيم عبد القادر

(١) الأستاذ أحمد حسن الزيات . الرسالة عدد ٥٧٠ .

المازنى وغيرهم . وينكرها أيضاً ناقد لامع ظهر فى سماء الأدب المصرى هو الدكتور محمد مندور الذى ذكر فى كتابه « فى الميزان الجديد » بصدد الأسلوب العربى : « لم نبلغ بعد ما نرجوه فى لغتنا من خلق أساليب تجمع بين الموسيقى والايحاء والطبيعة » .

ومع ذلك فقد يكون للأديب الذى يتمرس فى غير الآداب العربية عذره إن حاول استنباط أوجه الموسيقية فى الأساليب العربية . فلم يجد أمامه سوى الازدواج والسجع . وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو يسمع أن هناك كاتباً يدعى الجاحظ — ويلقبونه بأمير البيان — فاذا ما راجع هذا البيان وجده كالبندول المتأرجح فى وقع منتظم ، فيحسبه عنوان البلاغة التى تسمو على بلاغة لغات العالم أجمع . ومن يجهلك يكرهك وقد يعاديك .

هذى رسائل الجاحظ التى تعتبر أشهر كتاباته . وهذه رسالة التربيع والتدوير المعتبرة أشهرها جميعا . انتخب أية فقرة أردت ثم انظر فى أسطورة جمال البلاغة ، وجميل البلغاء ، وخبرنى كيف تتحقق فى أسلوب كهذا الأسلوب :

« جعلت فداك قد شاهدت الإنس مذ خلقوا ، ورأيت الجن قبل أن يحجبوا ، ووجدت الأشـياء بنفسك خالصة وممزوجة ، وأغفالا وموسومة ، وسالمة ومدخولة . فما تخفى عليك الحجة من الشبهة ، ولا السقم من الصحة ، ولا الممكن من الممتنع ، ولا المستغلق من المستبهم ، ولا النادر من البديع ، ولا شبه الدليل من الدليل . وعرفت علامة الثقة من علامة الريبة ، حتى صارت الأقسام عندك محصورة ، والحدود محفوظة ، والطبقات

معلومة ، والدنيا بحذافيرها مصورة ، ووجدت السبب كما وجدت المسبب ، وعرفت الاعتلال كما عرفت الاحتجاج ، وشاهدت العلل وهى تولد ، والأسباب وهى تصنع ، فعرفت المصنوع من المخلوق ، والحقيقة من التمويه . . . »

لا تجهد نفسك فى أن تفيد من هذا الكلام فائدة عقلية أو عاطفية ، فهى ألفاظ ليس من ورائها طائل . ولكن انظر اليها كصورة من أحسن صور الازدواج فكيف تجد موسيقاها ؟

الازدواج فى رأى الأستاذ الزيات : « موسقة » فطرية فى نفوس العرب جعلوا بها النثر أشبه بالنظم فى جمال الوصف وحسن الايقاع .

هذه الموسقة الفطرية هى فى رأيى موسيقى زنجية . . .

موسيقى زنجية قوامها تكرار النغم الواحد ، فى صور محدودة ، وتحوير طفيف .

موسيقى فطرية . موسيقى أدغال . موسيقى من يجهل الموسيقى .

قد تقول إن الذوق الموسيقى قد ارتقى كثيراً منذ عهد الجاحظ إلى الآن ، وإنه من الظلم أن نقيس الرجل بمقاييس هذا العصر . هذا الكلام لا يقال لى ، وإنما يقال لمن يدافعون عن أسلوبه ويرفعونه إلى مقام المثل المحتذى . ثم ما قولك فى الناقد ديمتريوس اليونانى الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد — أى قبل الجاحظ بأكثر من ألف عام ؟ — لقد وصل فى فهم الأسلوب الفنى إلى آراء لم يفطن اليها أدباء العرب فى ألف وثلاثمائة عام من الكتابة والتحرير . وهو يصف أسلوب الجاحظ وصف من قرأه فيقول :

« العبارات القصيرة لا تناسب الأسلوب الجميل ، بل ان استخدامها يجعل الصياغة جافة ضحلة ، فيبدو الأسلوب كأنه مبتور مفتت ، وبذلك يفقد تأثيره فى النفوس » .

هذه العبارات القصيرة الموزونة قد لا تناسب الأسلوب الجميل ولكنها تناسب الجاحظ ، وكل من ينحو نحوه من الذين لا يفهمون الكتابة إلا على أنها معرض للألفاظ والتراكيب ، ومجال لرصف مفردات اللغة وغريب اللفظ الفكرة عندهم ضئيلة كالنملة ، والعبارة ضخمة كالفيل ، واللغة غاية تتخذ لذاتها .

إن مثل هذا الأسلوب مثل لعبة شاعت بين الأطفال منذ سنوات ، قوامها منظار يحوى ثلاث مرايا متقابلة ، وفى وسطها قطع زجاجية ملونة . فأنت كلما حركت المنظار تغير وضع هذه القطع وانعكست صورتها على المرايا فى شكل جديد . أما القطع فهى نفس القطع . هذا حال من يرون الأسلوب لغة . المسألة عندهم مسألة ألفاظ تحرك وتبدل وتعاد صياغتها فى أشكال مختلفة . فاذا صادفت هذه الأشكال معانى تناسبها كان بها . وإلا فالمعانى ملقاة إلى جانب الطريق ، وحسبهم اللفظ الأجوف والعبارة الموزونة .

يقول الأستاذ الزيات إن الازدواج موسقة فطرية فى نفوس العرب جعلوا بها الشعر أشبه بالنظم . وهذا فى رأيه كسب كبير للنثر الفنى ، ولو أنصف لرأى أنه أكبر نكبة حلت بالأسلوب العربى ، فجعلته أبعد الأساليب عن الجمال الموسيقى .

حقيقة ياملم أن النثر يجب أن يكون منغوما ، ولكنه لا يجوز بحال

أن يكون موزونا ما دام نثرا . ويقول الكاتب الانجليزى ستيفنسون إن الأديب يستطيع أن يصوغ عبارته على أية صورة أراد بشرط أن لا تكون شعرا . فالوزن والقافية يفسدان للنثر . ولقد أسمح لك أن تضمن نثرك عبارة يصح أن تكون بيتاً من الشعر أو شطراً منه . ولكن اذا تتابعت العبارات على قياس واحد ، فلا بد أن تثير فى النفس شعوراً بفقر الكاتب ، وقلة حيلته فى تنويع طريقة الصياغة . فلا عجب أن يبدو الأسلوب ضحلا مملا ، وسرعان ما يؤدى الى قطع الصلة الروحية بين الكاتب وقارئه .

ولأن الناثر يسمح له أن يتحرر من قيد الوزن فقد حق عليه أن يعمد الى متابعه التبديل فى طريقة الصياغة على نطاق أوسع من نطاق الشعر . لهذا فعليه ألا يخدع أذن القارىء ويخيب ظنه بهذه القفزات المنتظمة والعبارات الموزونة فإن ناحية الضعف فى الشعر هى هذا الوقع الهندسى المنتظم عند نهاية كل قافية . لهذا كانت معالجة الشعر غير المقفى أصعب وأشق من معالجة الشعر الموزون ، لأن الشاعر يضطر فيه الى استكشاف الموسيقى الأصيلة للفكرة ومتابعها ، ولا يصح له أن يحتج باضطراره الى التزام القافية .

والمسألة بعد سلسلة أخطاء إن بدأت فلن تنتهى . لقد نظروا إلى اللفظ كشىء منفصل عن الفكرة ، وعلى أنه غاية فى ذاته . وأرجو يا مليم أن أكون قد استطعت اثبات زيف هذا الرأى . فكيف يتصور فى عرف من يرى الفكرة واللفظ شيئاً واحدا أن تجعل للفكرة أوزاناً معينة بينما الفكرة لا وزن لها ولا ضابط ؟ كيف تعبر العبارة الموزونة عن فكرة ذات نغم موسيقى خاص لا يتفق والازدواج ؟ كيف تضع هذه القاعدة العامة

وهى أن الازدواج على اطلاقه ، والسجع على تقييده ، يؤلفان الموسيقية فى الأسلوب البليغ ؟ واذا كانت موسيقى الفكرة لا يناسبها السجع ولا الازدواج فكيف تصوغها ؟ وهل تحسبك تضل الى شىء ان اقتضت طبيعة الفكرة أن تسير فى طريق صاعد هابط ، ممتد ملتو ، فسرت أنت فى طريق مخالف هو طريق السجع والازدواج ؟ وكيف يتأتى لأسلوب بعينه أن يعبر عن افكار لا حصر لها ؟

أفلست معى يا مليم فى أنه خليق بالناثر أن يتجنب هذه الناحية الضعيفة فى الشعر وهو غير مقيد بها ؟ هذا فضلا عن أن شعور الكاتب بأنه مضطر الى المحافظة على الوزن أو التزام السجع يصرفه عن العناية بمميزات النثر الأصيلة التى شرحناها آنفا .

فكان للنثر جمال أرفع وأشمل من جمال الوزن والجرس . جمال مستمد من الانطلاق والتحرر من القيود . جمال النغم المتصل الذى يعلو ويهبط بغير ضابط . جمال اللحن الثائر المجنون الذى يحطم القواعد ويثور على القوانين ، لأنه هو نفسه القاعدة والقانون جمال الجبال البيض والبطاح الصفر والوديان الخضر ، يطوف بها جميعاً طير الفكرة فيحط أينما شاء ، ويغرد فوق أى فنن حيثما يروق له التغريد .

جمال الأسلوب هو جمال النفس التى يصدر عنها . ولكل كاتب موسيقاه الخاصة ، ولكل أسلوب فنى جمال مختلف .

إنما الأسلوب هو الرجل ، وليس الأسلوب بقاعدة تقرر فتتبع . وجمال الأسلوب من جمال الطبيعة ، فان استطعت أن تجعل من الازدواج قاعدة تسير عليها الأنهر والبحار والجبال والوديان ، كان لك أن تفرضها على الأسلوب .

استمع معى الى هذا اللحن ياملیم :

« طالما جلست فى صباى ساعات طويلة أتأمل قوافل النمل تسير على الحيطان. وكنت أحيانا أدنو منها وأصيح بأصوات مدوية ، فما يبدو عليها أنها سمعت شيئا ، فالنظام هو النظام ، والخطى هى الخطى ، والتجارة الضخمة المحمولة على الأعناق، وهى جناح «صرصار» كبير، مازالت تتهادى مطمئنة فى طريقها الى عاصمة المملكة العتيدة داخل ذلك الثقب البارز فى أسفل الجدار ... »(١)

ألست تجده لحنا جميلا ينعش الفؤاد ؟

انظر إلى الألفاظ كيف اختيرت . إنك لاتستطيع أن تنتزع لفظا واحدا لتحل محله آخر ، كما لا تستطيع أن تستغنى عن كلمة أو حرف فى أية عبارة من العبارات .

ثم انظر إلى طريقة الصياغة البارعة . لقد سار بك الكاتب وئيداً فى أول الأمر ، فأشركك فى تأملاته الهادئة لقوافل النمل المترنح . ولكنه لم يتركك على هذا الحال طويلا خشية أن تمل ، فما لبث أن خلق « العقدة » الفنية بتلك الصيحة المدوية التى أطلقها على جحافله . ثم ماذا ؟ إنك تنتظر بلهفة نتيجة هذا العمل المفاجىء والحادث الجلل . لقد أعد الكاتب ذهنك لاحتمالات مختلفة . أترى يهرب النمل مذعوراً وتنفض قوافله ؟ أترى تندفع جحافله للهجوم على هذا العدو الجرىء ؟ أم ترى تلتئم فيالقه وتتكمش استعداداً لاتخاذ خطة الدفاع ؟ لا شىء من هذا . إذ لم يبد على قوافل النمل أنها سمعت شيئاً . فالنظام هو النظام ، والخطى هى الخطى . أنظرت إلى براعة الصياغة كيف تكون ؟

(١) من كتاب « من البرج العاجى » للأستاذ توفيق الحكيم

أنظر إذن إلى ما هو أهم من هذا . أنظر إلى تلك الموسيقى الخفية السارية فى سلك الألفاظ . هذه الموسيقى التى تهدأ وترق حين التأمل ، ثم ترعد وتزمجر حين الصياح ، ثم تبتسم فى خبث حين تقدم لك حل « العقدة » الذى لم تكن تتوقعه . ليس الأمر سجعا أو ازدواجا . وإنما موسيقى طليقة ، دفينة ، تملأ شغاف نفسك بالنور والحبور ، وتوحى إلى الذهن بمعانى هفافة لا تحويها الألفاظ ذاتها ، وهى بذلك أداة إضافية فى يد الأديب الأريب يستعين بها على قسر الألفاظ المحددة الجامدة على المعانى المنوعة المرنة .

هذا هو الأسلوب الفنى كما نفهمه .

وذاك هو الأسلوب الهندسى كما يفهمه آخرون .

ولقد وضعنا الأسلوب الأول نصب أعيننا ، واجتهدنا أن نبلغ فيه بعض الشأن . فإن كنا قد أخفقنا — وقد نكون — فلأن الطريق شاق ، والمران قليل .

أما الأسلوب الآخر فالوصول إلى مرتبة الاجادة فيه هين قريب المنال . وقد تكون الحكمة فى اتباع هذا الأسلوب الآخر سعياً وراء اللقمة والتماساً للثناء . ولكننا قد اخترنا وانتهينا . وعلى الله الاتكال .

* * *

رأى فى الأدب العربى :

كنا على أبواب ليلة حارة فقمت إلى النافذة أتصيد بعض نسمات عابرة ، تاركا مليم ، مستلقياً على الأريكة ، حيث يعالج الحر علاجا لم أكن أرتاح إليه . واستغرقنى التفكير فى موضوع الأسلوب الذى كنا نتحدث فيه بالأمس . وكنت قد انتهيت إلى رأى فى الأدب العربى القديم أحببت أن أعرضه عليه لأتقى فى صدق فراسته ، ولأنه من الرجال القلائل الذين يلهمنى حديثهم بوجوه من الرأى أعجز عن الوصول إليها بمفردى عن طريق التأمل .

سألته :

— ما يكون الأدب عندك ياملم ؟

وبدلا من أن يجيبنى سمعته يصدر صوتاً لاترتاح اليه الأذن ، ولاتقره قواعد السلوك فى أية أمة من الأمم . وكنت أعلم أنه يبيح لنفسه معنى ما لا يبيحه لها مع الآخرين ، وخاصة بعد أن أصبح من سراة القوم .

قلت :

— عفواً فقد فاتنى أن مثلك لا يسأل عن معنى الأدب .

لم يجبنى على الفور ، بل سمعته يأتى حركته لم أستطع رؤيتها ، لأننى كنت أوليه ظهرى . ثم قال بعد هنيهة :

— على العكس أيها الكاتب . إننى أفهم معنى الأدب فهماً دقيقاً .

سألته وأنا لا أزال على وقفتى

— حدثنى ما هو ؟

قال :

— إنه كالذى بيدى : شىء يلذ ويشبع فى آن .

حسبته يلتهم إحدى ثمار المانجو التى يشغف بأكلها . فلما التفت وجدت زوجه فى الحجرة ، فغضضت الطرف ثم استعذت وبسملت . وكانت زوجه تحفظ لى جميل أننى زوجتها بمليم ، فقامت إلى بعد أن زجرته،وقدمت لى تفاحة شهية تساوى القضمة منها الآن ما يوازى عشاء عائلة ، ثم استأذنت وانصرفت .

قال : « ألم أصب فى تعريفى للأدب أيها الكاتب النحرير ؟ »

فاستعدت ذكرى ما كان بين يديه ثم قلت

— أجل . ولعمرك إنه تعريف قاطع كحد السيف ، ليس بعده زيادة لمستزيد . ولكنه لسوء الحظ لا يكتب على الورق .

قال : « ولم تسألنى هذا السؤال ؟ ألم يكفنى ما كان منك بالأمس ؟ »

قلت : « لقد دحرجت الكرة من أعلى التل فلن تستطيع لها ايقافا . وإننى حين آويت إلى فراشى تسلتنى الأفكار ، فانتهيت إلى رأى فى الأدب العربى وددت أن أعرضه عليك » .

قال : « ماذا دهاك يا رجل ؟ أما تترك الأدب العربى لحاله ؟ كأن بينكما خصومة لا يحمد لها أوار » .

قلت : « الأمر على نقيض ما تقول . إننى إنما ألتمس له النجاة من الهوة التى يتردى فيها . فنحن فى محنة شديدة لا بد لها من علاج ، فقد أصبح القوم فى مصر لا يفهمون معنى الأدب . ولما تدبرت الأمر وجدت أن أس البلاء كامن فى الأدب العربى القديم ، وفى إناس يريدون عن طريقه إعدام الذوق الأدبى إعداماً تاماً » .

قال : « وما وزر الأدب العربى هذه المرة ؟ »

قلت : « لقد حدثتك بالأمس عن كتاب العرب فقلت أن أحداً منهم

لم يستطع أن يعثر على الطريق الصحيح للأسلوب الفنى ولكن هذه ظاهرة لابد أن تصدر عن علة أصيلة . والعلاج لا يتيسر إلا إذا عرفت العلة ذاتها. قلت لك إن كتّاب العرب ليس لهم أسلوب فنى . واليوم أقول لك أن اللغة العربية ليس لها آداب بالمعنى الذى وقعت عليه الساعة » .

قال : « أتعنى أنه ليس فى اللغة العربية آداب تشبع وتلذ ؟ »

قلت : « أجل . إذا استثنيت الأدب المعاصر الذى جاء نتيجة اتصال معرفتنا بآداب الأمم الغربية » .

قال : « ويحك ! لقد بت أتوقع أن تأتينى فى الغد لتقول لى أن العرب ليس لهم لغة ، وأننا نتكلم الصينية »

قلت : « لا تتعجل الأمور » .

قال : « أفصح فالأمر جلل » .

قلت :

لقد نظرت فيما يسمى بالأدب العربى فوجدته يتسع فى أول عهوده لعلوم لاتمت للأدب بصلة كالفلك والحساب والهندسة والطب وما إليها مما نطلق عليه اليوم لفظ العلم science . وهذا أمر طبيعى . فالشعوب فى أول عهدها بالمدنية تقرن الأدب بالمعرفة العامة ، ولا تصل إلى التخصص إلا بعد أن تصعد فى مدارج النهضة درجات .

ولكننى رأيت أن نقاد العرب المتأخرين — كانوا قد استبعدوا من نطاقه بعض العلوم التى لا صلة لها به — قد ظلوا يرون فى الأدب رأياً لا يزال مستقراً فى كثير من الأذهان إلى عصرنا هذا . فهم قد لحظوا أن للأدب مقومات خاصة تميزه عن العلم ، ولكنهم حين أرادوا الكشف عن كنهه ، لم يفهموه على أنه فن جميل غايته التعبير عما تجيش به

الصدور من عواطف وما يحدّث به العقل من أفكار ، بل كان قصارى ما وصل اليه جهدهم هو أنهم قرنوه بعلوم اللغة .

فأنت ترى السكاكى مثلا يقول فى مقدمة كتابه « مفتاح العلوم » إنه قد ضمن كتابه من أنواع الأدب — دون نوع اللغة (!) — ما رآه لا بد منه ، وهى عدة أنواع متآخذة . وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول فى علم الصرف ، والقسم الثانى فى علم النحو ، والقسم الثالث فى علمى المعانى والبيان .

بل إن الجرجانى قد زاد الأمر خلطا وإبهاما ، إذ رجع إلى مذهب الأقدمين فى تعميم مدلول الأدب بدلا من تخصيصه . فتراه يقول فى كتاب التعريفات : « الأدب عبارة عن معرفة ما يتحرز به عن جميع أنواع الخطأ » . فهو قد جعل الأدب قرين التأدب والتثقف بالمعنى الذى قصده الجاحظ حين حاول تبيان مرامى الأدب فقال : « إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين فى الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التى يتفرع منها العلم لذوى الألباب أربعة : فمنها النجوم وأبراجها وحسابها ، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، ومنها الكيمياء والطب وما يتشعب من ذلك ، ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها » . وفهم الجاحظ للأدب على هذا الوجه هو الذى دفع به إلى تأليف كتاب فى علم الحيوان . وهو جهد مشكور ولكنه ليس جهد الأديب .

ويقول الأستاذ أحمد الشايب فى كتابه « أصول النقد الأدبى » إن هذه النظرة قد تأصلت فى أذهان كتاب العربية فأصبحوا يخلطون بين الأدباء وعلماء الأدب من النحويين واللغويين والنسابين ، فيوردون سيرهم جنباً إلى جنب فى كتب التراجم كما فعل ابن الانبارى فى كتابه « نزهة الألباء » ، وكما فعل ياقوت فى « معجم الأدباء » .

وحتى ابن خلدون — هذا المفكر المتأخر الذى سارت بذكره الركبان — تراه يعتبر الأدب علماً من علوم اللسان العربى، ويجعله قسيما للنحو واللغة والبديع، فيعرفه بانه «حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل فن بطرف، يريدون علم اللسان أو العلوم الشرعية...» ثم تراه يؤكد هذا الرأى حين يقرر أن تنمية المواهب الأدبية يكون بدراسة النصوص الأدبية وما يتصل بها «من شعر عالى الطبقة، وسجع متساو فى الاجادة، ومسائل من اللغة والنحو...»

وأعجب ما فى الأمر يا مليم أنه حين أراد أن يحدد موضوع الأدب قال: «هذا العلم لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهى الاجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم»

فالأدب فى عرف العالم الفاضل علم لا يرمى إلى غاية، وإنما هو مجرد وسيلة تتخذ لذاتها. إنه الاجادة فى فنى المنظوم والمنثور فحسب. أو بمعنى آخر يتحقق غرض الأدب بمجرد صياغة الكلام صياغة جيدة. فالصياغة عنده هى الأدب. وهذه هى نفس النظرة التى تعتبر أساس نكبة الأدب المصرى على وجه عام.

وفى ظنى أن طبيعة الأدب الحقة لا يمكن أن تخفى على مفكر متعمق كابن خلدون. وهو فيما أورد من تعريف للأدب يشعر بأنه إنما أراد أن يسخر من الآداب العربية فوصفها على حقيقتها وقال إنها لا موضوع لها.

ولم يعدل الأدب العربى عن هذه النظرة إلى وظيفته وطبيعته. فأنت لا تجد تعريفاً صحيحاً للأدب فى أى مؤلف سابق على تاريخ التأثر بالثقافة

الغربية . وما لنا نورد هذا التحفظ والحال على ماهو عليه إلى عصرنا هذا . حسبك أن تتناول أية جملة أدبية من مجلاتنا لترى أنها لا تحوى شيئاً من الأدب الحق ، بل هى مشحونة بعلوم اللغة وبالمقالات الأكاديمية التى يضعها كاتبوها ليشتروا فى الورق الذى طبعت عليه الطعمية واللب بعد حين ليس بالبعيد .

هذه النظرة بالذات هى التى دعت بعض الباحثين العصريين إلى القول بأنه لما كان الأدب هو « الكلام الذى يدعو إلى الاعجاب من حيث الافتنان فى الصناعة ، فمن الأوفق الاستعاضة عن كلمة أدب التى اختلفت عليها المعانى فى اللغة العربية فزادتها ابهاماً ، بكلمة بلاغة التى تؤدى نفس المعنى فى وضوح [١] » .

أرأيت ياملهم كيف يكون الأدب هو البلاغة !

إذن فنحن أمة متأخرة ، من أمم ما قبل التاريخ

وإلا فحدثنى بأى وجه نقابل ربنا يوم القيامة إن سئلنا عن معنى الأدب فقلنا : إنه الاستعارة والتشبيه !

ماذا نقول لمن يناقشنا الحساب فيقول : « كيف لم تفطنوا إلى أن الأدب سجل لخير الأفكار كما قال أمرسون ؟ أو إلى قول الآخر : نريد بالأدب أفكار الأذكياء ومشاعرهم مكتوبة بأسلوب يلذ القارىء ؟ أو إلى تعريف سانت بيف للأديب بأنه « الكاتب الذى يغنى العقل الانسانى ويزيد ثروته ، وهو الذى يعينه للسير قدما ، وهو الذى يكشف حقيقة أدبية ويعرضها واضحة ، أو ينفذ إلى العاطفة الخالدة فى قلب الانسان فينشرها ، فى حين

(١) الأستاذ أحمد ضيف فى مقدمة فى دراسة بلاغة العرب .

يظن الناس أن كل ما فيه مرتاد معروف » ؟

° ° °

قلت لك يا مليم إن الأمر ليس عارضا عابراً ، وإنما علة متأصلة .

ولقد أوضحت لك آنفا الأساس اللفظى فى الأسلوب العربى ، وشرحت لك وشيكا الأساس اللفظى فى تعريف الأدب عند نقاد العرب ، وسأبين لك الساعة كيف أن هذا الأساس عينه يفرض نفسه على هؤلاء النقاد حين أرادوا تقسيم الأدب إلى فروعه المختلفة .

لعمرك ستدهش يا مليم !

ينقسم الأدب فى عرف نقاد العرب إلى شعر ونثر .

وهم لم يستطيعوا الاهتداء إلى هذا التقسيم البارع إلا فى القرن الخامس الهجرى . لا تعجب فهذا الكشف الخطير كان فى حاجة إلى عبقريات أجيال متلاحقة .

هؤلاء النقاد — كما يقول الأستاذ الشايب — قد وقفوا عند الوزن والقافية — مجاراة للعروضيين — فاتخذوا منها أساسا لتقسيم الكلام إلى نظم ونثر . فأساس التقسيم عندهم هو طريقة الأداء وليس موضوع العمل الأدبى . فالموضوع — دائما — لا أهمية له عندهم .

وهذه نتيجة طبيعية لاعتبارهم الأدب صياغة ألفاظ فحسب . هذه الصياغة ليس لها إلا صورتان . فهى إما مقفاة فتكون نظما ، وإما مرسلة فتكون نثراً .

ومن المحزن حقاً أن تجد كتاب العرب يتجاهلون الفكرة والموضوع هذا التجاهل العنيد ، بينما ترى نقاد الغرب يعثرون على الطريق القويم من

قديم الزمان . وحسبك أن تفتح كتاب « الشعر » لأرسطو فتجده يقسم الأدب إلى ملاحم ومآسى وكوميديا ، وهى جميعاً — فيما عدا أولها — قد تكون شعراً أو نثراً حسبما يشاء الكاتب . وقد لا يكون هذا التقسيم دقيقاً شاملا ، ولكن حسبه أن يبنى على فهم صحيح لطبيعة الأدب . هذا الفهم الصحيح الشامل يتجلى أولا فى نظرية أرسطو الشهيرة التى مبناها أن موضوع الفن هو المحاكاة ، وأن موضوع المحاكاة هو أعمال الرجال . أى أن غرض الفن هو تصوير الحياة . ويتجلى هذا الفهم ثانياً فى تفرقته بين موضوع العمل الفنى وطريقة صياغته . فهو يقول : « ما الوزن والكلمات والنغم سوى وسائل مختلفة تتحقق بها المحاكاة فى شتى الفنون » . فالفكرة قد يعبر عنها نظما أو نثراً أو بالموسيقى أو النحت .

* * *

قلت : « أرجو ألا تمل صحبتى يا مليم فلا تزال أمامنا جولتان فى بطون الأدب العربى ، ثم أطلق سراحك بعدهما إلى حين » .

قال : « إلى حين ؟ ومتى يكون الخلاص التام إذن ؟ »

قلت : « لا أدرى . فانى أدلف إلى الفراش فيوحى إلى . وليس أمامى غيرك أبثه هذا الوحى ما دامت قصتك مصدره ، فالتمس الصبر »

قال : « أرى أنها قد صارت مصدر بلواى من قبل ومن بعد . لا بأس أيها الرجل الذى لا يتعب من الكلام . استمر فى حديثك فالليل حار ولست أحس بميل إلى النوم . ولكننى إن كنت سأتحمل جهد الانصات إليك فعلى شريطة أن تقص على بعض النكات الجديدة بعد أن ننتهى من الأدب العربى » .

قلت : « أقبل شرطك على العين والرأس . ولست أكتمك أن لدى نكاتاً طريفة عن عمال « الأورنس » ستتعب جنبيك من فرط الضحك » .

مددت يدى إلى المائدة فتناولت بعض ما ينعش الفؤاد ثم قلت :

قسم نقاد العرب الأدب تقسيم وسيلة لا غاية ، فجعلوه نثراً ونظما . والنقاد كما تعلم غير الأدباء . ومن الجائز أن يكونوا قد ظلموهم بهذا التقسيم التعسفى عن جهل منهم لا يشاركهم فيه الأدباء . فلنبحث إذن فى الخزانة العربية لنحكم على ما فيها من آثار أدبية . ولنبدأ بالنثر .

استولى الذعر على مليم فهم برأسه من فوق الوسادة وقال :

ــ هل سنبحث فى هذه الخزانة الآن ؟

قلت : « لا تتعب نفسك فلقد قمت ببعض هذا البحث » .

استراح مليم برأسه حيث كانت ثم قال : « وماذا وجدت ؟ »

قلت : « لم أجد شيئاً »

قال : « هل سرقت الخزانة العربية قبل زيارتك لها ؟ »

قلت : « لا تتغابى يامليم . ان ما أعنيه هو أننى نظرت فى كتب الأدب العربى فلم أجد من بينها كتاباً أدبياً واحداً »

قال : « عجباً . فيم كان يكتب أدباؤنا اذن ؟ »

قلت : « فى كل شىء سوى الأدب بمعناه الحق . الأدب الذى ينفذ الى العاطفة الخالدة فى قلب الانسان فينشرها »

قال : « أتراهم كانوا يستخدمون أدبهم فى كتابة وصفات طبية مثلا؟ »

قلت : « هذا إذا تعقل الكاتب . ماذا يفعل حسن النية إذا أراد أن يتثقف فى آداب اللغة العربية أكثر من أن يبتاع كتاب «زهر الآداب» ؟

ولقد يستكرى حمالا يوقر ظهره بثقل أجزائه العديدة ، حتى إذا وصل بحمله سالماً واستقر به المقام ، فلقد ينتخب أحد هذه الأجزاء ليقرأه فلا يجد فيه غير وصفات لتقوية الباه وأخرى لإطالة أمد الجماع » .

قال : هذا عجيب . وهل كل كتب الأدب العربى مثل « زهر الآداب ؟ » .

قلت :

ـ لست أدعى أننى أحطت بكل كتب الأدب العربى أو بنصفها أو بربعها . ولكننى كنت كلما سمعتهم يمتدحون كتاباً أسرعت إلى شرائه ، ثم أستكرى حمالا وأعدو به إلى منزلى . ولم أجاز مرة واحدة على كل ما بذلت من جهد ومال . كنت لا أقرأ بضع صفحات حتى أضج وأهم بالقاء الكتاب ، ولكننى كنت أستعين بالصبر وأواصل القراءة ، حتى لقد قرأت بعض الكتب من الغلاف إلى الغلاف . وهذا ـ إذا كان الكتاب عربياً قديماً ـ يعتبر نوعاً من التعذيب بل الاستشهاد . إن الأدب فى اعتبارهم أفكار الأغبياء ومشاعرهم مكتوبة بأسلوب يضجر القارىء ، وكثيراً ما يبعث فيه السخط ويزهده فى الحياة .

فالأدب يا مليم ليس فلسفة ولا تاريخاً . إنه أحد الفنون الجميلة . وما الفنون إلا خلق وإبداع مستمد من جوهر الحياة . هذا العنصر الانشائى هو الذى يجعل الكتابة فناً وبالتالى أدبا . أما نقل أحداث الحياة كما هى ، فان كانت الأحداث قديمة سمى تاريخاً ، وإن كانت معاصرة لم تعد أن تكون خبرا . وأما الحكم والمواعظ فهى أدخل فى باب الفلسفه والأخلاق منها فى باب الأدب .

ولقد بحثت فى كتب الأدب العربى التى وقعت عليها فلم أجد إلا مجاميع للنوادر والحكايات ، أو مختارات من الشعر والنثر ، أو تفلسف ينتهى بمواعظ جافة باردة لا تنبض بالحياة ، ولا صلة لها بما يضطرب به قلب الانسان من مشاعر . فهو إما أدب لفظى بحت يستعين بمنطق هزيل شكلى لا ينوبك منه سوى وجع الرأس ، وإما أخبار عادية كتلك التى تعج بها المجلات الأسبوعية فى هذا العهد : قيس حين التقى بليلى بكى وسقط مغشياً عليه وجرى له لا أدرى ماذا وماذا . . . فلان كان من فرط بخله يفعل بضيوفه كذا وكيت . . . كان لهذا الشاعر نادرة مع ذاك الأديب فانه حين قدم عليه سأله من أشعر الناس فأجاب هو القائل . . . فعارضه وأصر على أنه القائل . . . ثم يحتدم الخصام . . .

هذا ليس أدباً . وإنما هو فى أحسن صورة ماده لأدب لم ينشأ بعد . فالأدب هو استغلال الحادثة لا روايتها كما وقعت . وإلا فكل الناس أدباء . وإن معظم كتب الأدب العربى هى من النوع الذى يسميه الغربيون « كتب الفراش » . ويعنون بها الكتب التى تحوى مجموعات من النوادر الخفيفة والحكايات المسلية التى لاتجهد العقل وتعين على النوم .

عقلية كتاب العرب عقلية لفظية بحتة . والمقصود بالكتاب الأدبى فى عرفهم هو الكتاب الذى يعينك على حفظ مفردات اللغة والتراكيب البلاغية . فالكاتب منهم لم يكن يمسك بالقلم ليعبر عن فكرة جالت بخاطره ، وإنما يمسكه ليستفرغ ما استوعبه من مفردات شاذة وما نمقته عقليته اللفظية من استعارات وتشبيهات .

أتكون هذه وظيفة الكاتب الاجتماعية التى يعرفها كلوديل بأنها نقل

المجهول إلى المعلوم بمعنى أن يكون الكاتب مكتشفاً حقيقيا ومخترعاً ومنقباً، والتى يفسرها ديهامل على أنها مساعدة الكاتب لبنى جنسه على فهم الانسان والعالم فهماً أصح وأشمل ؟

دعنى أقرر على مسئوليتى يا مليم بأننى لم أعثر بكاتب عربى — اذا استثنيت المعرى وهو فيلسوف — ساعدنى على فهم العالم فهما أصح . لا أنكر أن من بينهم من يأتى أحياناً بملاحظات عابرة تحوى بعض الصدق والأصالة . ولكن هذا وحده لا يجعل من المرء أديباً . فكل انسان على سطح الأرض تصدر عنه مثل هذه الخواطر .

فانت قد تتنبه لبعض الحقائق الجزئية مصادفة وبطريقة عارضة . ولكن مايميز الأديب عن غير الأديب هو أن الأديب يستطيع أن يربط هذه الحقائق بجوهر الكون وأن يضعها فى موضعها من القلب البشرى الذى يعرفه حق المعرفة . الأديب هو صاحب القدرة على الربط والتعميم . إنه لا يقف عند الجزئيات ، لأن نظرته تشمل العالم بأسره . الأديب هو من ينظر الى العالم أولا فيحس بما يثيره فى النفس من اهتمام يفوق حد الوصف . إنه — كما يقول أرنولد بنيت — هو صاحب النظرة الأشمل والاحساس الأعمق . فهو إن تدلى الى الجزئيات والتفاصيل عرف كيف ينفذ بها الى الحقائق العامة التى تسيطر عليها . إنه من كانت حياته نشوة طويلة تنكر أن العالم مكان ممل .

بهذا وحده يستطيع الكاتب أن يجعلنى أفهم الانسان والعالم فهماً أصح . وإلا فليس له أن يمسك بالقلم .

ولكنهم أمسكوا بالأقلام وأنشأوا كتباً . وهذا لاضير فيه . فانت

لاتستطيع أن تمنع أحداً من تسويد صفحة أو ألف . ولكنك لاتستطيع كذلك أن ترغم أحداً على أن يرد مورد الصفحات السود أو أن يأخذ عنها .

° ° °

لقد حدثتك عن الأدب الصرف يامليم . غير أن النثر الفنى بمعناه العام قد يتسع فيشمل النقد الأدبى . ولن أطيل معك فى أمر كتب النقد العربى فقد حدثتك عن نظرتها الى الأدب بما فيه الكفاية . بقى أن نعلم أن هذه النظرة بقيت مسيطرة على طريقة حكم النقاد على الآثار الأدبية . فهو حكم لفظى بحت . ولقد استمر الحال على هذا المنوال طوال العصور حتى استحالت ملاحظات النقاد وآراؤهم الى قوانين لغوية هى قواعد البلاغة وأبواب المعانى والبيان والبديع .

فالنقد فى الأدب العربى ليس سوى تطبيق قواعد البلاغة على الأثر المنقود . وحسبك أن تتصفح كتب النقد الشهيرة ، كالبيان والتبيين ، للجاحظ ، و « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى ، و « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجانى ، فتعرف أن الناقد لا يهتم بسوى اللفظ والعبارة . وهو أن تدرج الى المعنى فلينقده نقداً لفظياً ، فيحدثك عن صحة التشبيه وبلاغة الاستعارة . فالأديب الذى يطمح فى اتقان صنعته هو عندهم : « الذى يفرق بين كلام جيد وآخر ردىء ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر وآخر بارد ، والا فقد بان جهله وظهر نقصه ، فهو يمزج الصفو بالكدر ، ويخلط الغرر بالعرر » كما يقول صاحب الصناعتين رحمه الله .

وإن تعجب لشىء فعجبك من كون هذا الرأى السىء لايزال مسيطراً على الغالبية العظمى من نقادنا المعاصرين . فى كل عام تظهر عشرات

الكتب الأدبية فى مصر . هذه الكتب قد لا تنفد أصلا لضيق يد أصحابها ، أو لأنهم ليسوا من محاسيب هذا أو ذاك ، أو لأنهم لا يتاجرون بالجمال ، أو . . . ولكن هذا موضوع آخر لا يعنينا التعرض له الساعة . أما إن كان صاحب الكتاب من المحظوظين ، جاء النقد تغزلا فى حسن العبارة ومتانة الأسلوب وصحة الألفاظ . فان كان الكاتب من أصحاب العداوات جاء نقد كتاب على الوجه الآتى : « ورد بالصفحة كذا لفظ كذا والصواب كيت . قال المؤلف كذا والمراد كيت ، لأن كذا هذه ليست منقولة عن الفصيح . الاضافة الى الاسم الفلانى لا تكون بهذه الصورة وإنما بتلك . الفعل العلانى لا يتعدى بهذا الحرف بل بذاك . الكلمة التى فى السطر كذا صفحة كذا مولدة : . . . . »

وقد يكون المنقود حصيفاً فيمسك قلمه عن الرد على هذه السفاسف المشينة . والغالب ألا يكون . فتنشب حينئذ معركة حامية الوطيس ، ثم لا يلبث أن يظهر الخصوم والأنصار : فريق يقول: «الباء ، الباء فهذا مذهب البصريين» ، وفريق يقول « لا باء . لا باء فهذا مذهب الكوفيين . . . »

ونحن فى كلا الحالين من الخاسرين .

إننا نخسر جهداً لو أنه صرف إلى الطريق القديم لأنشأ لنا نقداً يهدى بدلا من نقد يتعس ويضل .

إنه وربك حال محزن ، لو علمت أن القوم فى أوروبا يعتبرون البلاغة من أسباب ضعف الأسلوب ، فما بالك بمعركة من أجل حرف جر !

بودى لو كتبت رواية عن « مأساة حرف الجر » هذه .

يا لله ! إن الألفاظ تخوننى يا مليم . فلشد ما أنا مبتئس .

* * *

قيل إن ذخيرة الأدب العربى الحقة هى الشعر لا النثر . وعندى أن الشعر العربى يفضل النثر بغير جدال ، ولكنه مع ذلك ليس شعراً .

أما أنه يفضل النثر فلأن معظم شعراء العرب المتقدمين استطاعوا أن يتحرروا من سيطرة العقلية اللفظية ، فجاء شعرهم صورة صادقة لمشاعرهم فى كثير من الأحيان وفى ظنى أن أدباء العرب الجديرين بحمل هذا الاسم هم الشعراء وحدهم . فالكاتب العربى الذى يحس نوازع الفن تلتمع فى مخيلته ، كان يلجأ دائماً إلى التعبير عن أفكاره شعراً . تاركا النثر للكتاب المجردين من الأصالة — والذين يعيشون عالة عليه عادة — فيروون أشعاره ويذكرون نوادره وأخباره ، دون أن يكون لهم فى ذلك من فضل سوى فضل الناقل عن طريق العنعنة .

ولكن الشعر العربى ليس شعراً .

ولقد ارتأيت فى هذا الشعر رأياً أحب أن أعرضه عليك . إننى أحب الشعر العربى . ولكن قراءته مع ذلك لم تكن تلهب حماستى الشعرية أو تطلق خيالى إلى بعيد الآفاق . فطفقت أتأمل الأمر حتى اهتديت الى السبب .

وجدت أن الشعر العربى يعجبنى ويلذنى لأنه أصيل كما ذكرت لك . ووجدت كذلك أن علة انطفاء جذوته الخيالية ترجع إلى أنه لم يتناول موضوعات الشعر الأصيلة ، بل يطرق الموضوعات الجديرة بالنثر ثم يعالجها علاج الناثر لا الشاعر .

موضوعات الشعر العربى — فيما عدا الغزل — هى الحكم والفلسفة ، ثم النقد فى صورة هجاء والوعظ فى صورة مديح . فاذا تركنا الغزل جانبا ، وجدنا أن هذه الأغراض جميعا أجنبية عن الشعر — لا بوصفه نظما —

ولكن بوصفه أداة تعتمد على إثارة الخيال . فغرض الشعر إيحائى لا وصفى أو تقريرى .

أما الغزل فهو من موضوعات الشعر الأصيلة بغير جدال . ولكن شعراء العرب كانوا يتناولونه من الناحية الحسية الواقعية فيقتصرون على وصف ما يعانيه المحب من ألم إن هجر الحبيب ، وما يحس به من غبطة إن وصل . ولقـــد يتغزلون فى جمال المعشوق ، ويصفون ليالى اللقاء ومختلف الحيل التى يلتمسونها للوصول إليه . وهذا أقرب إلى القصص منه إلى الشعر إن وقفت المعالجة عند هذا الحد – وغالباً ما تقف .

فأدباء العرب – لسبب لا أفهمه – وقد يكون ميلهم المتأصل للوزن والقافية – كانوا لا يثقون فى النثر كوسيلة للتعبير عن الأفكار . حقيقة أنك تستطيع أن تعبر عن الفكرة نثراً أو نظماً وفقاً لمواهبك . ولكنك إن اخترت الشعر أداة ، فعليك أن تعالج الفكرة معالجة شعرية . أما شعراء العرب فكتاب نثر فى واقع الأمر ، ولكنهم أخطأوا اختيار وسيلتهم فى التعبير ، إذ لم يكن من بينهم من يملك قبس العبقرية الشعرية .

فماذا تقول فى شعر ربعه – أو يزيد – قائم على الحوار التمثيلى الذى قد يستغرق القصيدة من أولها إلى آخرها :

وسلم مرتين فقلت مهـــلا كفتك المرة الأولى سلاما

أو قوله :

قلت : من هذا ؟ فقالت : بعض من فتن الله بكم فيمن فتن

قلت : حقاً ذا ؟ فقـالت قولة أورثت فى القلب هماً وشجن

قلت : يا سيدتى عذبتنى قالت : اللهم عذبنى إذن

بل إنك لتعثر على قصائد فيها الحوار وفيها القصة معاً :

وناهدة الثديين قلت لها اتكى ... على الرمل من جبانة لم توسّد
فقالت على اسم الله أمرك طاعة ... وإن كنت قد كلّفت ما لم أعوّد
فلما دنا الاصباح قالت فضحتنى ... فقم غير مطرود وإن شئت فازدد

إلى آخر القصيدة :

غير أن الشاعر بدلا من أن يتخذ القصة والحوار وسيلة للتعبير عن فكرة شاعرية أو لتنميق أسطورة مليئة بالرموز والمعانى — وهذا لا ضير فيه — تراه يتخذ الشعر وسيلة لتأدية أغراض الحوار والقصة ، فلا يعود الشعر شعراً . فالحوار فى الشعر العربى لا يسمو إلى مرتبة الشعر ، بل ينزل الشعر إلى مرتبة الحوار — أى إلى الوصف والتقرير .

ولك أن تسألنى لم لا يكون الشعر وصفياً أو تقريرياً ؟ لا جناح عليه فى ذلك إن التزمت حد تعريف نقاد العرب للشعر . فهم قد أجمعوا على أنه القول الموزون المقفى الذى يدل على معنى . قال بذلك ابن رشيق كما قاله قدامة وابن خلدون . ولكنه تعريف خاطىء لأنه نظر إلى شكل الشعر لا إلى طبيعته . « فألفية بن مالك » فى النحو « ومتن السلم » فى المنطق فيهما اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، ولكنهما لا يمتان إلى الشعر بصلة ما .

وعندى أن الشعر لا يجوز أن يكون وصفياً أو تقريرياً لأن الوصف والتقرير يعتمدان على العقل ، أما الشعر فيجب أن يصدر عن العاطفة . فالشعر كما يقول وردزورث هو الحقيقة التى تصل إلى القلب رائعة بواسطة العاطفة . فما الشعر إلا قلب يخاطب قلباً عن طريق العاطفة . أما شعراء العرب فقد كانوا يتكلمون بعقولهم .

لهذا لم يكن الشعر العربى من نوع هذا الشعر الذى يروعك ويذهلك. إنك تفهم كل ما يحويه من معان، أدق فهم، فتظل أبواب خيالك مغلقة، لأنها لا تفتح إلا بالاستثارة والإيحاء. فالمعنى الصادر عن العقل يأتيك واضحاً محدداً لأن العقل لا بد أن يفهم قبل أن يعبر. أما المعنى الصادر عن الخيال فمعنى حى، ينبض بشتى الاحتمالات والتهاويل التى تقدح الزناد، وتطلق الأسار. الخيال يعطيك الفكرة كاملة لا جزءاً منها كما يفعل العقل. ثم هو من بعد يتركك تفهم ما تستطيع أن تفهم، كما يتيح لك أن تجرى فى إثر ما تهوى من الأحلام التى أوحى بها إليك. وأنت تجرى فى هذا الشوط على قدر جهدك. فالقصيدة الوحيدة يفهمها الناس على وجوه شتى، كما تثير فيهم أخيلة متباينة. وقد يفهمها جيل على خلاف فهم جيل آخر.

ذلك أن القصيدة قد ظفرت بالمعنى الخالد الذى يختلف فى فهمه الأحمر والأسود من الناس.

يقول إمرسون إن الشعر هو المحاولة الخالدة للتعبير عن روح الأشياء. ويعرفه ستدمان بأنه اللغة الخيالية الموزونة التى تعبر عن سر الروح البشرية. فاذا نظرت فى هذين التعريفين، استطعت أن تلمس موضع القصور فى الشعر العربى. فالشعر الحق هو الذى يغوص وراء العناصر الخالدة فى الكون. انه لا يصف الحياة كما ترى من خلال نافذة منزل، ولكنه يشرف على العالم من فوق أعلى قمة يستطيع أن يسمو إليها الخيال البشرى. وهو إن تناول الأفراد فليكتشف فيهم قوانين البشرية الأزلية العامة. إن الشعر شخص فى غاية الثراء، فهو لا ينظر إلى الأشياء إلا من خلال الملايين. أما العملة الصغيرة فهو لا يعرفها ولا يعبأ بها.

إن استوعبت ، هذا و نظرت فى الشعر العربى ، وجدته على النقيض من ذلك يتدلى إلى التفصيلات الجزئية لشئون الحياة . فأنت لا تجد فيه فردوساً مفقوداً ، أو كوميديا إلهية ، ولكنك تجد رجلا يدحو رقاقة أو جريراً يهجو فرزدقا . فالشاعر العربى — فيما عدا المعرى إن اعتبرته شاعراً — يضيق ذرعا بالعالم الرحيب فلا يستطيع أن ينظر اليه نظرة شاملة ، بل حسبه أن يجوس بين الناس فيصفهم وصفاً قريب المنال ، أو أن يغازل حبيبته فيقنع بالغناء دون التسبيح .

لا تعجب إذن إن قلت لك إن الشعر العربى — على أصالته — قد تناول من الموضوعات ماهو خليق أن يعالج نثراً ، ففقد بذلك صفته الشعرية .

ولقد تنبه إلى هذا القصور فى الشعر العربى كاتبان فاضلان أولهما الأستاذ أحمد الشايب الذى أورد فى كتابه « أصول النقد الأدبى » أن نوع الخيال الغالب فى الشعر العربى هو الخيال البيانى أو التفسيرى . هذا الخيال ليس ابتكاريا يعنى بتأليف صور جديدة ، وليس استخدام صور حسية لبعث مشاعر تستدعى معانى أو عواطف تشابهها كما هو الشأن فى الخيال التأليفى ، وإنما هو خيال يعنى بالتعبير الجميل عن صور حسية قائمة على الاستعاره والتشبيه :

انظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وثانيهما هو الأستاذ الشاعر سيد قطب . فقد لخص رأيه فى الموضوع بقوله إن مجموعة الأستاذ العقاد المسماة «عرائس وشياطين» الحاوية لنخبة من الشعر العربى والشعر العالمى إن هى إلا صحيفة اتهام للشعر العربى(١).

فالشعر فى رأيه نبضة قلب قبل أن يكون لمعة فكر ، ووسوسة أفئدة قبل

(١) عددا الرسالة رقم : ٥٧٥ ، ٥٧٦

أن يكون رنين ألفاظ . فاذا نحن نظرنا إلى الشعر العربى بهذه العين وجدناه فقيراً فى الظلال الانسانية والحالات النفسية بمقدار ما هو غنى بالأفكار والمعانى والاستجابات الحسية المباشرة التى لا تتعمق النفس الانسانية إلى مدى بعيد .

وهو يتخيل أن اللغة العربية إنما نبتت فى الظهيرة على صحراء مكشوفة فهى لا تلقى حولها ظلا . ليس هناك مايسمونه « بين السطور » . كل لفظ وكل تعبير يقابله معنى أو فكرة . ثم لا شىء وراء المعنى ووراء الفكرة . لا ظل . لاصورة . لا رؤى فى الضباب غير مميزة الملامح بينما تثير فى النفس شتى التخيلات وشتى الاهتزازات . هكذا جاء الشعر العربى صدى لهذه اللغة الفقيرة فى الرؤى والأحلام . هناك فكرة وهناك معنى . ولكنك لا تلمح من وراء ذلك هذا المخلوق الانسانى الذى يشتمل الفكر والحس ، ويشتمل بجوارهما حياة آدمية كاملة لا تستطيع أن تشعر بها فى ثنايا الشعر العربى .

حتى شعر الغزل عند العذريين قلما تجد فيه وراء اللفظ إلا المعنى ، ووراء التعبير إلا الفكرة . قلما تلمح الحالة النفسية والملامح الانسانية ، قلما تسمع الوسوسة والهينمة التى لا تعرف مصدرها ولا تدل عليها الألفاظ بذاتها ، ولكن تدل عليها الظلال التى تلقيها الألفاظ وتتوارى خلف التعبيرات .

وهذا كلام جميل ياعليم ، يدل على فهم أصيل لوظيفة الشعر وطبيعته .

لا أسلوب . . .

لا أدب . . .

لا شعر . . .

لا نقد . . .

أليس من حقنا إذن أن نعتب على هؤلاء القوم الذين لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً يذكر خلال هذه القرون الطويلة !

ooo

بقيت مسألة دقيقة يا مليم هى : ماذا يكون موقفنا حيال مشكلة الأدب العربى هذه ؟ من الكتاب المعاصرين(١) من يعتذر للأدب العربى فى قصوره عن النهوض إلى مستوى المقاييس النقدية فى أدب الغرب بأنه ليس من الواجب عليه أن يستجيب قديمه الى فنون أدبية أوصور خيالية لم تسعفه بها تجاربه السالفة ، ولا بيئاته الأولى . فاذا لم تتوافر للأعراب أسباب القصص الجاهلى فلم يقصوا ، أو لم تؤهلهم درجتهم العقلية أو العلمية لهذا التعمق أو التسلسل العقلى أو التمدين الأدبى ، فلم يتمدين أدبهم ، ولم يسبقوا التاريخ ، واذا لم يخضعوا فى تأليف الخيال واتخاذ عناصره الا لبيئتهم الخاصة فهل يكون من الانصاف النقدى أن نحكم عليهم بالقصور ، وعلى أدبهم بالانحطاط والخشونة وسوء المصير ؟

قبل أن نعرض لما يقتضيه هذا السؤال من جواب يجدر بنا أن ننظر فى مسألتين . أولاهما أن الأمر ليس أمر مستوى عقلى أو علمى لم يبلغه العرب بينما أتيح للامم الأخرى ، بل يجب أن ينظر فى المسألة من حيث طبيعة الأدب العربى ذاتها بغير التفات إلى قيمته الذهنية . فالذكاء أو العلم ليس لهما المقام الأول فى الفن . وما نظن أن بايرون أو شللى كانا على درجة من العلم أو الذكاء تميزهما عن سائر الناس تميزاً غير عادى . وقد يكون من عدم الانصاف أن نحكم على العقلية العربية أو العلوم العربية بالقصور ، ونحن نرى أن الغرب قد تأثر بهما إلى حد ما فى بعض العهود .

---

(١) الأستاذ أحمد الشايب فى كتاب «أصول النقد الأدبى»

والأصوب أن نعيب على كتاب العرب قصور خيالهم ، وضعف الملكة الفنية فيهم .

كذلك نحن نظلم البيئة إن جعلناها السبب فيما كان عليه الأدب العربى من انحطاط . فهى قد تكون سبباً لو عاش سائر أدباء العروبة فى جزيرة العرب القاحلة الجرداء . ولكن الخلافة ، كما نعلم ، قد امتدت منذ صدر الاسلام إلى سائر البلاد الشرقية التى كانت مهداً لكثير من الفلسفات والأديان ، والتى أوحت بنشيد الانشاد وبالملاحم الفرعونية الفائقة الجمال . فالذنب ليس ذنب البيئة ، بل ذنب الكتاب الذين لم يستطيعوا الاستجابة لدواعى وحيها . وعندى أن سبب النكبة هو أن هؤلاء الكتاب قد قيدوا أنفسهم بالعقلية الجاهلية وبالخيال الجاهلى دون مبرر حقيقى .

نعود إلى سؤال حضرة الكاتب الفاضل فنقول إن وظيفة النقد الأساسية هى الحكم الصحيح على الآثار الأدبية وتقديرها بما تستحق . ونحن لا نأخذ على الأدب العربى أنه لم يرق إلى مستوى الآداب الغربية العصرية ، ولكننا نأخذ عليه أنه لم يكن أدبه أصيلا . فالالياذة ومسرحيات سوفوكليس ، وملاحم هوراس لا يضيرها أن تقاس بمقاييس النقد العصرية ، بل إن قيمتها الفنية ستظل ثابتة على مر العصور ، لأنها اغترفت من المعين الخالد . أما الأدب العربى فقد أخطأ طريق الخلود وابتاع بضاعته من السوق . كان هو الآخر يعمل لآخرته كأنه يعيش أبداً .

وفى رأيى أن انتحال الأعذار للأدب العربى تقتصر أهميته على الناحية العلمية فحسب . أما الأجدر بالنظر ، فهو موقف الأدب المعاصر حيال أدب آخر يصفه النقاد بالقصور والانحطاط والخشونة .

لقد فات القطار أسلافنا عليهم رحمة الله . فهل نسلك مسلكهم فنتركه يفوتنا نحن الآخرين ؟

هذا ما ينادى به الأكثرون فى مصر الآن ، هؤلاء الذين لا يزالون يرغمونك على اعتبار الأدب العربى نارا فى رأس العلم ، ويقسرونك على أن تأتم به .

احذر هذا النداء ياماليم . فهو نداء خطر ، لأنه يعتمد على حجج محببة إلى نفوس الجماهير . ولكنك رجل صلب العود ، فلا تجعل كثرتهم تغلب شجاعتك ، فالمستقبل لك .

إن واجب كتابنا الأول هو أن يحرروا العقول من إسار الأدب العربى . وليكن نداؤهم : احذروا العقلية اللفظية المتفشية فى الأدب العربى . عليكم أن تديروا فى أفواهكم لساناً عربياً مفهوماً . ولكن ليتجه بصركم نحو الغرب ، فهناك العلم فى رأسه النار .

ليس من شك عندى فى أننا إذا أردنا أن نعيش كأمة ناهضة ، فمن واجبنا أن نترسم آثار الفنون الغربية ، وأن نأخذ عنها ما وسعنا ذلك . سيملأون أسماعك بألفاظ طنانة رنانة عن الوطنية ، والاحتفاظ بالشخصية . ولكنك تعلم مبلغ ماجنته الألفاظ علينا . فالوطنية الحقة ليست التشدق بكلام أجوف ، بل هى أن تسعى جهدك لخدمة هذا الوطن العزيز عليك ، وأن تلتمس فى هذا السبيل خير الوسائل وأقوم الطرق .

لا يضيرنا مطلقا أن نكون قادرين على الأخذ عن الغرب . إنما هذا فى اعتبارى دليل على التفتح والنضج . فرسالة الفن رسالة عالمية يجب أن تتعاون شعوب العالم كافة على أدائها على خير وجه ، وأن يأخذ السابق منها بيد المتخلف . ولقد قمنا بهذا الدور فى بعض عصور التاريخ فلم يجد الغرب

غضاضة فى الأخذ عنا ، واقتفاء آثارنا .

إننا لا نخدم أحداً إن ملكنا الغرور ، فادعينا أن الغرب لم يسبقنا إلى شىء . وهناك أناس لا هم لهم سوى الوقوع على فكرة أو عبارة وردت فى بعض آثار الخزانة العربية ، فيظلون يمطونها ويرهقونها ، ويتفننون فى تخريج معانيها ، وتنميق شواردها ، ثم يخيل إليهم من بعد ذلك أنهم قد سووا رأياً يقرب من رأى فلان أو علان من مفكرى الغرب . إننا لا نريد أن نحيى الآثار القديمة لنتفاخر بها ، ونتباهى بعظمتها ، فإنما هذا مسلك العاجز . ولكن ليكن ذلك لخدمة المعرفة فحسب . هذه المعرفة — التى لا نستطيع إلى الآن أن نجارى فيها فرس الغرب المنطلق — تحضنا على أن نلقى بأنفسنا فى تيار النهضة العالمى ، بدلا من أن نقبع فى ظل شجرة لنفرغ همنا فى اجترار أفكار كثر مضغها حتى استنفدت فائدتها .

واعلم يا مليم أن مشكلتنا الحالية قريبة الشبه بالمشكلة التى قامت فى وقت ما بين العالم الجديد وبين أوربا . فلقد ساء بعض مفكرى أمريكا الجنوبية أن تخضع ثقافتهم للمناهج الغربية ، فنادوا بأنهم يريدون حضارة أصيلة ، وطالبوا بأن تكون لهم ثقافة خاصة ، تسير إلى غايات جديدة . فرد عليهم ديهامل قائلا :

« لكى تكون هناك حضارة ، لا بد من مناهج أصيلة تزدهر بفضلها مؤلفات أصيلة . والآن وقد توافرت الملابسات المادية فإلى أى الأعمال يجب الانصراف ؟ أجيب بلا أدنى ظل من التردد ، إلى المحاكاة . إلى محاكاة النفوس الكبيرة ، وأمهات الكتب التى حكم لها الزمن . والمحاكاة

حتى اليوم هى المدرسة الوحيدة للأصالة ، ولا ضعة فيها لغير النفوس السيئة التركيب أو المغرورة .

« فهل هناك من يقول أو يظن أن لافونتين ، أو لابروبير وشكسبير لم يضعوا مؤلفات أصيلة ، وقد أخذ الأول حكاياته عن إيزوب ، واستمد الثانى نماذجه من تيوفراست ، بينما نقل الثالث موضوعات مسرحياته عن بلوتارك ؟ » .

ولا تظنن يا مليم أن محاكاة الغرب معناه نقل أفكارهم ، أو اقتباس موضوعاتهم . فنحن لا نأخذ عنهم سوى نظرتهم الصحيحة للفن . ومن مقتضى هذه النظرة الصحيحة أن يتحرر الفنان من القيود المصطنعة حتى يتيسر له الاستجابة لداعى الفن وحده . بهذا يكون مخلصاً لنفسه ولمهنته . وهو لا يستطيع أن يدعى هذا الاخلاص إن كان يعيش فى مصر ، ثم يرسم صوراً فرنسية أو أمريكية . فالوحى الأصيل لا يكون عن طريق الكتب بل عن طريق البيئة التى يتمرس الكاتب فى أحضانها ، ويخالط أهلها ويتنسم هواءها .

* * *

حين انتهيت من مقالى تنبهت فاذا الظلام يغشى الحجرة . ونظرت إلى مليم ، فلم أتميز منه سوى شبح مستلق لا حراك به . فداخلنى من الرعب شىء . ليس من المستبعد أن يكون حديثى قد أجهز عليه ، فأكون قد أضفت ضحية جديدة إلى ضحايا الأدب العربى . قمت إليه وحاولت أن أهزه ، فاذا به يصيح بى قائلا :

ــ مكانك يا رجل . ماذا تريد أن تفعل بى ؟

فتراجعت مأخوذاً وقلت معتذراً :

— لا شيء والله . كنت أريد أن أهزك لأوقظك .

— حقاً أنت حسن الظن بنفسك . أتحسبنى أنام على صوتك الرخيم ! ملت برأسى ذات اليمين وذات الشمال ثم قلت متحسراً .

— ما أشد عقوق الأبناء ! إننا نخلقكم ونربيكم لنستمع إلى سخريتكم ، ولتكون هدفاً لعبثكم . هل فهمت مقالتى ؟

قال : « وهل فهمتها أنت ؟ » .

قلت : « سبحان الله ! إن نفسى تحدثنى بأن أذبحك ذبح الشاة . إرعو يا رجل » .

قال : « إننى أعنى ما أقول . إن كنتَ قد فهمت رأيك فى محاكاة الغرب على الوجه الذى شرحته لى ، فما بالهم يقولون إن أسلوبك عليه مسحة الترجمة ؟ » .

قلت :

— إنهم محقون ياسليم . فأنا أعبر عن فكرتى بأسلوب مفهوم . ولا يكون الأسلوب مفهوماً إلا اذا ترجم من عربية الجاحظ الى عربية القرن العشرين . فلو أن فاضلا من فضلاء الجاهلية بعث بيننا اليوم ، لحسب أننا نتكلم السريانية . وأنا إن عبرت عن أفكارى بأسلوب هذا الفاضل — على فرض أن هذا ممكن ، وهو ممتنع كما رأيت — لاعتبرت نفسى كمن يتكلم بالرومية بين أناس لا يفقهون منها سوى كلمات قليلة . إن وظيفتى كقاص ليست أن أكتب بلسان الجاحظ ، أو عبد الحميد ، بل أن أعبر عما يجول بخواطر مواطنى بلغة هى صدى للغتهم . فإن كان لابد من الترجمة ، فليترجم الجاحظ وأترابه الى لغتنا . ويقوم الأستاذ الكبير ابرهيم عبد القادر المازنى بعمل جليل فى هذا الصدد سيكون محل شكر وتقدير الأجيال المقبلة فيما أعتقد .

ولا تحسبن هذا الرأى بدعا فى الآراء . فلقد قال به عالم فاضل (١) بصدد الدعوة الى إحياء آثار الخزانة العربية . قال — حفظه الله — إن نشر هذه الآثار لا يكون بإعادة طبعها طبعاً متقناً ، أو بالاستعاضة عن الورق الأصفر بورق صقيل أبيض ، بل يكون بتهذيبها واختصارها وإعادة صياغتها وتبويبها حتى تتفق مع روح العصر . أو بعبارة موجزة : بترجمتها .

ولكن لعل الذى عاب على الأسلوب مايشوبه من مسحة الترجمة ، إنما عنى تأثره بالأساليب الغربية . فلنفترض على سبيل الجدل أن هذا حق — وهو حق — ثم لننظر فى فكرة جليلة أخرى أوردها هذا العالم الفاضل فى نفس المقال . فهو قد ذهب فى تعليل أن القراء فى الشرق قلة ، إلى أن الكتاب فيه قلة ، فإذا حق لأفراد الجيل السالف القول بأنه جيل بغير كتاب ، فمن حق أفراد هذا الجيل أن يصفوه بأنه جيل بغير أساتذة .

يقول ديهامل إن على الكاتب الفرنسى أن يدرك عند ما يأخذ بالقلم أنه يكتب تحت رقابة جمع من أجداده الأمجاد وإخوانه المبجلين — وهى رقابة عطوف ساهرة ، قوامة قاسية . فان كنا قد أنكرنا أستاذية الأقدمين فهل نكون قد تخلينا عن تقاليد مهنتنا إن كنا لا نشعر بهذه الرقابة عندما نأخذ بالقلم ؟ لا نكران فى أنه ظهرت فى خلال العشرين سنة الماضية آثار أدبية جميلة . ولكنها آثار فردية فلا ندرى أتكفى وحدها لأن تحل أصحابها فى سجل الخالدين .

وأنت إذا أردت أستاذاً فمن حقك أن تربده خالداً حتى تطمئن إلى أنك لا تسير إلى سراب . وقد يكون من بين كتاب هذا العصر أساتذة

(١) الدكتور أحمد زكى بك فى مقال له بمجلة الثقافة .

الأجيال المقبلة . ولكنك لا تستطيع أن تحكم أو تختار ، لأن الكلمة فى هذا الأمر للزمن وحده .

إذا ثبت لك هذا يا مليم ، فليس أمامك إذا أردت أن تكتب أسلوباً فنيا ، إلا أن تقتفى أثر الأساليب الغربية .

وهذه أجل خدمة تسدى الى الأدب العربى الوليد ، وإن اعتبرها الأدب العربى المحتضر إجراء عدائيا يتخذ للإجهاز عليه . ونحن حين نجهز عليه يا مليم ، سنحفر له قبراً عميقا ، نقيم فوقه شاهدا جميلا من المرمر وننقش عليه :

« هنا يرقد الأدب العربى القديم ، مات بعد حياة حافلة باللث والعجن وقرقزة اللب ، وكان رحمه الله يقضى معظم وقته جالساً فوق شلتة وثيرة باحدى دكاكين الصاغة » .

رأى فى اللغة العربية

كنت مع مليم فى الأسكندرية نقضى الصيف على نحو ما . وكان لمليم قصر منيف لم يرض أن يضيفنى فيه ، فاضطررت الى النزول ببيت سيدة رومية كنت أقاسى من عنتها الأمرين . وكان لهذه السيده ابنة حسناء مطروفة العين ، تعشق الجنود ، وتحسن الغناء . وفجأة انقلب مليم فنانا بوهيميا وإن كان قد ادعى أنه يعشق الطرب منذ نعومة أظفاره . وكان هذا سببا لكثرة تردده على مسكنى الحقير ، فهو يأتى لزيارتى سواء أكنت موجوداً أو غير موجود..

وفى ذات ليلة عدت الى المنزل مبكراً حاملا بين ذراعى خبزا وأداما. وقد اعتزمت أن أقضى ليلتى بين الجدران الأربع ، كشأنى فى أغلب أمسياتى. فلما أن دلفت الى الحجرة ، فوجئت برؤية مليم جالساً مع العجوز الرومية يحادثها بلغتها . فان لمليم عبقرية فذة فى تعلم اللغات بسرعة غريبة . فما أن رآنى حتى أقبل على متهللا فى غير داع للتهليل ، فقد كنت تناولت الغداء عنده ، ولم يمض على ذلك سوى سويعات قليلة .

نظرت اليه شذراً غير أننى اطمئننت حين لم أجد الابنة المطروفة العين معهما .

قلت له :

ـــ ما حكايتك ؟

قال ووميض الانتقام يبرق فى عينيه :

ـــ لقد شهد شاهد من غير أهلها .

قلت : « إذن فقد صدق »

قال : « لا تتعجل فهذه الشهادة طعنة نجلاء فى قلب آرائك أجمعين »

قلت : « وما تكون هذه الشهادة يا ترى ؟ »

قال : « كنت أحادث هذه السيدة الفاضلة، لعدم وجود الآنسة الأفضل. فأردت أن أظهر لها علمى وفراهتى، وأرادت هى نفس الأمر . وكان أن تلاحمنا فى نقاش طويل استعنت فيه بنظرياتك التى ملأت بها أسماعى ، فاذا بها تخطئها جميعاً وتقول ... »

ثم أمسك ولم يتم . وهى طريقة تعلمها من الوسط التجارى الذى يعيش فيه . فهو يعدّك للخبر . ثم يتركك متلهفاً لسماعه فلا يدلى به الا بعد فترة صمت تقليدية .

استعنت بالله على تحمل هذه الأساليب الصبيانية وسألته :

— ماذا قالت السيدة الرومية ؟

قال : « قالت إن أغنى لغات الأرض ثلاث : الرومية واللاتينية والعربية » .

قلت : « وهل قبلتَ أن تأتى لغتنا فى الذيل ؟ »

قال : « هذا كسب عظيم ، إذا قورن برأى من ينفى عن آدابها كل ميزة أدبية » .

قلت : « من أعجب الأمور أننى سمعت مثل هذا الرأى من سيدة فاضلة أخرى ، وإن كانت سيدتى قد جعلت اللغة العربية أغنى اللغات جميعاً »

قال : « أهى سيدة رومية كالمدام ؟ »

قلت : « لا . إنها سيدة لاشرقية ولاغربية . فهى تضع لسانا فرنسياً فى جسم صنع فى الشام ثم صُدّر الى مصر ، فرحبنا به »

قال : « لقد توفاك الله »

قلت : « بل هى دعابه جيدة ترفع رأسنا بين الجهلة من شعوب الأمم الأخرى ، ولكنها يجب ألا تصرفنا عن حقيقة الأمر الواقع . إن هؤلاء الأجانب إذا طالت إقامتهم بمصر ، يحاول البعض منهم تعلم لغتنا قراءة وكتابة ، فما تلبث أن تصدمهم صعوبتها الفائقة . ويسألون عن السبب ، فيقال لهم إنها لغة غنية تستعصى على غير الناطقين بها . فتراهم يسلمون بهذا الرأى الأخرق ، وينصرفون عن تعلمها ، فنخسر ولا يكسبون . »

حقا إن هذا « المليم » فيه شىء لله . لقد طرق موضوعا ظل يعنينى حقبة طويلة دون أن أستطيع الوقوع فيه على رأى حاسم . فلما كان الأمس عثرت بينما أقلب فى كتاب على رأى أثار فى رأسى هذا الموضوع من جديد . لقد قلت لمليم إن اللغة العربية يستعصى تعلمها على غير الناطقين بها . والحقيقة أنها تستعصى على الناطقين بها وغير الناطقين على السواء . إن المرء ليجهد نفسه شهرها فلا يتأتى له أن يحيط الا ببعض ألغازها وشواردها ، ويفوته الكثير الأغلب .

لم فعلت هذه اللغة بنفسها هكذا ؟ لا أنكر أنها جعلتنى أنظر اليها بشىء من الحنق ، مع أننى أحب الألفاظ العربية ، وأجد فيها موسيقية جذابة خليقة بتكوين أسلوب فاتن مطرب .

أما الذى كنت قد قرأته فى أمسى فهو أنه فى أواخر القرن الثامن عشر ، احتدم النقاش بين الفلاسفة الألمان حول نشأة اللغات . فادعى البعض أن الله هو الذى خلق اللغة للانسان ، وعارض هذا الرأى فريق آخر . وكان من حجج أنصار الفريق الآخر تلك الحجة التى قال بها الفيلسوف هردر ومؤداها أن الله لا يمكن أن يكون خالق اللغات ، لأن اللغات قاصرة معيبة ،

والله كامل منزه عن النقص .

أما المثال الذى حلا لهردر أن يسوقه للتدليل على قصور اللغات ، فهو مثل اللغة العربية بالذات . قال إن المتأمل فى هذه اللغة يجد أنها تحوى عدداً ضخماً من المترادفات الدالة على معانى الأشياء العادية المعروفة . فالأسد له خمسون اسما ، وللثعبان مئتان ، وللشهر ثمانون ، ولحجر معين سبعون . وبالرغم من هذا الإسراف الفاحش الذى لا مبرر له إطلاقاً ، إذا بهذه اللغة خـــلو من الألفاظ المعبرة عن الأفكار العميقة والآراء الصعبة غير المألوفة .

ولقد اقتنعت بهذا الرأى — أو بشطره الثانى على الأقل — اعتقاداً يكاد أن يكون جازماً . فلما سألت رأى بعض من أعرف من أفاضل الكتاب ، انتفى لدى كل شك ، إذ عرفت أنهم يعانون من المشاق نفس ما أعانى . فالواقع أن كل من يعالج الكتابة باللغة العربية — ترجمة أو تأليفا — يجد صعوبة بالغة فى التعبير عن الآراء العصرية ، والخواطر النفسية ، والنظريات الفلسفية — حتى ليجد من الأسهل لديه لو عبر عنها بلغة أخرى غير لغته .

ومع ذلك فقد كنت لا أزال حائراً فى أمرين لا أستطيع أن أبت فيهما برأى قاطع . أولهما السبب فى كون اللغة العربية غنية كل هذا الغنى فى ناحية ، وفقيرة كل هذا الفقر فى ناحية أخرى ، والثانى هو هل كثرة المترادفات — للأشياء العادية — تعتبر حقا دليلا على غنى اللغة ؟

وخيل إلى حينئذ أن فى استطاعتى الإجابة عن ثانى الأمرين بالنفى . إذ ما جدوى مترادفات كثيرة لا يستعمل المرء منها سوى الاسم الأشهر ، بينما تظل بقية الأسماء مقبورة فى بطون المعاجم ؟

وخيل إلى كذلك أن الأمرين مرتبطان بعضها ببعض ارتباطا يجعل منهما مشكلة واحدة تتفرع من أصل واحد .

لم أستطع فى ذلك الحين الاهتداء إلى أس المشكلة . غير أننى حين تدبرت الأمر اتضح لى أن إسراف اللغة العربية لا يقتصر على كثرة المترادفات ، وأن هذه المترادفات ليست سوى إحدى مظاهر علة عامة . فاللغة العربية لا تزال مثقلة بالكثير من القواعد والقيود التى تحررت منها اللغات الأخرى على مر العصور . فهى مثلا لا تزال لغة معربة ، بينما تحررت سائر اللغات الأوربية الحية من هذا القيد . كذلك فان الكثير من القواعد التى تحويها كتب النحو — والتى تعقد اللغة وتصعبها على طالب العلم — لما يسهل الاستغناء عنه بغير ضرر يصيبها . بل إن هذا الاختصار يعود على اللغة بنفعين هامين . فهو من جهة يجعل التمكن منها قريب المنال ، كما يجعلها لغة سهلة الانتشار ، تستطيع أن تضم إلى حظيرتها الكثيرين ممن صدهم غثاها المزعوم عن تعلمها .

وإن كانت اللغة العربية تحوى كثيراً من الفضول الذى لا نفع فيه ، فهى من جهة أخرى لا تزال قاصرة فى كثير من نواحيها . وأهم مظاهر هذا النقص طريقة الكتابة . فان مفكرى العرب لم يستطيعوا طوال الأحقاب الطويلة الماضية أن يبتكروا للكتابة طريقة سهلة دقيقة مغنية موحدة . فالحروف غير المشكولة إنما هى نصف اللفظ فقط . والحروف المشكولة تجعل الكتابة تسير فى ثلاث خطوط متوازية تتردد بينها العين فتتعب ، ويحار فى تتبعها اللسان فيخطىء أكثر مما يصيب . ومن هنا كان اقتراح استعمال الحروف اللاتينية . وكانت الضجة المشتعلة الأوار فى هذه الأيام .

لم يقف الأمر عند حد هذه الحيرة . فقد شاءت الصدف أن أجتمع بأديب فاضل معروف بتعمقه فى دراسة اللغة العربية وجرى بيننا الحديث فى مسارب متنوعة إلى أن انتهى بالنقاش فى إسراف لغتنا ونواحى قصورها.

كان من رأى حضرة الأديب أن كثرة المترادفات ليست فضولا أو إسرافا ، بل إن كل لفظ يظهر معنى من معانى المسمى لا يدل عليه المترادف الآخر . فالأسد غير الغضنفر وغير الهزبر . وعلى هذا الرأى تعتبر كثرة المترادفات من مظاهر غنى اللغة حقيقة .

وقال بصدد الاعراب إن الاستغناء عنه يفقر اللغة ، ويسلبها الكثير من مميزاتها التى تعلو بها على اللغات الأخرى . إذ أن الإعراب ليس قيداً تحكميا كما يتوهم ، فهو يؤدى أغراضا بلاغية تساعد على تصوير المعنى تصويراً دقيقا . فقولك ضرب على زيداً ليس كقولك ضرب زيداً على . فأنت فى الجملة الأولى تشعر بأن اهتمامك منصرف الى على ، ولذلك قدمته على زيد ، وعكس هذا المعنى فى الجملة الأخرى . أما فى اللغة غير المعربة فيحتم تقديم الفاعل على المفعول فى كل الأحوال ، فيفوت عليك هذا الغرض البلاغى .

وتناقشنا طويلا .

قلت له إننى لا أشعر بأن المترادفات تؤدى معانى مختلفة للمسمى الواحد . وإن غيرى يقرأ لفظ الأسد كما يقرأ لفظ الغضنفر ، فلا يحس باختلاف فى المعنى . فالقوة نفس القوة والعظمة نفس العظمة . والذى يوحى بالمعنى إنما هو المسمى لا الاسم . وما اللفظ سوى رمز يقصد به استحضار صورة المسمى فى الذهن ، والصورة هى التى تثير المعنى ، أما غاية فضل اللفظ ففى حسن الجرس . وبذلك تكون مهمة الأجيال المتعاقبة من الكتاب انتخاب انتخاب أفضل المترادفات وأحسنها تصويراً لمعنى المسمى . ومن هنا يكون

الإبقاء على مختلف المترادفات من مظاهر قصور اللغة .

فهنا عمل كان يجب أن يتم ولم يتم .

أما المعانى المختلفة التى يضعها المتأخرون لمترادفات مسمّى واحد ، فهى لاتفيدنا فى شىء ، لأنها معانى تحكمية مبناها الاستنباط الشخصى . ثم إن اللفظ وحده لايوحى بالمعنى ، وإنما الذى يوحى به طريقة الصياغة . فالكاتب المبدع يستطيع أن يسبغ على لفظ الأسد كل الصفات التى يتميز بها مسماه — من قوة وشجاعة واعتداد — عن طريق الصياغة البارعة ، لاعن طريق اختيار مترادف بدلا من آخر . ولقد يستعمل الكاتب غير المتمكن أضخم ألفاظ المعجم ، فتبدو فى أسلوبه ضعيفة متخاذلة .

وقلت له عن الاعراب إن لغات الغرب قد لفظته دون أن تحس بقصور فى أداتها البيانية . بل الحال أن اللغات الأوربية كثيراً ما تكون أكثر تعبيرا وأدق معنى من اللغة العربية المعربة .

وبفرض أن الإعراب يؤدى بعض الأغراض البلاغية ، فان فى مكنة الكاتب دائما أن يؤدى هذه الأغراض بوسائل أخرى . ومما لا شك فيه عندى أن كسبنا من تبسيط قواعد اللغة أجدى لنا كثيراً من اختصار كلمة أو حرف فى جملة من الجمل . وقلت له إن أكبر دليل على عدم جدوى الاعراب أننا استغنينا عنه فى لغتنا العامية منذ زمن طويل دون أن يستعصى علينا التعبير عن أى معنى من المعانى ، ودون أن يقصر هذا التعبير عن المعنى المراد .

لم تؤد المناقشة إلى نتيجة ما ، كالعهد بها دائماً . لم يستطع حضرة الأديب الفاضل إقناعى برأيه لأن حججى — وإن لم تكن قاطعة — فقد كانت صادرة عن إحساس داخلى وتجربة . وأنا بدورى لم أستطع إقناعه لأننى

لم أكن قد ظفرت بعد بمفتاح المشكلة الذى يكشف لى عن سرها الأساسى.

. . .

ولقد ظفرت بمفتاح المشكلة فى عصر اليوم نفسه.

استدعتنى بعض أعمالى إلى السفر إلى الريف. وكانت طبيعة هذا العمل تقتضى أن أمضى بضع ساعات بين المزارع فى صحبة إخواننا الفلاحين. ولهؤلاء الفلاحين موقف غريب حيال أهل المدن. فهم يرهقون أنفسهم معنا لكى يظهروا مقدار جهلنا بفنهم، ويبسمون لنا فى رثاء كلما بدرت منا بادرة، وكأننا مخلوقات — وإن تكن آدمية — فهى تقل عنهم كثيراً فى الصفة البشرية. فنحن عندهم عيال، وهم وحدهم الرجال. وعلينا أن نفهم جيداً أن علومنا النظرية التى تلقيناها فى مدارس الحكومة لا تساوى شيئاً بجانب حكمتهم العملية، وخبرتهم الفنية. غاية ما فى الأمر أن الحظ قد ولد أعمى، فهو يعطى الحلق لمن لا أذن له. وهذا موقف دفاعى لهم عذرهم فيه. فكثيراً ما بادرناهم بالهجوم.

لهذا رأيتهم يعمدون الى الاغراب فى القول. فكنت كلما سألتهم عن أمر أجابونى بكلام أكاد لا أفهم منه شيئاً. كل شىء عندهم له اسم خاص بهم — وكأنما هم عصابة من مهربى المخدرات لهم «سيم» لا يفهمه غيرهم من عامة الناس أمثالنا.

كنا نتكلم بلغتين مختلفتين، فلم يكن الخلاف فى اللهجة وحدها.

عجبت لهذا الأمر واشتد عجبى. فاستقر عزمى على أن أذهب فى هذا المضمار الى أبعد الحدود. ولم تكن من وسيلة أمامى سوى أن أبالغ فى إظهار جهلى، فيبالغون فى إظهار علمهم. ولعل القوم لم يجد عليهم الدهر بفرصة ذهبية كهذه، فقد رأيتهم ينقضون على انقضاض الصقور.

كل عود من العشب له اسم خاص .

كل عصفور من العصافير ، وكل حشرة من الحشرات ، كل حصوة من الحصا ، وكل تربة من التراب ، كل عود من الذرة ، وكل فرع من القطن ، والشجر له أسماء ، والمياه لها أسماء ، والقنوات لها أسماء : معالم الحقول لها أسماء ، وكذلك الحمير والأبقار والجاموس ، وجميع مالديهم من دواب لكل منها أسماء كثيرة لم تستطع ذاكرتى الضعيفة أن تعى منها شيئا .

ما هذا العلم الغزير ، ومن أين لهم به ؟

عدت إلى حيث أقضى ليلتى وهذا الخاطر يحتكر فراغ ذهنى ، فلا يتركنى أفكر فى غيره . كيف تأتت هذه المعرفة الواسعة لقوم لم ينالوا من العلم أى قسط ؟

وفجأة أشرق ذهنى بالجواب ، فأدركت فى نفس الوقت مفتاح مشكلتى الأصلية . هؤلاء القوم لا يرون فى حياتهم سوى هذه الحقول التى أصبحت كل دنياهم . فالى أين ينصرف تفكيرهم إلا إلى هذه الدنيا التى فى حجم الكف ؟ ولكن هذه الدنيا صغيرة لا تحوى الكثير من الأشياء ، وعقل الانسان — مهما كان أمره — كبير متعدد الملكات .

فكما يعرف السجين كل شبر وكل أثر فى حجرته الضيقة ، كذلك يفعل الفلاحون فى سجنهم الدنيوى . فراغ كبير من الوقت ، وعقل متعطل لاعمل له ، فهم يتخذون من إطلاق الأسماء على الأشياء العادية المحيطة بهم هواية يزجون بها فراغهم . أو لعلهم — عن غير شعور منهم — يحاولون أن يجعلوا من سجنهم الضيق عالما عريضا يتسع لمواهبهم العقلية فهم يفتنّون فى استنباط فروق تافهة بين أفراد الجنس الواحد ، فتراهم يقسمون ويفرعون ويبوبون ، ويعطون لكل صغيرة اسما ، كما يطلقون على الشىء الواحد

خمسين اسما، وعلى الناقة لا أدرى كم من الأسماء ؟

لا أظنك تعجب الآن ، كذلك لا يجوز لك أن تعجب إن رأيتهم يقرنون أتفه الصفات بموصوفه ، فيطلقون عليهما اسما جامعا . ماذا يمنعهم من ذلك ولا شغل لهم غيره ؟

فالجاهلى لا يقول لك إن عنده ناقة قد جف لبنها ، ولكنه يقول عندى جاذبة . وتسأله عن الجاذبة فيعجب لجهلك ويقول إنها الناقة التى جذبت لبنها من ضرعها فذهب صاعدا . يالحول الله !

وهولا يقول لك إن ناقته قليلة اللبن ، ولكنه يقول إنها دهين أو بكيئة . فتسأل ما البكيئة وما الدهين ؟ فيقال لك إنها الناقة التى يمرى ضرعها فلا يدر قطره .

والأعرابى لا يقول لك إن لناقته ولداً عمره شهر أو سنة أو سنتان . معاذ الله ! إنه سليل قبل أن يعرف أذكر أم أنثى . فان بان أنه ذكر قيل سقب ، وإن بان أنه أنثى قيل حائل . ثم هو حوار حتى يفطم ، فاذا فطم قيل فصيل . وذلك فى آخر السنة الأولى من وضعه ، فاذا دخل فى الثانية قيل ابن مخاض ، فاذا دخل فى الثالثة قيل ابن لبون ، وإذا دخل فى الرابعة قيل حق ، فاذا دخل فى الخامسة قيل جذع ، فاذا دخل فى السادسة قيل ثنى ، فاذا دخل فى السابعة قيل رباع ، فاذا دخل فى الثامنة قيل سديس ، فاذا دخل فى التاسعة قيل بازل وقد يقال فاطر ، فاذا دخل فى العاشرة قيل مخلف ، فاذا علا السن بعد ذلك قيل عود ، فان علا عن ذلك قيل قحر ، فان تكسرت أنيابه قيل ثلب . ويقال فى الناقة إذا كان فيها بعض الشباب عزوم وربما قيل شارف .

لعلى ضايقتك بهذه القائمة الطويلة . ومع ذلك فأنا لم أذكر شيئاً عن

أسماء النوق بحسب ألوانها ، ولم أذكر لك شيئاً عن الخيول والأسود والثعابين والحيات .

ولا يقتصر الأمر على أسماء المخلوقات والأشياء ، بل إن هذا التخصص المسرف يشمل الصفات أيضاً . فالأعرابى ليس من السذاجة بحيث يقول لك إن فرسه به بياض فى أسفل قوائمه، بل يقول إن فرسه به بلقة . وتسأل عن البلقة، فيقال إنها ارتفاع التحجيل إلى الفخذين . وتسأل عن التحجيل فيقال إنه بياض فى قوائم الفرس الى نصف الوظيف ، وتسأل عن الوظيف فيقال إنه ما فوق الرسغ الى الساق .

لم هذا كله !

ماذا أفدت « ببلقة » هذه ؟ لا تعجب إذن إن قلت لك إن لهؤلاء الأعراب « سيما » خاصا لا يعرفه غيرهم .

فهل أنت مكلف بمعرفة هذا « السيم » حتى يقال إنك متمكن من اللغة العربية ؟ لسوء الحظ هذا ما يقوله بعض الناس إلى الآن . وهم مخطئون جدا . فكثرة المترادفات كما قد رأيت من خصائص لغات البداوة . وهى تدل على قصور الخيال . فالبدوى إذا عجز عن وصف الشىء الذى يريد التعبير عنه ، تراه « يخبط » اسماً كيفما اتفق ، يشمل الصفة والموصوف معا. فيقول لك مسديس وبلقة وجاذبه . وهذا يدل أيضا على ضعف العقلية التجريدية ، كما هو الحال عند سائر القبائل غير المتمدينة .

هذه الصفة الأخيرة هى علة خلو اللغة العربية من الألفاظ المعبرة عن الأفكار العميقة. وليس الذنب ذنب الجاهليين فى بقاء هذا النقص إلى اليوم، فهم قد فعلوا كل ما يمكن أن يطلب من قبائل فى حالة بداوة . ولكنه ذنب كتاب العرب المتأخرين ، الذين كان عليهم أن يبتكروا هذه الألفاظ، فلم

يفعلوا . لقد صنع الجاهليون لغة تناسب بيئتهم . أما الكتاب المتأخرون فقد صنعوا بيئة تناسب لغة الجاهلية . ويريد بعض مفكرينا الآن أن يرتكبوا عين الأثم . ولقد سبق أن بينت علة هذا الجمود بصدد الكلام عن الأسلوب .

أظنك بعد ذلك تقرنى على أن كثرة مفردات اللغة العربية ، وكثرة قيود النحو والصرف فيها ليست دليلا على الغنى ، وإنما هى قرينة الفقر والجمود .

فان كنت رجلا رصينا رزينا ، ولم تكتف بما أسلفت من حجج ، فذنبك على جنبك إن كنت سأضطرك إلى احتمال قليل من التفلسف . ولكنك ستحتمله من غير شك . فالعنيد يمتاز بصلابة العود .

استمع اذن الى أحدث نظرية فى علم اللغات .

* * *

لغة الزمان والمكان

قديما قيل إن الانسان حيوان ناطق ، ولقد ظل هذا التعريف محكا لعبقريات الفلاسفه الى اليوم ، وإن اختلف مفهومه باختلاف الأجيال .

ولكن البشرية ، وإن عرفت منذ الزمن السحيق صلتها بالحيوان ، فهى لم تصل إلى إدراك كنه هذه الصلة إلا فى الزمن القريب . غير أن الانسان والحيوان وإن تلاقيا فى نقطة ، فهما يفترقان من بعد ذلك ليتخذ كل منهم سبيله المرسوم . وكما استطاع العلم الحديث أن يفسر صلتنا بأسلافنا ، فقد حاول أيضاً أن يوضح مفرق الطريق بيننا وبينهم .

ولسنا بسبيل نكران صلتنا بالحيوان فنتهم بالعقوق . وإنما موضع البحث هو عن وجوه الخلاف بيننا وبينه .

أساس الخلاف بيننا ، هو أننا ننطق بينما الحيوان يصيح ويدمدم ويبرطم . لساننا طلق ، ولسانه (ملووق) . وعن لساننا الطلق صدرت اللغات وعن لسانه المتلعثم صدرت الأصوات الحيوانية التى لا تكاد تبين .

ويخطىء من يظن أن المسألة قدرة على استعمال اللسان . إنما استعمال اللسان مظهر لموهبة أخرى لو أوتيها الحيوان كاملة لعرف لسانه الكلام . فموضع التساؤل إذن هو الفرق بين تلك الموهبة العقلية المركزية الجامعة التى صدرت عنها اللغات فى الجنس البشرى ، وبين الموهبة المقابلة فى الحيوان التى تعبر عن نفسها بصيحات فطرية قليلة ؟

ليس إدراك الجواب بالأمر اليسير ، كما أنه لم يصبح عسيراً وإن اقتضى الحال شيئاً من التفسير .

كان العالم قبيل انبثاق الذكاء الانسانى يحوى أنواع ثلاثة مميزة هى : الأشياء الجامدة ، والحياة النباتيه ، والحياة الحيوانية . وكان الإنسان فى هذا الطور مجرد حيوان عادى ، يضاف إلى البهم الأخرى ، بحيث لا يغير وجوده بينها من خصائص العالم الذى يعيش فيه . وكانت هذه الأقسام الثلاثة فى صورها التى لا تحصى تختلف وتتحد عن بعضها وفى بعضها بحيث تكون شبكة تامة الصلات فى الزمان والمكان ، ترتبط حلقاتها بعضها ببعض ارتباط المسبب بالسبب .

ثم حدثت معجزة الكون الكبرى ، حين ارتقى الحيوان البشرى وئيداً وئيدا ، حتى وصل إلى نوع من الحياة الشعورية المدركة . شعر هذا الحيوان البشرى بأنه حيوان بشرى . فلما أشرق عليه هذا الإلهام المجهول السبب

نفض عن نفسه غبار الحيوانية ، وأصبح إنسانا وحسب . وحينئذ انفلت من القافلة ، فاذا به يكون القسم الرابع والأهم فى العالم ، بعد أن نصب من نفسه سيدا على الأقسام الثلاثة الأخر .

إلا أن هذه الأقسام الثلاثة — أو الأربعة — حديثة نسبياً فى تاريخ الكون . ففى الأصل لم يكن العالم سوى مادة جامدة عديمة الحس . ثم ظهرت الحياة — أول ما ظهرت — فى النبات ، ثم فى الحيوان ، ثم كان الإنسان .

ولو شرت معى نتصفح مختلف النظريات التى تعلل هذا التطور ، لطال بنا الطريق ولهبط علينا الظلام قبل أن ندرك هدفنا . حسبى وحسبك أن نعرف أن ما يكاد يجمع عليه الفلاسفة والعلماء الآن ، هو أن مصدر هذا التطور دافع خفى كامن فى كل ذرة وفى كل نفس . وأن هذا الدافع يحض الكائنات — حية أكانت أم جامدة — على تميز شخوصها ، وعلى التحرر من قيود الزمان والمكان ، حتى تصل إلى تحقيق أقدارها ، وما ينبض به مصيرها من شتى الاحتمالات هذا هو رأى الأكثرين من الفلاسفة المحدثين . قال به كانت ، وهالدين ، وهوايتهيد ، وبرناردشو ، كما قال به برجسون الذى أطلق على هذا الدافع اسم الدافع الحيوى Elan Vital . وهم يعارضون به رأى أنصار النظرية الآلية القائلة بأن التطور وليد المصادفة العمياء .

هذا الدافع الحيوى الذى يكمن فى شتى الكائنات هو الذى يحضها ويدفعها إلى التحرر ، وإلى تحقيق كيانها والتعبير عنه ، حتى وصل فى آخر جهاده إلى خلق الحياة الحيوانية ؛ التى مكنته بعد ذلك من تحقيق معجزة الذكاء الإنسانى .

والذى يهمنا هو هذه الحلقة الأخيرة من التطور : من الحيوان إلى

الإنسان . وقدعرفنا أن أهم مظاهرهذا التطور هو النطق . فما الذى أنطق الإنسان ومنع الحيوان من النطق إلا بصيحات رمزية محدودة التعبير ؟ ماهو السد الذى استطاع الإنسان اقتحامه فنطق ، وارتد عنه الحيوان فظل أبكم ؟

فى رأى داروين أن ليس هناك حاجز على الاطلاق ، بل إن صيحات الحيوان ما هى إلا لغة قاصرة . فالمسألة فى اعتباره لا تعدو « اختلافا فى مرتبة الرقى العقلى » . إلا أن الأبحاث الحديثة اتجهت إلى عكس رأى داروين فأثبتت أن الأمر ليس اختلافا فى الدرجة بل فى النوع . فنوع التفكير البشرى يخالف نوع التفكير الحيوانى من حيث طبيعة كل منهما . فالفرد لا يزال يعيش فى حدود عالم الفطرة ، وطريقه إلى الحرية العقلية لا يزال يعترضه حاجز لم يصل العلم إلى استكناه طبيعته بعد . أما الإنسان المتوحش فمهما يكن من أمر شبهه فى كثير من صفاته بالقرود ، إلا أنه قد عبر هذا الحاجز ، وأصبح فى مقدوره — إن أتيحت له الملابسات — أن يندمج فى تيار المدنية ويسايره .

كيف نطق الإنسان ، وكيف عبر الحاجز ؟

لعل أصدق تصوير لهذا التطور هو الذى كتبه ذلك المؤلف المجهول الذى وضع سفر التكوين . إنه يعلل سقطة الانسان (أو نهوضه إن شئت) من حالة الطهر التى كان فيها ، بتجاسره على أكل الثمرة المحرمة . حينئذ انفتحت عيناه ، فأدرك الخير والشر ، وعرف الحقيقة والخطأ . وإذ عرف ذلك كان لا مفر من طرده من جنة عدن (أو عالم الطبيعة بالتعبير العلمى الحديث) إلى ذلك العالم الذى اضطر فيه إلى إطلاق الأسماء على الكائنات : عالم العقل .

ولكن ما ذا تكون تلك الثمرة المحرمة ؟

إنها ثمرة الزمان والمكان . والحاجز الذى اقتحمه الانسان ، وقعد عنه الحيوان ، هو حاجز الزمان والمكان .

وما الزمان وما المكان ؟

إنهما — كما يقول كانت — ذلكما الكليتان الشاملتان اللانهائيتان اللتان قطرتا فى أذهاننا مقدماً ، فأصبحنا لا نستطيع أن نصل إلى معرفة الأشياء إلا عن طريقهما وفى داخل إطارهما الموحد .

وإن لم يعجبك التعريف فلعل التمثيل يروقك .

انظر إلى الكلب . إن له ذاكرة تتضمن نوعا من الشعور بالزمان . فهو يذهب اليوم إلى حيث وجد الطعام بالأمس . ولقد تعرف «أرجوس» كلب الأوديسا على سيده المتخفى فى زى شحاذ بعد غيبة عشرين عاماً . كذلك تعرف كلب داروين عليه بعد خمسة أعوام ويومين . هذه الذاكرة وإن دلت على نوع من الشعور بالزمان ، فهو شعور محدود جداً أوحت به التجربة المتكررة فحسب . ودليلك على هذا أن الكلب — فيما نعلم — لا شعور لديه بالزمان السابق على مولده ، أو بالزمان اللاحق لموته . فهو لا يعلم شيئاً عن سلفه « أرجوس » كلب الأوديسا ، كما أنك لا تستطيع أن تشعره أو تثير اهتمامه بهذا السلف الخالد — على فرض أنك تمكنت من إيصال الخبر إليه بأية وسيلة من الوسائل الكلبية .

ثم انظر الآن الى عقل الإنسان . حقيقة أنه مركز فى جسم مادى كان كالحال بالنسبة للكلب . ولكنه مع ذلك استطاع ان يقتحم حاجز الزمن ، فهو يمسك به فى جماع كفه بدلا من أن يمسك به الزمن .

وهذه نقطة بالغة الأهمية فى موضوع نقاشنا الأصلى . الانسان يسيطر

على الزمان والمكان بواسطة عقله ، بينما يسيطر الزمان والمكان على الحيوان لقصور عقله . لهذا أمكن الانسان أن يفقه أسطورة هوميرس التى مضى عليها ثلاثة آلاف عام ، كما أمكنه أن يعقل المثل الذى أورده داروين منذ مائة عام . واستطاع - أكثر من هذا وذاك - أن يفرق بين المدة الزمنية التى تفصله عن كل منهما .

هذا هو حاجز الزمان . فكيف تيسر للانسان اقتحامه ؟

أقول لك فى غير إطالة أو مداورة : عن طريق اللغة . فاللغة هى الأداة التى ابتكرها الإنسان لوصف وتحقيق عالم الفكر الوثاب الذى ارتقى اليه أخيراً ، والذى يعتبر الزمن بعض عناصره . لقد وصل الانسان الى مرتبة الشعور الذاتى ، فلم تصبح حياته حاضرا متصلا يبدأ بالولادة وينتهى بالموت . إنه يدرك أن حاضره غير ماضيه وغير مستقبله . الحاضر يعيش فيه ، والماضى يعيه فى ذاكرته ، أما المستقبل فمجهول . ولم يتأخر الإنسان فى ابتداع الرموز العقلية اللازمة للاحاطة بعالمه الزمنى الجديد . فى هذا الحين تمكن الإنسان من أن يضع الزمن جميعا فى عقله وأن يصبح سيده .

أما الكلب المسكين الذى لم يتحرر عقله بعد ، فهو لا يزال سجينا فى نطاق الزمن ، لأنه لم يستطع ان يحله فى رأسه . أما وعقله خلو من عالم الزمان فهو عاجز عن وصفه ، وبالتالى لا يشعر بحاجته الى اللغة مكتفيا بالنباح .

والذى قلته عن الزمان يصدق أيضاً بالنسبة للمكان .

ولنعد الى الكلب فإنه رفيق أمين . إن لديه من غير شك بعض المعرفة العقلية لهذا الجزء من المكان الذى يتحرك فيه جسمه والذى يقع فى

نطاق حواسه وتجربته . ولكنه مع ذلك لا يستطيع اختراق دائرة هذا المكان المحدود ليتمكن من الوصول إلى فكرة المكان بمعناه المجرد . فلو وجد كلبنا هذا فى الأسكندرية ، فان عقله لا يستطيع أن يشعر أو يتنبه الى معرض لإخوانه الكلاب مقام فى الجزيرة على بعد مائتى كيلومتر . إن عقله ـ كجسده ـ سجين فى نطاق المكان المحلى كما رأيناه سجينا فى نطاق الزمان المحلى إن صح هذا التعبير .

أما صاحب هذا الكلب الأمين ، فحاله غير هذا الحال . فهو قد يقبع فى منزله بالأسكندرية يتصفح جريدة المساء . وقد يقع على خبر معرض الكلاب المقام فى الجزيرة وعلى خبر معرض آخر مقام فى نفس الشارع الذى يقطن فيه ، فيستطيع أن يستحضر عقليا صورة معرض الجزيرة بنفس السهولة التى يستحضر بها صورة المعرض الذى على مرمى حجر . فبعد المكان أو قربه بالنسبة للانسان ليس له أثر ما فى الصورة العقلية التى يستحضرها ذهنه . فما المواضع المتعددة سوى صور مختلفة لفكرة المكان التى يحتويها عقله على الدوام .

اذا وعينا هذه الأمثلة أمكننا إدراك رأى (كانت) من أن سيطرة الإنسان على الزمان والمكان كفكرتين مجردتين هى موهبة سابقة على القدرة على التفريق بين أمكنة الأشياء فى زمان ومكان معينين . وعلى هذا الأساس ابتدع (كانت) نظريته الشهيرة التى مؤداها أن الزمان والمكان إن هما إلا صورتان أو أنموذجان من نماذج العقل نفسه . فهما قد نشآ فى الداخل ، ولم يأتيا من الخارج كما قد يبدو للحس . فالعقل لا يتأتى له ابتداء أن يفكر فى الأشياء الا وهى معروضة فى

إطار الزمان والمكان

***

فى هذا الحين ولدت اللغة .

فالإنسان بعد أن تمكن من أن يسيطر عقليا على الزمان والمكان ، أصبح فى حاجة الى نوع من الرموز الذهنية التى تقوم مقام المعالم المادية فى العالم الخارجى . فكل نوع أو طراز من كائنات عالم الطبيعة الخارجى لا بد له من رمز يقابله فى العالم الداخلى للعقل . بغير هذه الرموز لا يتأتى للانسان أن يزيد من معرفته بالعالم . ولم تتم هذه المعرفة دفعة واحدة ، بل خطوة خطوة . فكان الإنسان كلما تقدم خطوة فى طريق المعرفة أثبتها وسجلها - بواسطة الرمز الممثل لها - فى صرح عقله الذى كان لا يزال فى طور التكوين . فابتكار الرموز كان ضرورة لازمة ليتمكن الإنسان من خلق عالمه العقلى المستقل عن عالم الزمان والمكان . وكان أن ولدت اللغة حين انتقل الانسان من حالة ما قبل الشعور الى الحالة الشعورية . أما الحيوان فلأنه لم يصل الى هذه الحالة بعد ، فهو فى غير حاجة الى ابتكار الرموز العقلية ، لأنه لا يزال سجين الزمان والمكان .

ومن المناسب هنا أن نعرف بميزات هذا العالم العقلى الذى ابتكره الانسان .

هذا العالم لا يضيف جديداً إلى عالم الطبيعة ، كما أنه لا يغير منه شيئاً . إنه مجرد تصوير عالم الحس وتحقيقه معنوياً .

ومع ذلك فهناك ثمة اختلاف جوهرى بين العالمين . وهذا الاختلاف هو بيت القصيد فى موضوعنا . ذلك أننا بينما نجد عالم الحس فى حالة تغير دائم ، إذا بعالم العقل ينمو تدريجا حتى يصل إلى إقامة صرح معنوى

ثابت وغير قابل للزوال . فالثبوت هو الميزة العتيدة لعالم العقل . والتغير والزوال والتلاشى هى الصفات المميزة لعالم الطبيعة .

ولكن كيف يتأتى هذا الثبوت لعالم العقل ؟

أرجو أن يتفهم المدافعون عن لغة الجاهلية جواب هذا السؤال تفهما تاما . إن الصور اللانهائية لأعلام الطبيعة وكائناتها تتحقق فى الوجود المادى ثم لا تلبث أن تزول . فالشجرة المورقة تستحيل حطبا جافا . والحطب إن أوقدته يشتعل نارا ثم يستحيل رمادا . كذلك قد يكون الحمار أبيض أو أسمر أو أسود أو مخططا بحسب اختلاف المناطق والأجواء . والناقة قد تولد صغيرة فيكون لها شكل معين ، فاذا كبرت عاما بعد عام تغير شكلها وتغيرت طباعها فى كل عام .

وما ذلك الى لأن عالم الطبيعة يسيطر عليه الزمان والمكان سيطرة تامة .

أما عالم العقل فهو المسيطر على الزمان والمكان . لهذا كانت الوظيفة الأساسية للعقل الواعى هى أن يختار الأنواع العامة الدائمة فى عالم الطبيعة بعد أن يجردها من أشكالها المتغيرة . فاذا ماتم له هذا الاجراء المبدئى ، اختار لكل نوع رمزا ثابتا دائما يكون بمثابة لبنة فى صرح عالم العقل الذى لا يزول .

فاللغة هى عنصر الثبوت فى عالم متغير زائل . وهذا ماعناه الشاعر وردزورث حين غنى قائلا : « هذه الكتب لك . ففى أبهائها الصامتة يكمن الكنز المحفوظ من جيل الى جيل . »

كان حتما على أن أسوق لك كل هذا التفصيل حتى ندرك سوياً تلك

الخواص الأساسية التى تميز كل لغة حية ، وحتى نستطيع من بعد ذلك أن نحكم على اللغة العربية حكما صحيحا .

يقول العلامة ريتشارد ألبرت ويلسون إن أهم هذه الخواص ثلاث .

أولاها أن تكون رموز اللغة — أى الألفاظ — مرنة قابلة للنمو من ناحية ، وأن تكون فى نفس الوقت ثابتة دائمة . فهذه هى الطبيعة المزدوجة لعالم العقل الذى تصدر عنه هـذه الرموز . أما الثبوت فسبيله تجريد الكائنات من صورها الزمنية والمكانية العارضة ، واختيار اللفظ للجوهر . وأما المرونة فسبيلها إطلاق الحرية للغة حتى تستطيع أن تنمو وتتطور .

والخاصية الثانية هى أن تكون الرموز مميزة ومختلفة — سواء فى الشكل أو فى المعنى — كما أن الأجناس الطبيعية التى تمثلها مختلفة ومميزة . فاذا اختلف الرمز واتحد الجنس الواقعى ، وقع الاضطراب فى اللغة لما يصيبها من حشو وفضول يفقدها المرونة والثبات . وهذا شأن المترادفات .

أما أهم هذه الخواص فأساسه ما قررناه من أن اللغة هى عصر الثبوت فى عالم الطبيعة المتغير الزائل . لهذا وجب أن تتحرر رموز اللغة تحرراً تاماً من الحدود الحسية للزمان والمكان ، كما أن العقل متحرر منها . وبتعبير آخر ، يلزم أن تتحرر الرموز من طبيعة الزمن المتلاشى ، ومن جمود المكان وتحديده .

* * *

أحسب أننى — بعد كل ما أسلفت من بيان — لست فى حاجة إلى التدليل على أن اللغة العربية — فى صورتها الجاهلية التى ثبتت عليها إلى

الآن — لغة زمان ومكان .

إنها لغة زمان ومكان بمعنى أن ألفاظها لم تتحرر من قيودهما كما يفترض فى كل لغة ناضجة حية . فالزمان والمكان يسيطران على رموز هذه اللغة بدلا من أن تسيطر هى عليهما .

وأحسب كذلك أن كل منصف يستطيع أن يقرر بنفسه أن ألفاظ اللغة العربية الجاهلية ـ وليس لدينا لغة سواها ـ لا يتوفر فى معظمها الخصائص الثلاث سالفة الإيضاح ، فى حين أن دعوى غنى لغتنا إنما تستند على هذه الألفاظ الجاهلية عينها .

فألفاظ لغتنا ليست مرنة ولا ثابتة ، لأن العرب لم يتبعوا فى اختيارها السبيل الصحيح . كان عليهم أن يجردوا النوع من مظاهره العارضة ، فيطلقوا الاسم على الجوهر . ولكنك تراهم يتبعون عكس ذلك . فهم لا يطلقوا الاسم إلا بعد أن يرهقوا المسمى بالأوصاف والحدود . فالخود عندهم هى المرأة الجميلة ، الحسنة الخلق ، الشابة ، مالم تصر نصفاً . ولقد سبق أن أوردت لك من الأمثال ما يغنى فى هذا الباب . ولهذا فان معظم ألفاظ اللغة العربية تدل على معان مركبة . ومعنى التركيب هنا ، هو أن هذه الألفاظ محددة بالزمان والمكان . فالأعرابى يرى امرأة معينة ، فى صورة معينة ذات سن معين ، فيطلق على مجموعة هذه المميزات اسما واحدا . هذا الاسم ذو المعنى المركب لا بد أن يموت ، لأنه يتضمن معانى تحكمية ابتدعها فرد . فالاسم الذى اختاره إنما يؤدى هذه المعانى بالنسبة لهذا الأعرابى وحده ، ولكنه لا يوحى بها للآخرين . فهو لفظ للاستعمال الخاص لا العام . وتحتوى اللغة العربية على عدة آلاف من أمثال هذا اللفظ .

أما أن اللغة العربية لا يتوفر فيها عنصر الثبوت ، فلا أدل على ذلك من

تلك الواقعة التى يرويها ياقوت فى معجمه . قال :

« حدث المفجع البصرى قال : كان المبرد لكثرة حفظه اللغة وغريبها يتهم بالوضع فيها . فتواضعنا على مسألة نسأله عنها لا أصل لها ، لننظر ماذا يجيب . . . . ثم ذهبنا إلى المبرد فقلنا له : أيدك الله تعالى ، ما القبعض عند العرب ؟ فقال : هو القطن ، وفى ذلك يقول الشاعر : كأن سنامها حشى القبعضا . قال فقلت لأصحابى : ترون الجواب والشاهد . فان كان صحيحاً فهو عجب وإن كان مختلقاً على البديهة فهو أعجب » .

فلو أنك سألت المبرد ما « المكرونة » عند العرب ؟ لقال لك إنها الفرس المتمرسة فى فنون الكر والفر . وفى ذلك يقول الشاعر : على ظهر مكرونة بيض عوارضها .

وما يمنعه من ذلك ، وقد ابتكر باعترافه الكثير من المعانى والألفاظ التى لا أصل لها ؟ إن اللغه لا تمنعه من ذلك ، فهى لغة مطاطة تستطيع أن تضيف اليها ماتشاء من الألفاظ الغريبة دون أن يشعر بزيفها أحد ، ودون أن يغير ذلك من طبيعة اللغة . وهل المكرونة أغرب من الظنبوب والسميدع ، والدوبل والبجرو والأردى والأراكة والثمام والشوحط والرمث ؟

كذلك يعوز ألفاظ لغتنا التميز والاختلاف . ولقد حدثتك عن المترادفات بما فيه الغنى والكفاية .

ولقد ذكرت لك أن هذه المترادفات المسرفة لا تدل على غنى اللغة وإنما هى من مظاهر ضعف الخيال وقلة الحيلة .

إذن ما هى اللغة الغنية ؟

اللغة أداة للتعبير . والتعبير هو نقل المعنى من ذهن المتكلم أو الكاتب الى ذهن المستمع أو القارىء . يجب أن تفهمنى وأفهمك حتى تعتبر اللغة

التى نتخاطب بها لغة جيدة . وأنت لن تفهمنى إن حدثتك قائلا : ذهبت مع سميدع فى أثر الأردى فوجدنا الشوحط يغطى ظهر الجبل . أو إن قلت لك : لا تأكل الشاة المجثمة فحالها حال الدوبل .

فاللغة الغنية يجب أولا أن تكون لغة بسيطة . وهى لا تكون كذلك الا إذا كانت ألفاظها مختصرة معروفة سهلة .

ويجب ثانياً أن تكون لغة معبرة دقيقة . وهى لا تكون كذلك إلا إذا كانت أداتها طيعة مرنة. لهذا يجب أن تختصر اللغة اختصارا تاماسواء من حيث الألفاظ ، أو من حيث قواعد النحو والصرف . فالتعقيد عقبة كئود فى سبيل تأدية المعنى الدقيق . فأنت إن اعطيت الكاتب لغة معقدة سلبته حرية التعبير . فاللفظ المركب محدود المعنى بطبيعته . والنحو المعقد يتضمن حدودا مرسومة مقدماً ، ومعانى يجب التزامها فى ترتيب الكلام وصياغته إن اردت تجنب الخطأ . والحق إن الكاتب الذى يستعمل اللغة العربية يشعر بأن قلمه مكبل بالأغلال .

ولكن أعط الكاتب أدوات بسيطة واضحة — على أن تكون محددة المعنى — وهو يأتيك بالعجب العجاب. وحسبك أن تقرأ لأساتذة فن الكتابة فى الغرب . اقرأ لأناتول فرانس أو لديهامل أو لأرنولدبنيت أو لأوسكار وايلد أو لموم أو لستيفنسون أو لتور جنيف . هؤلاء جميعا اشتهروا بجمال أفكارهم ورقة معانيهم . فماذا تجد ؟

تجد عبارات فى سلاسة الماء ورقة النسيم . فان نظرت فى الألفاظ فلن تجد من بينها لفظاً واحداً غير مألوف . وإن نظرت فى قواعد اللغة وجدتهم لا يستعملون منها سوى أبسطها وأبعدها عن التعقيد ، حتى ليخيل للغر الجاهل أن هؤلاء الكتاب غير متمكنين من لغاتهم ، وحقيقة الأمر

أنهم العنصر الفعال فى خلود هذه اللغات بما يبثونه فيها من حياة .

ولقد فطن بعض كتابنا الحديثين — والذين يعالجون فن القصة على الأخص — إلى هذه الحقيقة التى خفيت على أسلافنا لسوء الحظ . فأسلوب الأستاذ توفيق الحكيم ، عنوان البساطة والرقة . وهو فى نفس الوقت أسلوب جميل دقيق التعبير ، بحيث تؤدى العبارة من عباراته معانى يشق على غيره تأديتها فى عشرة سطور . ولقد كان من الممكن أن يكون أسلوب كل من الاستاذين محمود تيمور وابرهيم عبد القادر المازنى سهلا كأسلوب الأستاذ توفيق الحكيم ، لولا أنهما لا يلحظان فى إنشائهما البساطة فحسب ، بل يقومان إلى جانب ذلك بمحاولات تجريبية ترمى إلى استنباط ألفاظ عربية تقوم مقام ألفاظنا العامية التى لها أصل عربى صحيح . وهو جهد مشكور جداً إن روعى فيه القصد والبعد عن التزمت وغريب الألفاظ .

* * *

لقد رأيت أن العلم يصم لغتنا العربية بالفقر ، كما يتنبأ لها بسوء المصير لما تحويه من عوامل الفناء .

فما يكون موقفنا اذن ؟

إنه على أى حال يجب ألا يكون موقف أولئك الذين نصبوا من أنفسهم مدافعين عن عظمة اللغة العربية وغناها ، وبلاغتها المنقطعة النظير . فالذى يجب أن يستقر فى الأذهان أن العربية لغة كسائر اللغات . ونحن إن كنا نحبها حبا جما فكذلك يعتقد الفرنسيون أن لغتهم من أفضل اللغات إن لم تكن أفضلها جميعا ، ومثلهم فى ذلك الانجليز وسائر شعوب الأرض .

ولسنا نكسب شيئاً من وراء المباهاة بلغتنا . فان التفاخر ، والتشدق بالمزايا الوهميه ، والاعتداد المبنى على الجهل ، كانت دائما من مظاهر عصور الانحلال فى كل أمة من الأمم . فان رأيت شعباً يضرب صدره بيده ويقول : « أنا وأنا . . . » حق لك أن تتأسف على مصيره المشئوم إن لم تأته نجدة من السماء .

وعلى العكس من ذلك ، فان الشعب الذى ينقد نفسه وأحواله ، ويجتهد فى إظهار نواحى النقص فى لغته وفنونه وآدابه ، هو على التأكيد شعب ناضج ينبض بالحياة . وليس من شعوب الأرض من ينتقد نظمه وفنونه وأخلاقه كما يفعل الشعب الانجليزى . فهل تكون الأمة الانجليزيه أمة متأخرة كل هذا التأخر الذى قد يوحى به إسرافها فى نقد نفسها ، أم هى من أرقى أمم العالم ؟

المباهاة لن تكسبنا شيئاً ، ولكنها على التحقيق ستكون السبب فى أن نخسر الشىء الكثير . فالمباهاة معناها أننا قد بلغنا الكمال . ومن بلغ الكمال لا يكون فى حاجة إلى إصلاح . وإبقاؤنا على لغتنا بحالتها الراهنة معناه أن ندفع بها قدما نحو ذلك المصير المشئوم الذى تنبأ به ديهامل حين تحدث عن اللغة الفرنسية فقال :

« إنها أفلتت من المحن التى تسير اليها اليوم اللغة العربية الآفلة » .

لن يكون موقفنا كموقف هؤلاء ، لأننا خليقون بأن ندرك قدر المسئولية الملقاة على عاتقنا . وإن أردت أن تعرف طبيعة هذه المسئولية فاستمع الى الفيلسوف هردر - الذى علمت رأيه فى اللغة العربية - إذ يقول فى كتابه « أصل اللغة » ما يأتى :

« الطبيعة لا تهب قواها عبثاً . فهى لم تهب الإنسان القدرة على اختراع اللغة فحسب ، ولكنها جعلت من هذه القدرة ميزته الخاصة . والأساس

الحى الفعال الذى ينبنى عليه مصيره . . . وإن اللحظة التى سطع فيها ضوء العقل لا بد وأن تكون أيضاً مبدأ خلق اللغة الداخليه ... فالإنسان يشعر عن طريق العقل، ويتكلم حينما يفكر، لهذا يعتبر تقدم اللغة وارتقاؤها أمراً طبيعياً كارتقاء الطبيعة البشرية ذاتها ،

هذة الصيحة المدوية رددها العلامة چوليان هكسلى بأسلوب علمى حديث فقال فى كتابه « العلم والحاجات الاجتماعية »

« لقد فتح لنا العلم شتى الآفاق . وأخص فتوحاته الحديثه إظهاره الحياة فى صورة عملية تطور بطيئة نحو العلا . لقد أظهر أن التطور ينطوى على عنصر يجب علينا أن ندعوه ارتقاء ، كما أظهر أننا أنفسنا نعتبر أمناء على كل تطور تقدمى لم تستتم حلقاته »

وليس فى العالم مهمة أنبل من هذه . فالكاتب هو حامل شعلة المدنية فى كل العصور .

ولا تحسبن أننا نعيب على اللغة العربية أنها نشأت فى مبدئها لغة زمان ومكان، لغة محدودة فى نطاق البيئة التى أبدعتها بحيث يقتصر فهمها على القبيلة أو القبيلتين . إننا لا نعيب عليها هذا ، فلعل كل اللغات نشأت على هذا النحو . أما ما نأخذه عليها فهو أنها جمدت عند هذا الحد . فما بالك والغالبية العظمى من كتاب هذا الجيل ترى أن خدمة اللغة العربية لا تكون إلا بالرجوع بها الى عهدها الجاهلى . إنهم يرون فى ذلك إحياء للغة ، وهو فى الواقع وأد لها .

إن كتاب العربية منذ صدر الاسلام لم يفعلوا شيئاً فى سبيل النهوض والسير بها فى طريق التطور التقدمى . لقد اعتبروها كاملة المحاسن مستكملة الصفات . وهذا لا يزال لسوء الحظ رأى معظم كتاب الشرق العربى .

وإن المرء ليعجب أن يكون هذا هو الرأى فى اللغة العربية التى بينت لك مقدار تخلفها عما يجب أن تكون عليه اللغة الحية ، بينما تجد كبار الكتاب فى الغرب لا يزالون ينادون بوجوب إعادة النظر فى لغاتهم — تلك اللغات التى سارت جنباً إلى جنب مع تطور المدنيه .

فأنت ترى برناردشو — أعظم مفكرى هذا القرن — ينتقد اللغة الإنجليزية انتقادا مراً ، مع أن هذه اللغة تكاد تخلو من الإعراب ، كما أنها تخلصت على مر الزمن من ثلاثة أرباع أجزومية اللغة العربية . ولكنها فى رأيه لم تصل بعد إلى الدرجة الواجبة من البساطة والاختصار التى تمكنها من أن تكون أداة تعبير ممتازة .

إنه يقول إن اللغه الانجليزية لاتزال تحمل الكتاب وأصحاب المطابع على بذل جهد بدنى طائل ، وعمل عقلى مضن ، نتيجة لاضطرارهم اتباع قواعدها التحكمية الموروثة . وهذا الجهد جميعه يذهب جزافا وبغير جدوى . أما طريقة الإصلاح التى ينادى بها فهى : أولا — استبعاد القواعد النحوية التى لافائدة منها . وثانيا — تهجئة الألفاظ بطريقة صوتية لا تقليدية .

فنى رأيه أن القواعد التى لا فائدة منها وباء مدمر . ولقد تيسر للغة الانجليزية على مر العصور أن تتخلص من معظم قواعد النحو والصرف التى جعلت من اللغة اللاتينية لغة عنيدة صعبة المنال . ولكن شو يرى مع ذلك أن لغته لا تزال تتمسك بقواعد لا موجب لها . فهو لايفهم حكمة تنويع الفعل فى مثل قولك I am, Thou art, He is ويقابلها فى صيغة الجمع We are, They are فى حين أن الفلاح الانجليزى — قبل أن يفسد المعلم حكمته الطبيعية — يستعمل فعل Be فى جميع هذه الصيغ على السواء .

ولشو ملاحظة فريدة فى هذا الباب . فهو يقول إن التجار الصينيين والزنوج ومن على شاكلتهم ممن يتعاملون اللغة الانجليزية باعتبارها لغة

تجارة فحسب ، قد عمدوا من ناحيتهم الى تبسيطها واختصارها ، فابتكروا ما يسمونه « انجليزية المعاملات » . فالصيني لا يقول : « يؤسفني أنني لا أستطيع قبول عرضكم » ، ولكنه يكتفي بقوله : "Sorry no can" فيؤدي المعنى المقصود ويوفر وقت الطرفين في آن معاً . ويقول شو إنه لو استطاع خلال الستين عاماً التي قضاها في الكتابة أن يختصر كل ألف كلمة كتبها الى نصف هذا العدد ، لاستطاع أن ينتج ضعف ما أنتج . ولو أن برنارد شو كان يكتب باللغة العربية فلعل إنتاجه كان يهبط إلى الربع .

ويرد شو على القائلين بأن الاستغناء عن والنحو يؤدي إلى زيادة عدد الكلمات في بعض الأحوال ، بأن نفع هذه الزيادة يربو كثيراً على ضررها . إذ من مقتضاها تبسيط اللغة وجعلها قريبة المنال ، فيتسع نطاق المستفيدين بآثارها من جهة ، وييسر تعليمها للأجانب من جهة أخرى . وهو لذلك يرى — على سبيل المثال — الاستغناء عن سائر الأفعال الشاذة ، فتكون صيغة الماضي لفعل think مثلا هي Thinked بدلا من Thought . إن شو يشتكي من بعض أفعال شاذة ، فما يكون موقفنا نحن المساكين حيال أفعالنا الناقصة والمعتلة ، أو أفعالنا الثلاثية والرباعية والخماسية والسداسية التي نصدع بها رءوس أبنائنا الشهداء ، فنتعسهم في فجر حياتهم ! كثيراً ما نسمع الأساتذة يشتكون من ضعف طلبتهم في اللغة العربية . هذا لعمرك قلب للأوضاع . فالأحق والأعدل أن يشتكي الطلبة من ضعف اللغة العربية .

يا للغة العربية هذه !

صدقني أنها — في صورتها الحالية — ليست لغة . إنها غول أو عنقاء دون أن تكون خلا وفياً . أليس الغول يمتص الدماء ؟ هكذا اللغة العربية تقتضيك زهرة عمرك في تحصيلها ، حتى إذا ما حسبت أنك بلغت

الغاية فى معرفة ألغازها ، ثم بدأت تكتب سطراً أو بعض سطر ، إذا بذئابها تنهشك من كل جانب وتخطىء كل حرف مما كتبت .

يخيل إلى أنه لو طلب من هيئة تضم كبار علماء هذه اللغة أن تكتب عشرة أسطر ببيان عربى صحيح ، لانتهت المحاولة بأن تصبح هذه الأسطر العشرة موضوعاً لمجادلات لغوية لا تخلو منها جريدة أو مجلة أدبية لمدة عام أو عامين .

إن الحقبة المنتجة فى حياة المرء لا تعدو الثلاثين عاماً . فلو أنه صرفها - وهى قليل - فى تحصيل هـــذا الذى يكاد أن يكون عبثا - إن لم يكنه - فحدثنى بربك متى يكتب ؟ ولا يغيبن عن بالك أن اللغة أداة . فلو أنك أضعت عمرك فى تعلم تلك الأداة فمتى تحصل الأفكار التى شرعت الأداة للتعبير عنها ؟

فلا تعجب إن رأيت أدباء العربية يجعلون منها وسيلة وغاية فى الوقت عينه . لقد قضوا حياتهم فى تعلم الوسيلة فلم يبق لديهم من الوقت ما يمكنهم من تعلم غيرها . ولهذا فهم يكتبون باللغة العربية فى موضوع اللغة العربية لا غير . وهم فى ذلك كمن يكتسب القرش ليكنزه لا لينفقه ، أو كمن يقطع الحجارة ليضعها فى المعارض لا ليبنى بها بيتا .

***

ألا فلتحدثهم يا مليم بما حدثتك به . فان كانت آراء المحدثين من الفلاسفة والعلماء لا تروق بعض النفوس ، فهناك هوراس الشاعر الفطحل وأكبر اسم فى تاريخ النقد بعد أرسطو . وهو — فيما أرجو — شاعر لا غبار عليه ، وناقد لا شبهة فى رأيه ، فقد عاش قبل الجاهلية بألف عام . إنه خليق إذن بأن يصدق من الذين لا يطمئنون إلا إلى القديم والقدماء فليستمعوا اليه إذ يقول :

« إن أسلوبك يبلغ حد الكمال إذا كانت طريقة صياغتك من البراعة بحيث يبدو فيها اللفظ العادى كما لو كان مبتكراً جديداً . فان اقتضى الحال أن تعبر عن أسرار غامضة بكلمات جديدة، فانه يسمح لك حينئذ بأن تصوغ ألفاظاً لم يسمع بها الأقدمون . وهذه السلطة لك ما استعملتها بحكمة . فالكلمات الجديدة جديرة بأن تصادف ما تستحقه من تقدير مادمت تشتقها من أصل يونانى . وإلا فكيف يخول الشعب الرومانى هذا الحق لكاسيليوس وبلوتس بينما يحرمه على ڤرجيل وڤاريوس ! ولم تكفهر لى الوجوه إذا استطعت أن أضيف بعض كلمات الى رصيدى اللفظى ، بينما يعترف الجميع بأن مؤلفات كاتو وإنيوس قد أغنت لغتنا حين اكتشفت ألفاظاً جديدة للأشياء ؟

« لقد منحت الرخصة فى القديم — وسوف تمنح دائماً — لكل من ابتكر ألفاظاً جديدة، ما دامت مصبوغة بصبغة الجيل . فكما أن الغابات تستبدل أوراقها عند انقضاء الحول ، وتكون الأوراق الأولى أول ما يسقط ، كذلك تفنى الألفاظ وتموت إن امتدها العمر ، بينما تولد ألفاظ جديدة فتكافح وتصبر إلى أن تينع وتروج ، شأنها فى ذلك شأن الشباب . . .

« إن الموت مقدر علينا وعلى آثارنا ، وكل أعمال البشر إلى فناء . أما صور الألفاظ وما قد يكون لها من مكانة أو ذيوع — فهذى إلى الموت أقرب . كثير من الألفاظ التى بطل استعمالها سوف تبعث ، وتلك التى تعلو اليوم فى أعين القوم مصيرها إلى السقوط ، ما دام العرف يريد ذلك . فالعرف هو السيد والحاكم والمقرر . . . »

أى عدل يا مليم فى أن يعطى الجاهلى حق ابتكار ألفاظ : الظنبوب والشوحط والسميدع ، ثم لا يسمح لنا أن نستنبط ألفاظا تعبر عن معان أهم

من تلك بكثير ، فنظل متخلفين عن قوافل الأمم الأخرى ، ليس لنا ما نعبر به عن معانى nuance, intnition, prejudice ومئات غيرها !

حدثهم يا مليم . قل لهم إنه إذا شق عليهم أن يتلقوا العظمة من فلاسفة الغرب وعلمائه حتى ولو كانوا من الأقدمين، فليستمعوا فى الأقل القليل إلى جاحظهم إذ يقول فى بخلائه :

« وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً ، أو كلاماً غير معرب ، أو لفظاً معدولا عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ، ويخرجه عن حده . . . »

فهل لم يئن الأوان بعد كل تلك القرون ، لأن نترك ذلك ، ونحن نرى أنه قد خرج عن كل الحدود !

ألا ما أشق مهمة الكاتب العربى الذى قسم له أن يولد فى هذا الجيل ! إن عناءه لمضاعف ، عليه أن يبتكر الفكرة ، وأن يخلق لها اللفظ ، ثم يصوغها بلغة عصرية من صنعه .

الآن وقد بينت لك يا مليم وجوه النقص فى لغتنا ، فلعلك ستسألنى عن وجوه الاصلاح

ولكن هذا موضوع آخر . وقد تعبت من الكلام

***

درس فى الفقه والأخلاق

كنت قد تعبت من الكلام حقيقة . ولم تكن هناك وسيلة تيسر لى الاستجمام الذهنى والجسدى سوى الابتعاد عن مليم بعض الوقت . ولم يكن هذا الإجراء لازما كعلاج للاجهاد فحسب ، بل كانت حاجتى إليه أشد لتطهير نفسى مما يكون قد علق بها نتيجة لصحبة رجل غنى . فأنا إن صاحبت مليم عشراً ، كفّرت عن ذنبى بصيام عشرين ، حتى يرتد صمام الأمن سليما قادراً على المقاومة .

لهذا كان فى مرجوى أن أهجره شهراً على الأقل ، فما كانت لى به حاجة. وطدت نفسى على هذا الرأى فى المساء ، فلما كان الصباح كنت أطرق باب قصره المنيف .

إننى حين عدت الى منزلى وجعلت أتدبر ما قلت وما لم أقل . اتضح لى أن هذا المليم يلعب بى ، ويتخذ منى ملهاة لتزجية فراغه الطويل، إذ ليس من المعقول أن تقبل قصة من القصص، ثم تستبعد بعد ذلك لأن أسلوبها غير جاحظى. ولقد يفهم هذا التصرف لو كانت المباراة فى الأسلوب. ومهما يكن من إساءة فهم معنى القصة فى مصر ، فان حسن الظن يدفعنا إلى ترجيح أنها لم تقرن بعد « بالأسلوب الفنى » على النحو المتواضع عليه فى الأدب العربى .

إذن فهذا المليم اللعين قد أطلعنى على شىء وأخفى عنى أشياء . وفى بيته يؤتى الوغد مليم . فكان أن ذهبت إليه وهو لا يزال يعالج إيقاظ نفسه بشتى أنواع المشروبات الساخنة .

ولما أن احتوتنا غرفة مكتبه، وعرف القصد من زيارتى المبكرة، رأيته

يتبسم — وإنه لعبقرى الفتنة حين يبتسم أو يضحك — ثم يميل برأسه الى الوراء ويقول :

— هل تود أن تعرف السبب حقيقة ؟

قلت : « وهل تحسبنى جئت مستفسراً عن حركة الهضم عند فخامتك؟ »

قال : « لا . هذا يفعله الرجل المؤدب . أما أنت فتهم فى أخلاقك »

قلت : « أما والله لقد أحزنت قلبى . »

قال : « هو ذلك »

قلت : « فهلاّ تركت لى بعض عماد أستند إليه : ماذا يبقى لى إن أنكرت خلقى ، وقد جحدت صناعتى وفنى ؟ إذن فأنا إلى البهم أقرب . »

قال : « إن البهم لا تعرف طريق الرذيلة فهى لذلك لا تخطىء . أما أنت فقد ركبت من أمرك شططا . »

قلت : « إذن فلا أقل من أن يعرف المتهم موضوع اتهامه . فهل أنت مطلعى عليه؟ »

قال : « سأحدثك بما أعرف . لقد أدخلونا حجرة ذات فخامة وبهاء . وكان معى الأستاذ نجيب محفوظ فانكمشت وراءه لفرط ما داخلنى من الروع ، وثمة شيخ جليل مهيب أومأ إلينا ، فجلسنا وقفزت قلوبنا . ملت على الأستاذ نجيب أسأله إن كان سيحكم علينا بالشنق فط شفتيه وقال إنه إحتمال بعيد . وبدأ الشيخ الوقور الكلام ، فتعلقت به أبصارنا وامتدت إليه آذاننا . فكانت مواعظ فاتنة وآيات تخلب الألباب . ورأس أبيك لقد كنت أحق الناس بالاستماع إلى هذا الدرس فى الأخلاق »

قلت : « لاشأن لك برأس أبى ، ولتعد على ما سمعت بغير تعليق » .

قال : « سمعاً وطاعة فليس لنا بركة إلا أنت . أنصت إذن إلى صحيفة

اتهامك أيها الكاتب. ماكان عليك أن تستنبط افكاراً من عندك ، ولا أن تتحدث بغير ما يدور على ألسنة العوام من كلام . فان صادفك فى طريقك عادة مرعية أو سنة خلقية ، فليس من شأنك أن تتساءل هل أخطأ القوم أو أصابوا ، بل عليك أن تسلم بواقع الأمر فى صمت . فالكاتب يجب ألا تدور بخلده لحظه فكرة قيادة العقول ، أو نقد الأنظمة ، حتى وإن كانت ضارة . فما مهمته إلا أن يسير فى أعقاب ما تواضع عليه الناس . أما والقصص هو تصوير للحياة ، فالفنان الحق هو من يلتقط فتات الموائد فيعيد طهيها بسبيل جعلها وجبة متواضعة تعافها النفوس الكريمة » .

قلت : « هل قيلت لكم هذه العبارة الأخيرة ؟ »

قال : « لم تكن ثمة حاجة إلى القول . لقد بدرت الإشارة ولست إلا لبيباً . أما الذى قيل فهو أننا إن كنا قد فهمنا ما ألقى فى أسماعنا وأدركناه ، فعلينا أن ننتزع من كتبنا كل طعام دسم ، ونبعثر فى مكانه الفتات ، ثم نعود إليهم بهذه البضاعة الممضوغة لعلها أن تكون أوفر حظا »

قلت : « هيهات . . . »

قال : « هيهات . . . »

أطرقنا لحظة ثم رفعت رأسى وقلت :

ـ سأرفه عنك بحديث طريف . أتعرف برناردشو ؟

قال : « سمعتك تذكر اسمه . من يكون ؟ »

قلت : « إنه من يقول إنه يميل إلى الخلوة بنفسه ، لأنه يحب حديث الرجال الأذكياء »

قال : « إذن فقد عرفته . وما يقول صاحبك ؟ »

قلت : « استمع » وشرعت أقرأ له حديث برناردشو :

« لست بالكاتب العادى فيما أعالج من موضوعات . فأنا اختصاصى فى مسرحيات الكفر غير الأخلاقية . ولقد اكتسبت شهرتى عن طريق نضالى الدائم فى سبيل قسر الشعب على إعادة النظر فى أوضاعه الخلقية . وإننى أعتبر — على وجه الخصوص — أن معظم القواعد الخلقية المتعلقة بالأوضاع الاقتصادية والعلاقات الجنسية فاحشة الخطأ ، كما أنظر بكراهية إلى طريقة فهم الشعب الانجليزى لبعض مبادىء الديانة المسيحية . فأنا أكتب ما أكتب من مسرحيات لغرض واحد مقصود ، هو حمل الشعب على اعتناق آرائى فى هذه المسائل فاذا منعنى مانع من تأليف مسرحيات الكفر غير الأخلاقية ، لأمسكت عن الكتابة توا . وإننى أذكر هذه الحقائق لأظهر شدة اهتمامى بما وصلت اليه مهنتى — بعد نضال طويل — من تقرير حرية الكلام والضمير — هذه الحرية التى أصبحت بعيدة عن مجال النقاش فى المهن الأخرى .

« إننى أعترض على النظر إلى الفن بمنظار الأخلاق . وما ذلك لأن هذه النظرة تعوقنى وتضرنى شخصياً ، ولكن من ناحية المصلحة العامة »

فهل تعجب ياعليم بعد أن سمعت قول شو ، من أن النظر إلى الفن بمنظار الأخلاق ، فيه أكبر الضرر للمصلحة العامة ؟

لعلك لاتعجب إن عرفت :

أن الفن — كما يعرفه أرسطو — هو محاكاة أعمال الرجال ، الطيب منها والشرير .

ولو فهمت ثانياً معنى قولهم : إن ما قد يكون بمثابة السم لامرىء ما فلعله أن يكون سما لآخر

ثم عرفت ثالثا أن التسليم بالأوضاع القائمة فى مجتمع ما ، معناه أن هذا المجتمع بلغ ذروة الكمال فى أخلاقه ونظمه .

* * *

لا ياماليم . إن الرأى الذى سمعت رأى خاطىء .

فان من يمتهن حرفة الأدب إنما يضع نفسه — أراد أو لم يرد — موضع القائد لعقول الرجال . فعليه أن يحرص على أن يكون عقله مرنا ، متفتحا ، وقبل كل شىء متسامحاً . له أن يكون بوقا لكافة الآراء — فيما عدا الهوى المتعصب والتحيز البغيض . فما أساس مهمته إلا أن يرى العنصر الطيب فى سائر الأشياء . فان كان يخشى عدم الإدراك الكامل لشىء أو لفكرة ، فمن واجبه أن يلزم الصمت

إن الكاتب لا يملك فى مصنعه سوى آلة واحدة . هذه الآلة هى القدرة على الفهم . هى المشاطرة والحب . لهذا فقد وجب عليه إذا اتخذ مجلس الناقد — أو المحكم ياماليم — ألا يحاول تصيد الأخطاء ، فهذا جهد يسير ، بل أن يسعى باحثا وراء المزايا ، وهذا جهد نبيل . وإلا فما يكون حكم الناقد الذى لا يسلك هذا المسلك فى مزامير التوراة مثلا أو فى بودلير وأزهاره الشريرة ؟

الأدب ياماليم تعبير عن الطبيعة البشرية فيما تتخذ من صور متباينة . وهو فن رفيع حر من كل قيد سوى غايته اللذيذة السارة كالفنون الأخرى ، فيجب أن تجرى عليه قوانينها . ونحن لا نستطيع القول بأن للموسيقى غاية أخلاقية . وغير ذلك الرسم والنحت فانهما يهدفان إلى إثارة الابتهاج باللون أو الشكل .

فالذى يريد أن يحكم على الأدب ، عليه أن ينظر إليه بمنجاة من القيود الوضعية والزمنية ، وأن لا يتأثر فى حكمه بالآراء الموروثة أو المكتسبة ، وأن ينحى جانباً ما قد يخامر المحكم من معتقدات شخصية تفسد حكمه وتحول بينه وبين تعرف الحقيقة حينا ، وتذوق الجمال حينا آخر .

الذى يريد أن يحكم على الأدب هو من يجد فى نفسه القدرة على الإعجاب بصرامة أبى العلاء وتشاؤمه ، وبإباحية أبى نواس وإلحاده ، وبتقوى أبى العتاهية وورعه ، سواء بسواء . إنه من يملك الاهتمام بالجديد من الآراء ، وإن كان قد تربى وهو حدث على غذاء محفوظ — هذا هو الرجل المثقف .

كنت أحسب أن هذا جميعه من البديهيات التى لا يجادل فيها إنسان إنسانا . ولكنك يا مليم صدمتنى صدمة هزت كيانى ، وأتعست نفسى ، حتى أصبحت أخجل من أننى ولدت مصريا ، وإن كانت مصر الخالدة الحبيبة براء مما أخجلنى .

كل امرئ ، يامليم لايخلو من أهواء . ولكن كل أديب يجب أن يكون قادراً على التجرد من شخصه ، فهذه هى الميزة الأساسية للفنان . لهذا يقول أرسطو فى كتاب « الشعر » إن على الشاعر أن يتحدث عن نفسه أقل حديث ممكن وإلا فهو ليس بالمصور والمحاكى لأعمال الرجال كما يفترض فيه . وهوميروس هو المثال الواجب أن يحتذى فى هذا الصدد ، إذ أنه الشاعر الفذ الذى فهم حدود الدور الذى عليه أن يؤديه فى ملاحمه . فهو لا يقحم نفسه إلا اذا استدعته ضرورة خاصة ، بينما يوسع المجال لأبطال أساطيره من الرجال والنساء ، بعد أن يرسم لنا صورهم ويميز شخوصهم . أما الشعراء الأقل فهما لطبيعة فنهم ، فسرعان ما تتملكهم شهوة الظهور وتوازع الأنانية

فيفرضون أنفسهم أبطالا لملاحمهم ، وينصرفون عن المحاكاة وهى وظيفتهم الأولى .

فالفنان الحق هو من يوهب الملكة على التجرد من حدود نفسه . هذه الملكة التى يدعوها ألدوس هكسلى Self-detachment هى فى اعتباره المثل الأعلى الذى تهدف إليه البشرية ، كما يحدثنا فى كتابه « الغايات والوسائل » .

والكاتب هو أجدر الناس باقامة صرح هذا المثل فى شخصه . فهو العلم الذى فى رأسه النار ، وكل الأبصار تشخص إليه .

على أن الكاتب إذا لم تمكنه ملكاته من الوصول إلى هذه المرتبة من التجرد فى مؤلفاته ، فعليه فى القليل أن يصطنع هذه الصفة إن أراد الحكم على عمل فنى . يجب عليه أن يكون موضوعياً لا شخصياً ، وأن ينظر بعين الفن لا بعين الميل .

ولقد كنت أحسب أن الشيوخ أقدر من الشبان على النظر المجرد . فان طول العمر يتضمن كثرة التجربة ، والتجربة تمكن المرء من النظر إلى الأمور من نواحيها المختلفة . وهـــذه النظرة الشاملة توسع الصدر وتورث الحلم .

ثم قيل لى إن الأمر لا صلة له بالتجربة ولا ببياض الشعر أو سواده ، ولكنه أمر أصالة ، واتزان الملكات التى يصدر عنها الرأى . فكم من شاب حكيم يصل إلى الحقيقة بالطبع وحسن التوجيه ، وكم من شيخ أسير لا يسعه أن يدلى إلا بما قطّر فيه .

وأنا حين يستعصى على الأمر ويتعقد المشكل ، ألجأ إلى أرسطو أسأله

الحل والجواب . ففتحت كتاب « الخطابة » وقرأت الفصل الخاص بالشيوخ وطباعهم ، فعجبت أشد عجب . رأيت فيلسوف اليونان يعتبر الشيخ إنسانا متدهور الملكات . إنه ليس بالرجل الذى حوى جماع الحكمة كما كنت أتصور ، ولكنه مخلوق كاد يفقد بشريته بعد أن فقد شبابه ، فهو يتشبث بالخيوط القليلة التى تربطه بالحياة . ويبذل فى ذلك محاولات عصبية دون مراعاة للكثير من الاعتبارات الاجتماعيه . يقول أرسطو :

« إنهم عبيد الكسب . فهم يعيشون بعقولهم لا بعقائدهم . والعقل يستخدم فى اجتلاب النفع ، أما العقائد فهدفها الشرف .

« يغلب عليهم الجشع ، لعلمهم أن من السهل فقد الشىء ومن الصعب الحصول عليه . وهم يسعون وراء النفع قبل الشرف لأنهم محبون لأنفسهم »

وحبهم لأنفسهم يشتد كلما شعروا بقرب فقدانهم لها . ولعل هذه النهاية المحتومة الماثلة أمام أعينهم هى التى جعلت أرسطو يقول عنهم :

« إنهم متشائمون . فهم يفسرون كل شىء بمعناه السىء »

« إنهم متشككون . فان تجاربهم قد أضعفت إيمانهم »

« إنهم يحبون ويكرهون ، وليس فى نيتهم أن يستمروا فى حب أو كره وهم يشعرون بضعفهم . لذلك يقول الفيلسوف اليونانى :

« إنهم يلحقون الضرر بالآخرين لرغبة الأذى ، لا بدافع الصلف أو النكاية » .

« إن رحمتهم لا تصدر عن عاطفة إنسانية كعاطفة الشباب ، بل عن شعورهم بنقص نفوسهم واحتوائها على نفس الشرور . »

« فهم دائمو الشكاية لإدراكهم أنهم غير بعيدين عن الخطأ، لما يحسونه في نفوسهم من ضعف ، وهم يملأهم الذعر وخوف المستقبل ولذلك :

« فهم يعيشون بالذكرى لا بالأمل . فالذكرى من مخلفات الماضي الذي يختزنون من أحداثه الشيء الكثير . »

« فتراهم ممتلئين كلاما لأنهم يبتهجون باستعادة ذكرياتهم »

* * *

لا لا . إن ارسطو قد جانب الحقيقة هذه المرة ، أو أن يكون شيوخ اليونان في عهد أرسطو على خلاف شيوخنا . لعل الرجل إنما يتتبع سلسلة أفكاره المجردة ويرتب عليها نتائج نظرية . أما أنا فليس في استطاعتي أن أنتزع من قلبي شعور التقدير والاحترام لهؤلاء الأفاضل الذين عركتهم التجربة وهذبهم الزمن . إن الفتى يشرف على القمة حين يبلغ مبلغ الرجال، ويستقر فيها ويوطد أقدامه حين يصير كهلا ، فهل تراه يهبط عوداً على بدء من الجانب الآخر للتل إذا ما أدركته الشيخوخة؟ ما أتعسه من مصير ..

قلت لأرجعن إلى هوراس ، فهو قرين أرسطو في الحكمة ، ولعلي واجد لديه ما يؤيد ثقتي بمن أنا خليق أن أتلقى الحكمة والعظة على يديهم:

« ما أكثر المتاعب التي تصحب الشيخوخة وتزدحم حولها . فالشيخ إما كانز للمال يخشى أن تلجئه الضرورة إلى إنفاقه ، فهو يشفق على كنزه من أن يمس ، أو أن تراه يسلك مسلك الخائف المتزمت في جميع فعاله . إنه بطيء متكاسل ، ضعيف الأمل ، فاتر الهمة ، شديد الرغبة في أن يمتد به العمر ، كثير الشكاية ، لا بنى عن امتداح أيام صباه في حين ينهر الشبان وينتقد تصرفاتهم . إن الأعوام المقبلة تجلب لنا عطايا كثيرة ، بينما تسلب

الأعوام المدبرة جل ما أعطته لنا ».

عجبا ! ما بال الحكيمان قد تآمرا على هضم حقوق الشيوخ وتجريدهم من مزاياهم ؟ إنهما يجمعان على أن الشيخ كلما ازداد شعوره بدنو أجله استولى عليه خوف عصبي يدفعه إلى فعل ما لا يحسن به أن يفعل . فلأنظر فى علم النفس الحديث علني أدرك كنه هذا الخوف .

« كلنا يعرف ظاهرة الخوف من المجهول التى تصيب الشيوخ وهو توسطى العمر . ومع أن للكبار تجارب عن احتمالات الحياة أكثر مما للشباب ، والواجب — بحكم السن — أن لا يخشوا المجهول كما يخشاه أبناؤهم ، إلا أن أكثرهم مع ذلك يتميزون بالتحيز وحب المحافظة على القديم ، ويجزعون من كل جديد ، كلما تقدمت بهم الحياة . فإلام يرجع ذلك ؟

« يحس الإنسان كلما تقدمت به السن وأحاطت به معميات الحياة وأسباب شقائها بأنه مدفوع لأن يحتفظ لنفسه ببعض الحماية من شرور الحياة ، وهو غالبا ما يفعل ذلك باتخاذ فلسفة ما ، صاغها غيره من قبله ، وبالاعتقاد فيها كى تحميه شديد النكبات . . . فهى تعطينا إحساسا بالتأييد الخلقى حين يحتدم النزاع بين الحق والباطل ، ولا نستطيع أن نجابه الحقيقة صراحة .

« والرجل الذى يحمى نفسه بنسيج من الدين والفلسفة لديه خوف لاشعورى عميق من أن يسقط هذا النسيج ، ويبقى هو عرضة للهجوم . وإذا أثرت عقدة الخوف هذه فى شخص ما ، قابلك بالاستياء والغضب والرغبة فى الايذاء بشكل ما . . (١) »

(١) عن كتاب فى علم النفس للاستاذ محمود محمود . والكتاب ستنشره اللجنة قريبا .

عجبا ياملیم ! أليست هذه كلمات أرسطو بعينها : الرغبة فى الايذاء بشكل ما . . . ؟ وهى نفس ما عبر عنه هوراس بقوله : لا يني عن امتداح أيام صباه ، فى حين ينهر الشبان وينتقد تصرفاتهم . . ؟

لعمرك ياملیم لست أدرى . لست أدرى . .

* * *

قلت لك ياملیم إن وظيفة الأدب هى محاكاة أعمال الرجال الطيب منها والشرير . ففن الأدب هو التعبير . ومادته هى التجربة المحضة . ويجدر به ألا يكون غير ذلك من مختلف الصور التى تدلى إليها فى بلدنا هذا فى يومنا هذا . وإنه لمما يشعر النفس بمقدار تخلفنا عن الشعوب المتقدمة ، أن الكثيرين منا لا يدركون أن الأدب يغنى النفوس بمجرد ما يعرضه لها من تجارب يستخلصها الكاتب وسط بحر الحياة الدافق ، ويقدمها إلى الناس شاملة حية تتجمع فيها كل عناصر الكون .

هذا وحده كاف كل الكفاية . ولا يطلب من الكاتب أكثر منه أو أقل . فالتجربة الحقة عالم صغير فى ذاتها . وقد لا يكون القارىء قد طرق هذا العالم من قبل . وقد يكون قد جاس فيه دون أن يدرك كل الادراك . فاذا صهر لنا الكاتب هذا العالم فى بوتقة فنه ، ونفذ بضوئه إلى أغوار كهوفه المظلمة ، واستطاع أن يوصل إلينا هذه التجربة شاملة حية ، فان هذا العالم الذى يفتح لنا مغاليقه يصبح معروفاً لنا كلما صادفناه . ونحن بمعرفته أغنى منا لو قرأنا ألف كتاب فى المواعظ والحكم .

فأنت ترى ياملیم ، أن الأدب بوصفه تعبيرا عن تجربة ليس فيه سعى وراء المغزى والمعنى ، كما يقول الأستاذ أبركرومبى فى كتابه «قواعد النقد

الأدبى» . فاذا وفق الأدب فى أن يكون له وجود مستقل ، فإن التجربة التى يعطينا إياها تصبح بهذا ذات مغزى . وهذه وظيفة الأدب المثلى .

أما القول بأن وظيفة الأدب أن يعلمنا أمراً ، أو يقنعنا بصحة رأى، أو يهذب من أخلاقنا ، فهذا كله يخرج بنا عن فن الأدب . ومن الممكن أن يؤدى الأدب كل هذه الأشياء إن تضمنتها تجربة الأديب ، ولكنه لم يكن أدباً لمجرد أدائه لها . حسب الكاتب أن يقدم لنا تجربة حية ذات مغزى بنفسها . وحينئذ فلا حاجة بنا لأن نحكم عليها بأنها صادقة أو نافعة أو مهذبة .

بل إن الأدب الرفيع لا يتحقق إذا اتخذت من الشعر أو النثر أداة تعليمية مقصودة، أو وسيلة للحض على الخير . فان فعلت فقد خرجت بالأدب عن طبيعته ، وحشرت به فى نطاق « خالد وعده أبوه بأن يشترى له دراجة إن جد واجتهد . . . » . ولن نحكم عليك بالشنق إن قلت إن هذا أفضل من الأدب . ولكن المهم أنه ليس أدباً . فالكاتب إنما يعنى بتصوير الحياة الإنسانية كما هى . فهو يعرض الخير والشر على السواء، ويتناول العواطف السامية والوضيعة ، والطبائع الشاذة والمألوفة ، دون أن يكون درس وعظ وإرشاد ، أو يقف عند حدود الأخلاق إذ لا تلائمه دائما.

يقول الأستاذ الشايب فى مؤلفه الذى أسلفت لك ذكره :

« ألسنا نعجب بأشياء كثيرة ليست فاضلة ؟ نعجب بالقوة ضارة أو نافعة . نعجب ببابليون، والحجاج ، وزياد وإن كنا لا نحبهم ، فنسمح للأدب بتصوير حياتهم وأعمالهم فى إخلاص وعناية، ولو خرج عن حدود الفضائل أو بعث من العواطف ما بعث . وهذا يبرر لمدرسة أبى نواس

ما تناولت من معان وموضوعات ، وللجاحظ ما كتب من أدب مكشوف وحكى من قصص شاذ غريب »

ويضيف إلى ذلك قوله « فما كان للروائى أو الأديب أن يقف عمله ليسأل الأخلاق هل ترضى عنه أولا . فان فعل ، ضاقت فى وجهه مذاهب الإنشاء وضروب التصوير » .

لقد أخطأوا فى حق الأدب حين قرنوه بالأخلاق .

وأخطأوا فى حق الأخلاق إذ جعلوا وسيلتها الأدب .

ولكن خطأهم الأشد هو فى حق الشعب حين أفسدوا ذوقه الأدبى . إنه أيضاً أصبح لا ينظر إلى الأدب إلا بمنظار الأخلاق . وحسبك حتى تدرك هذه الحقيقة المرة ، أن تضع بين يديه قصة عبقرية ، أو أن تعرض عليه مسرحية بالغة الفتنة ، فتراه يمط شفتيه ويهز كتفيه ويقول : « ماهذا الهراء ! أين المغزى ؟ »

وسرعان ما أدرك أصحاب الكياسة والفطنة هذا الاتجاه الشعبى فنفخوا فى ناره ولعبوا على أوتاره . قدموا له كتبا تنتهى : « بهذا جزاء الظالمين » . وعرضوا عليه روايات مكتظة بشتى مصائب العالم مع التعليق الأخلاقى على كل مصيبة . وكلما نجحوا فى استدرار الدموع الغزيرة ، كلما عاد عليهم ذلك بالأرباح الوفيرة . وبأى حق تلومهم وأنت ترى الرجل يخرج من المسرح أو السينما فيضرب كفا بكف ويقول : « ياعالم ... ياسلام ... أما موعظة ... » ولكنك لا تسمعه يقول : « يالها من قطعة فنية ! » .

فاذا أردت أن تكون كاتباً ناجحا فى هذا البلد ياملیم ، فعليك أن تتخصص فى المغازى والمواعظ ، وياحبذا لو عرضت هذه الذخيرة الخلقية فى إطار من أعلام العرب .

عليك أن تبحث عن المغزى بأية وسيلة. من الوسائل وأن تضعه وحده نصب عينيك، ولو منعك ذلك — وسيمنعك حتما — من أن تدرك تلك الحقيقة الخالدة التى نبه اليها ستيفنسون الكاتب الانجليزى المعروف إذ قال:

« الإنسان بعيد عن الكمال. فهو إذا أمسك بالقلم، عليه أن يعبر عن خوالج نفسه وعن آرائه ومفضلياته. وخير له حينئذ أن يرمى بالابتعاد عن الأخلاق من أن يوصم بالبعد عن الصدق. فالصدق هو المورد الأوحد الذى يجب أن تصدر عنه كل كلمة يسطرها كل من يشرف نفسه بمهنة الكتابة. الصدق لا يخيف. ولعله لا توجد وجهة من وجهات النظر تصدر عن رجل عاقل إلا وتحمل فى ثناياها قبساً من نور الحقيقة. فان عرف كيف يربط هذه الحقيقة ببعض مشكلات الحياة، فلا بد أن يعود هذا الجهد على الجنس البشرى بفائدة ما. التحيز وحده هو العدو الأكبر للأخلاق وللحقيقة. وهو وحده الذى يخيف لأنه دليـــل الضعف. والضعيف لا يكون قائداً للعقول خشية أن يقال له: « ابدأ بنفسك أولا ».

فالفن يا « مليم » هو المحاكاة.

والأخلاق هى جماع التقاليد الموروثة والعادات المرعية

أما المحاكاة فيجب أن تكون صادقة لتنتج أدباً نافعاً.

وأما الصدق فلا صلة له بالتقاليد والعادات.

عند من يفهم

* * *

ذكرت لك ياماليم أن ما قد يكون بمثابة الدسم لامرىء ما، فلعله أن يكون سما لآخر. فهل تستطيع الأخلاق أن تكون دسما لجميع الناس؟

يجب علينا — كما نبهتك من قبل — أن نبدأ بالتعريف ، حتى لا نقع فى الخطأ .

ماهى الأخلاق ؟ إنها بمعناها المتعارف عليه ، مجموعة الأوضاع والأقيسة التى تحدد معنى الخير والشر فى مجتمع بعينه . فهى فى الصين حيث يقدم لك الرجل زوجه — إن صح هذا — كما يقدم لك الطعام ، غيرها عند العرب حيث يقدم لك الطعام دون الزوج .

فالأخلاق شىء نسبى محض ، يختلف باختلاف الزمان والمكان ، كما يختلف فى الزمان الواحد فى المجتمع الواحد باختلاف الأفراد إلى حد كبير . فلقد تنظر المومس إلى حرفتها كما ينظر الطبيب إلى مهنته . كلاهما لا يجد فيها ما يصدم نظرتهما إلى الأخلاق . ولقد تفرط المومس فى عرضها فلا تشعر بتأنيب الضمير . ولكنها قد لا تسمح لنفسها بالسرقة والخيانة ونكران الجميل ، بينما قد يسمح الطبيب لنفسه بهذا أو ببعضه . فكل منهما قد حاك لنفسه أخلاقا تلائمه .

فأنت ترى أن من المتعذر وجود نظام أخلاقى واحد يكون محل احترام جميع الناس فى مختلف العصور ، أو فى عصر بعينه . فطبائع الناس مختلفة ، وما يصلح لزيد لا يصلح لبكر . فالحوذى ، والمحامى ، والعالم والشاعر ، والقوّاد ، لا يمكن أن يضمهم مقياس أخلاقى واحد .

يقول الأستاذ ريتشاردز فى كتابه « قواعد النقد الأدبى » .

« الأخلاق عرض زائل . والفنان لا يستطيع أن يصل إلى كنه الحياة وحقيقة قيمها إن التزم حدود الخير والشر التى يعتنقها فرد أو مجموعة أفراد . فهو — فى هذه الحالة — بدلا من أن ينظر إلى تلك القيم فى الخلجات الدقيقة التى ينبض بها عرق الحياة ، يضطر إلى البحث عنها فى حدود

المبادىء المجردة وقواعد السلوك العامة . إلا أن الفنان خبير بتلك الخلجات الدقيقة فهى حقله ومجاله . فالأجدر به لذلك ألا يلقى بالا إلى المجردات والعموميات التى تبدو فى الحياة العادية فى مظهر خشن يستحيل معه أن يميز بين ماله قيمة ذاتية وبين ماهو من الأصباغ الاجتماعية .

حقيقة ياماليم ، إن رجل الأخلاق قد يتجاهل الفنان أو لا يوليه ثقته. ولكن لما كان السلوك السامى والعواطف النبيلة لا ينبعثان إلا من فهم استجابات النفس وانعكاساتها التى تبلغ من المرونة والعمق بحيث لا يمكن أن ينتظمها أى مبدأ أخلاقى عام ، لذلك سيظل قول شيللى من أن أسس الأخلاق يضعها الشعراء لا الوعاظ ، عنوان الحقيقة فى كل زمان ومكان . فالذوق السيء وخشونة الطبع ليسا بعض نقائص خلقية فى شخص قد يكون ممتازاً فى نواح أخر ، ولكنهما جذور شر لا تلبث أن تؤتى أكلها عيوبا وعورات .

تقول لى : « هذا رجل طيب ولكنه جلف »

فأقول لك : « إنه إن لم يكن شرا وبيلا ، فهو فى أحسن حالاته كمية مهملة لا نفع للبشرية منها » .

تقول لى : « هذا فنان حاد عن طريق القوم . . . »

فأقول لك : « يكفيه أن يبلغ من رقة الحس مبلغ النفوذ إلى أعماق الحياة ليكون أفضل الناس جميعاً » .

* * *

قلت لك ياماليم إن التسليم بالأوضاع المرعية فى مجتمع ما ، معناه أن هذا المجتمع بلغ حد الكمال فى النظم والأخلاق . ولا أظنك تختلف معى

فى أن هذا المجتمع لم يوجد بعد فى أية بقعة على بسيط الأرض . فلا زال الكتاب يكتبون ، والمصلحون يكافحون ، والوعاظ ينذرون بالويل والثبور ، فى كل أمة من الأمم .

إذا علمت هذا ، ثم علمت أن الأخلاق — بمعناها الشعبى الخاطىء — هى محاولة المحافظة على قديم التقاليد والأوضاع ، بقى عليك أن تعلم أن الإصلاح هو نقد هذه القيم ومحاولة استبدالها بما هو أنفع . فان كانت الأخلاق فأراً فالإصلاح هراً . وإن كانت المحافظة على القديم تعتبر عملا أخلاقياً ، فالاصلاح بطبيعته عمل غير أخلاقى لأنه يناهض قواعد السلوك المتوارث والعادات المرعية .

ولكن يجب أن تفهم ياماليم أنه ليس من الضرورى أن تنطوى الآراء أو الأعمال غير الأخلاقية على إثم ، مادامت تصدر عن رجل مخلص حكيم . وعلى النقيض من ذلك يعتبر كل تقدم فى عالم الفكر أو تطور فى التقاليد عمل مخالف للأخلاق ، حتى يحمل الغالبية على اعتناقه . لهذا يقول برنارد شو إنه لا يمكن المغالاة فى أهمية حماية كل ماهو غير أخلاقى بحماس وصبر ضد هجمات من ليس لهم أقيسة خلقية سوى تلك الأقيسة التى تفرضها التقاليد . والذين يعتبرون كل هجوم موجه ضد العادات القائمة هجوما ضد المجتمع ، وضد الدين ، وضد الفضيلة .

وليس من وظيفة الناقد أو المحكم أن يحمى الأخلاق ، فالقانون لم يترك أى عمل يمسها من قريب أو بعيد دون أن يفرض على مرتكبه العقاب الصارم ، كما أن من ورائها قوة الرأى العام التى تؤيدها وتشد أزرها بعنف يفوق سطوة أى قانون . فالأخلاق محمية بغير تدخل المحكم . أما الناقد الذى يدعى حماية الأخلاق ، فهو كالطفل المسافر الذى يدفع حلقة

النافذة ليضق على نفسه شعور المتسبب فى انطلاق القطار بسرعة ستين ميلا فى الساعة . أيها الناقد إن الطفل ليس هو السائق . . . ولا أنت .

لعلك فهمت الآن ياماليم أن اللا أخلاق — وليست الأخلاق — هى التى فى حاجة إلى الحماية . وأن الأخلاق — وليست اللا أخلاق — هى التى فى حاجة إلى الكبح . فبفضل أثقال الخمول والخرافات التى توقر ظهر كل رائد ، وبفضل سوء القصد ، والسوقية ، والأحكام المبتسرة ، التى تهدد كل مصلح ، كانت الأخلاق دائما سبباً فى شتى أنواع الاضطهاد التى يحدثنا التاريخ بأمرها .

وليس الاضطهاد أو الاستشهاد مع ذلك الا توافه إذا قورنت بالضرر البليغ الذى ينجم عن تعويق تقدم الفكر البشرى . وتستطيع أن تدرك قدر هذا الخطر ياماليم لو تصورت مبلغ مايصيب المدنية من ضرر لو منعت آراء جاليليو وداروين وهكسلى وسبنسر وكارليل والمعرى من أن تصل إلى أفهام البشر . إنها جميعاً آراء غير أخلاقية طالما آذت وآلمت كثيراً من الرجال الأتقياء الطيبين . ولك أن تتصور مدى الآثار المدمرة لهذه النظرة الرجعية لو طبقت على خروج محمد عليه السلام على معتقدات أسلافه وتحطيمه لأصنامهم فى سبيل نشر دين الله الواحد الأحد . أو لو طبقت على ما قد كان يعتبر كفرا صارخاً وإلحاداً ما بعده إلحاد — ذلك الذى حدث به عيسى بن مريم من أنه ابن الله . وأن الله ابن الإنسان . فمهما يبلغ الضرر الناشىء عن التسامح فى أمر الرذيلة ، فهو لا يمكن أن يقارن بالنكبة الكبرى للبشرية لو نجح أصحاب التقاليد فى القضاء على هذه الديانات والفلسفات .

ولكن عجلة الزمن تدور . فما يلبث الكفر أن يصير إيماناً ، ويستحيل

غير الأخلاق إلى فضائل محترمة . ولقد لاقت المسيحية والإسلام من الأهوال ، ما تلاقيه النزعات الإصلاحية الآن . أما اليوم وهما ديانتان عريقتان فقد أصبحت الاضطهادات ترتكب باسمها ، وهما منها براء .

وإنك لتعجب معى ياملیم لمسلك هؤلاء القوم . فان مؤمن اليوم لم يتعلم شيئاً من ضروب الكوارث التى حلت بأسلافه الذين استشهدوا فى سبيل دعم الدين الجديد . ها هو لايزال يهاجم كل خطوة تتخذ فى سبيل التقدم البشرى ، كأنما الأفكار والتقاليد لم تتغير منذ بدء الخليقة قط . فلو ترك الأمر لأصحاب التقاليد لأدوا بالعالم إلى العفن والانحلال فى حقبة لاتتجاوز الحقبة التى ينتشر فيها دين أو فلسفة جديدان .

فالعفن والانحلال هما العقوبة القاسية التى تفرضها الأخلاق على المجتمع الذى يتمسك بقواعدها بعناد أو بغباء .

إيه أيتها الأخلاق . . . كم من آثام ترتكب باسمك !

لقد وضعت الديانات الأسس الأخلاقية للبشر . غير أن إدراك هذه الأسس يتوقف على مدى فهم الناس لها ، وما تستدعيه فى نفوسهم من معان . وما الذى يوسع من مدارك الناس غير الأدب ؟ هذه وظيفته وتلك علة وجوده .

إذن فلتحفظ عن ظهر قلب ياملیم كل كلمة قالها «شيللى» الشاعر الملهم عن أثر الأدب فى الأخلاق :

« إن للأدب أثراً خلقياً بيناً وإن لم يناد بمذهب أخلاقى خاص . فالأخلاق ماهى الا الحياة الفكرية فى أسمى وأدق معانيها . وحياة الفكر ونشاطه فى قوة خياله التى يغذيها الفن . وفى الشعر يعيش المرء فى عالم يشتد فيه إحساسنا بأن لكل شىء غرضاً ، وأن للحادثة قوة خلقية . وما أعنيه

هو أن للعالم مغزى مباشراً خاصاً به ، من غير إشارة الى أية قاعدة أو قانون خارج عنه » .

إن من يحب الأدب حقاً ، يؤمن بتلك القوى الخارقة التى ينفثها فى النفس ، ليحس بهذه الحقائق الخالدة تجرى فى عروقه مع الدم ، دون أن يحدثه بها محدث .

كيف تعترض الأخلاق طريق الأدب ، وهو أسمى أنواع النشاط الإنسانى !

إن قلت هذا فالأدب براء منك ، ولم تكن فى يوم من الأيام أديباً .

أما إن كنت قد كفرت برسالة الأدب ، فلك أن تفعل ماتشاء .

وهنا ياملبم أرانى مضطراً لأن ألقى عليك درساً فى الأخلاق فحسب ، وهو درسى الأخير .

* * *

درسى فى الأخلاق

اعلم ياملبم أن رأى أرسطو وهوراس فى الشيوخ ليس إلا بعض عجائب هذه الدنيا المليئة بالمتناقضات .

ولقد سمعت أن الفقير اذا أثرى ، تنكر لمعظم مثله العليا — ان لم يتنكر لها جميعاً — وصار أشد تكالباً على المال ممن كان يتقدمهم وهو فقير . وهذا عجيب ، إذا راعيت أن الغنى غير محتاج .

وسمعت أيضاً أن المغمور إذا اشتهر أصبح كالمسعور ، فهو فى حاجة دائمة إلى بطانة من الأتباع ، تغمره بالزلفى والمديح والمداهنة إلى أن تفسد نفسه فساداً يجعلها ترتاح لزيفهم ، وتتأذى من نقد المخلصين ونصائح الشرفاء . وهذا عجيب أيضاً . فالأخلق بصاحب الشهرة أن يعرف قدر نفسه

ومع ذلك فلقد رأيت ما هو أعجب وما لا يقدر عليه سوى مصر أم العجائب . فأنا أفهم أن الكاتب الناشىء يحسن به أحيانا أن يكتب عن أعلام التاريخ حتى تغطى عظمة الموضوع على ضعف الصناعة وقصور الخيال . فاذا ما اشتد ساعده واستكمل عدته ، تحتم عليه أن ينزل إلى معترك الحياة ليحدثنا عن الإنسان . الإنسان العادى البسيط ذى النفس البشرية التى لا تسمو إلى مرتبة الملائكة ، ولا تنحدر إلى هوة الشياطين . يحدثنا عن أحاسيسه وآلامه وآماله . ويحدثنا عن العالم الذى نعيش فيه ونكد فى جنباته إما نحو المجد أو إلى الهاوية إننا نريده أن يجلو لنا الكثير من حقائق دنيانا حتى نترسم طريقا فيه سعادتنا ورفاهة وطننا . ومن حقنا أن نطلب منه ذلك ، وإن كنا نعلم مقدار ما يتطلبه هذا العمل من جهد شاق يزهق الروح . فالإنسان العادى أصعب الأشياء فهما لأنه خلو من أية إشارة مميزة .

ومع ذلك فقد وجدت ياماليم أن الكتاب فى مصر ينتهون بما يبدأ به الصغار ، فيكتبون عن العظماء والأعلام والشهداء ، بشرط أن يكونوا من فئة بعينها .

.

ماعلة ذلك ياماليم ؟ أنت لا تدرى الجواب ولا أنا . فلنستمع إلى الدكتور محمد مندور فى كتابه « الميزان الجديد » إذ يقول :

« مابال معظم كتابنا قد انتهوا بالكتابة عن محمد ؟ أهو إيمان من يشعر باقترابه من اليوم الآخر ؟ ذلك مانرجوه . ولكن ثمة أمر لا شك فيه ، هو أننا قد وصلنا إلى درجة التزمت »

وعليك أن تعلم ياماليم أن الدكتور مندور رجل جم الأدب ، إلى جانب أنه ناقد أريب يعرف كيف يتخير ألفاظه ، ويبقى عليك أن تفهم.

عليك أن تفهم ياماليم أن مهنة الكتابة سلاح ذو حدين . ففى وسع الكاتب أن يسبغ خيراً عميما على المجتمع الذى يعيش فيه ، وفى وسعه أيضاً أن يلحق به أبلغ الضرر . فهو قد يكتب ليظفر بالرضا الشعبى ، أو ليلهب غرائز الإنسان الوضيعة ، أو ليسلى هذا وذاك ممن يسعون لقتل الوقت فى يوم قائظ . كما أنه قد يكتب بعصارة قلبه محاولا جهده أن يهذب ويثقف ويفتح مغلق العقول .

ولعل الكاتب أن يرتدع ويشعر بعظم المسئولية الملقاة على عاتقه إن علم أنه فى الحقيقة من أهم العناصر التى تكون الرأى العام ، إن لم يكن أهمها جميعا . ولو علم أيضاً أن من الناس من يتخذه قدوة يتلمس بها طريقة نحو المثل العليا . فهذا الشاب اليافع الذى تخرج فى معهده وشيكا لا بد أن تصدمه خشونة الحياة إذا ما نزل الى معتركها ، فتراه يبحث كالمعتوه عن وسيلة تعيد اليه ثقته بنفسه وبصلاح النفس البشرية .

الى من يلتجىء هذا المسكين ؟

الى المثل الصالح والكتاب المفيد . فهما وحدهما اللذان يستطيعان أن يردا اليه إيمانه بالمثل العليا ، وأن يحصناه ضد كل تأثير سيء .

فان كنت تعتقد معى ياماليم أن الإيمان بالمال هو وحده المسيطر على عقول شباب هذا الجيل ، فعلى من يقع الوزر ؟

على من من كان فى وسعهم أن يقدموا المثل الصالح فلم يفعلوا ، وعلى من يقدرون على تأليف الكتاب المفيد، ففضلوا الكتاب المربح . وإلا

فكيف تأمل أن تغرس بذور العدل والصدق والأمانه فى نفوس الشباب وأنت ترى الكتاب يقرون الزيف الشعبى ، بل ويمارسونه !

وإنه لما يتعس النفس حقا أن نرى هذه الروح قد امتدت فشملت كتابا من الشباب . لقد كان فيما حولنا زملاء نعتز بهم ونفخر بجهودهم ، فاذا بهم يغتصبون منا اغتصاباً . لقد نظروا إلى أساتذتهم فعرفوا الطريق القصير . ولقد يقال عنهم إنهم حكماء . ولكنهم عندى ضعفاء . (ولتعذرنى ياملیم إن لم أكن جم الأدب كالدكتور مندور) لقد خافوا الطريق الطويل ، وفاتهم أنه وحده الطريق المأمون — طريق السلامة .

لعلهم ما كانوا ليسلكوا طريق الندامة لو استمعوا إلى صوت ستيفنسون إذ يقول :

« فى مكنة الكاتب أن يتعيش من فنه . وهو إن لم يتأت له أن يعيش حياة البذخ التى تتاح لأصحاب المهن الأخرى ، فليس مما يضيره أن تكون حياته أقل رفاهة ، فهى أبهى لوناً . إن الكاتب الأمين هو من يدرك أن طبيعة العمل الذى يزاوله طوال يومه أنفع لسعادته من نوع الطعام الذى يقدم له فى المساء . فمهما تكن مهنتك ، ومهما تدر عليك من ربح ، فأنت تعلم أنك مستطيع دائما أن تستزيد هذا الربح بالغش . إن الفقر يعنينا جميعاً ، ويتعسنا إلى حد . ولكن هذا يجب ألا يؤثر فى طريقة أدائنا لمهنتنا . والكاتب الذى لا يربح إلا القليل ، يجدر به أن يتعزى بأنه إنما يحصل على هذا القليل بجدارة وطمأنينة نفس ، وبأنه يتخذ مهنة تتيح له تأدية أجل الخدمات ، حين يحمى الضعيف المهضوم ، وحين يدافع عن الحقيقة بقدر ما يستطيع »

ياملیم . . .

إننا على أبواب تطور عظيم . فالعالم اليوم ينبض باحتمالات بعيدة

الأثر. وواجبنا الأسمى تمييز الصالح من الطالح، والبراق من الأصيل. فخليق بكتاب ومفكرى أمة كأمتنا أن يكونوا قادة لا مقودين. فنحن فى بطن أزمة حرجه لا تنفك الا بتقرير المصير. فهل نقف على الشاطىء لتمتدح المقبل ونهجو المدبر كدأبنا منذ سنين وسنين ؟

حاشا وربك أن يكون...

إن مصر اليوم تريد عدة كاملة وذخيرة موفورة. ومن غير كتابها ومفكريها يرسم لها الطريق؟ فهل نتخلى عن واجبنا حيال تلك الأم العبقرية التى شرفتنا كثيراً ولم نستطع أن نشر فها أبداً...

هذه هى الفرصة يا مليم. عليك أن تكدح حتى تقع، وأن تهدم حتى تقتل. عليك أن تطرح عن نفسك السخافات والترهات وقديم الأقاصيص والحكايات، ولتنزل من بعد إلى خضم المعركة، فمن ورائك شعب بأسره يسند ظهرك، شعب يرغب فى الحياه بعد أن سئم السموم والمخدرات التى تدس له فى بطون الكتب المزوقة، والخطب المنبرية التى لا تنتهى. فحرام أن نقسو على شعبنا أكثر مما قست عليه الناس والأيام، وأنا أرى أن حال مريضنا قد أخذ فى التحسن. فالدفء يسرى فى الأطراف والدم يجرى إلى القلب. فهل لديك حقنة الكافور يامليم ؟

لن تكون لديك إلا إذا اتبعت نصيحتى. ونصيحتى يامليم أنقلها اليك عن لسان الكاتب الفرنسى دبهامل :

« قاوم لأنك ستنفرى وحافظ على هذا المسلك زمنا طويلا .. »

° ° °

هذه يامليم آراء فى اللغة والأدب سقتها إليك لتتعظ — فأنت من شعب درج على حب العظة والعبرة. وليس لى من فضل فيما جرى به قلمى سوى فضل الناقل والمترجم. وهى كما ترى آراء على هامش الأدب، قد

يفقرك جهلها ، دون أن تغنيك معرفتها .

ولكن اصبر حتى تظهر قصة «السراب» لزميلنا الأستاذ نجيب محفوظ، فهو مزمع أن ينزل بك فى مقدمتها إلى الصميم . ستعرف ماهى القصة، وما طرائق علاجها والأهداف التى انتهت إليها . وأنا أعلم أن كثيرين غيرك ينتظرون فى لهفة لأن أغلبهم لا يعرفون .

* * *

آن الأوان أن أمسك ياماليم :

وآن الأوان أن تظهر على المسرح ، فاننى أسمعهم يدقون .

ولكن قبل أن أتركك تسعى ، يتعين على أحميك من نقد من قد يجد فى صورتك ألوانا غريبة ، أو يرى فى مسلكك أفعالا شاذة ، فأحدثه بما قال أرسطو فى كتاب « الشعر » :

« إن مهمة الفنان ليست التعبير عن الأشياء كما وقعت ، بل التعبير عنها كما يجب أن تكون ، وذلك فى حدود الممكنة ، ووفقا للنتائج المحتملة أو الضرورية فان ما يميز الشاعر عن المؤرخ ليس أن أحدهما يكتب شعرا والآخر نثرا ، بل أن أحدهما يروى الواقع ، والآخر يحدث بما كان من الممكن أن يكون . لهذا كان الشعر أداة فلسفية فائقة ، لا يستطيع التاريخ أن يسمو إلى آفاقها »

وأحدثه أيضا بقول أجاتون :

« من المحتمل — على وجه عام — أن تقع أشياء كثيرة على خلاف المحتمل »

والآن فلتنطلق ياماليم الى حيث تريد لك الأقدار .

ولعلك مشرفى . . .

الفصل الأول

قال مليم

— بلا جدال

ثم حمل عـــدته وانطلق فى الطريق دون التفات . وهو يضرب الأرض فى عزم وإصرار ، كأنه مقدم على فتح عكاء . أما رفيقه فقد وقف يشيعه بابتسامة ساخرة . فلما أن صار منه على مرمى حجر صاح فى إثره قائلا :

— سنرى . . .

وقهقه ضاحكا ثم انكفأ إلى طريق غير الطريق

* * *

بلغ النقاش أقصاه بين خالد وأبيه كعادتهما كلما دار بينهما حديث — أى حديث . ومهما يكن الموضوع تافها فانه يتطور على الدوام إلى اصطدام عنيف بين الأب وابنه . أما الأب فداهية مراوغ ، يلذ له شعور القوة الذى يدفع بالقط إلى العبث بفريسته قبل إلتهامها ، فهو يطيل من النقاش ، ويدير دفته إلى وجوه من الرأى يعرف أن ابنه يضيق بها ذرعا ثم يرقب فى سعادة أثيمة ما يختلج فى صـدره من ثورة ، وما يلوح على وجهه من اضطراب وضيق .

وقد كان . فما لبث أن أربد محيا الفتى فانفجر يرد على تساؤل أبيه قائلا:

— بلا جدال

ثم انثنى إلى حجرة المكتب وأغلق من خلفه البـــاب . ولو انتظر

هنيهة لرأى بسمة السعادة الأثيمة ترتسم على شفتى أحمد باشا خورشيد ، ولسمعه يتمتم قائلا :

ـ سنرى ...

واستوى الباشا فى وقفته ، وأبرز صدره ، ثم أطلق من حنجرته سعالا أجوف ، اعتاد اطلاقه كلما هم بمبارحة المنزل ، كأنما يفعل ذلك ليشعر أهل الدار بأن سيد الأسرة على وشك الانصراف . ولعله يعتقد أن هذا السعال يرهبهم ويخيفهم ، فهو يردده حين يعود إلى الدار ، كما يردده فى كل مناسبة تستدعى الاخافة والارهاب

وما أن سمع الخادم سعلة الرحيل حتى هرول إليه فناوله عصاه ، ثم سبقه إلى الباب ففتحه ، ووقف وراء المصراع المردود وقفة عسكرية التزمها إلى أن اجتاز رب الدار الباب .

ولما أهل أحمد باشا على حديقة قصره أسرع البستانى ومساعدوه فالتظروا فى صف طويل مر به متصفحا ، وقد علت وجهه تقطيبة العظمة. وحين وصل إلى سيارته الحكومية ألفى الجندى منتصبا إلى جوار بابها المفتوح وقد شد جسمه الفارع مؤديا تحية عسكرية مهيبة .

بهذا انتهى عرض الصباح . وانتقلت سيارة أحمد باشا خورشيد إلى مقر عمله حيث يقوم عرض آخر .

* * *

بعد ساعة من مبارحة الباشا لمنزله كان مليم يصعد درجات القصر المنيف وهو مضطرب وجل. وبعد تردد طويل دق الجرس فانفتح الباب وبرز منه خادم نوبى أخذ يتفرس فيه ساعة ثم قال .

ـ ماذا تريد ؟

فاجاب مليم متلعثما :

— أنا صبي النجار جئت لأصلح النافذة

نظر الخادم بازدراء إلى هيئة مليم الرثة ثم قال وقد لوى شفته العليا

— ولم لم يحضر معلمك بنفسه ؟

— انه مريض اليوم ، وأنا أستطيع أن أقوم بالاصلاح

انطلق النوبى يعدد نقائص « أولاد العرب » وينسب اليهم شتى المثالب التى يحويها معجم لغته الفريدة ، وأخيراً أمر مليم بأن ينتظر فى الحديقة حتى يستدعيه .

جلس مليم تحت شجرة وارفة ووضع عدته إلى جواره ثم أطلق لخياله العنان .

لاشك أن نهارة هذا لم يبدأ بدءا حسنا — هذا النهار الذى علق به الآمال الكبار . انه أول يوم يوكل إليه معلمه أداء عمل بمفرده . ولكن الحياة كفاح وعراك . وليس له أن ييأس أو يتبئس بعد أن وطد عزمه على تطليق حياة الكسل والشرود . عليه أن يؤمن بقدرته على شق طريق العمل الشريف .

غير أن هذه الصدمات كانت تؤذيه وتدمى شعوره . فهو قد تربى فى أحضان الحرية المطلقة التى لا تعرف أى قيد — حتى قيد القانون . ولم يمض على تركه لحياته الأولى سوى شهرين لم يكتملا بعد .

هناك فى حارة « حوش عيسى » كان يبرح دار أبيه فى الصباح ، مصطحبا كلبه النحيل « فيدو » فلا يئوبان قبل منتصف الليل . هذا النمط من الحياة قد اقتبسه من أبيه ، غير أن والده لم يكن يصطحب فى تجواله كلباً ما . وهو نمط من الحياة لا يربطهما بأى قيد منزلى . فلم يكن الأب بالنسبة إلى مليم معتبراً رب أسرة . ولم يكن مليم ابناً يعتمد فى معاشه على أبيه ، أو يدين له بالطاعة .

إلا أن هذا الإستقلال لم يكن مطلقا . ففي فترتين من فترات النهار يشترك الأب والابن في عملي يعتبر المورد الأساسي لرزقهما .

لم يكن لأبي مليم اسما كأسماء بقية الخلق . وبفرض ان كان له هذا الإسم ، فانه لم يعد معروفا لما درج عليه الناس من تلقيبه « بمجذوب حوش عيسى » . وغاية ما يعرفه الناس عنه ، أنه كان يعمل في زمن ما في جريدة كاسدة ، لعله كان يكتب مقالاتها الإفتتاحية وسائر أخبارها . حقا أنه لم يكن يعرف من القراءة والكتابة إلا ما يعرفه « كمساريه » الترام . مضافا إلى ذلك معلومات غريبة عن السياسة ، ونوادر مختلفة عن الزعماء . وكانت هذه العدة كافية كل الكفاية ، مادامت هذه المقالات لا يقرؤها أحد ، ومادامت تؤدي الغرض المقصود منها وهو ملء ما يتبقى من صفحات الجريدة ، بعد شغل الجزء المخصص للاعلانات القضائية . فقد كانت الرسالة القيمة التي تؤديها هذه الجريدة للشعب المصري ، هي أن تطلع عليه كل صباح بهذه الاعلانات ، فتنمي من ثقافته الاجتماعية ، بما تسوقه إليه من معلومات ثمينة عن بيع العجول والأبقار ، ونزع ملكية الأرض والعقار .

ولم تكن مهمة « مجذوب حوش عيسى » مقصورة على التحرير ، بل تتعداه إلى التوزيع كذلك — وهو العمل الذي جعل منه المجذوب فناً جميلا . فبالرغم من أن جريدته لم يكن بها شيء يقرأ ، فقد كان ينجح في توزيع بضع عشرات منها ، بما أوتي من لباقة خلابة ، وكياسة لطيفة ، سرعان ما تلين لهما القلوب ، فتظهر القروش . ولكن الجريدة ما لبثت أن غابت عن الوجود ، بمجرد سقوط الوزارة التي كان يؤيدها صاحب الجريدة . حينئذ لم يكن غريبا أن يترك المجذوب مهنة التحرير ، ويقصر عمله على فن التوزيع . ولكنه أصبح يوزع بضاعة أخرى .

* * *

— الماء والخضرة والوجه الحسن...

بهذا النداء كان يدوى صوت «مجذوب حوش عيسى» كل ضحى وكل عصر، حين يهل على قهوة مشهورة بحى سيدنا الحسين. وينزع رواد القهوة مباسم نرجيلاتهم من أفواههم، ويلتفتون اليه، فيجدونه واقفاً على رأس الطريق، وقد ارتدى جلباباً ناصع البياض، وفى يده سلته، وإلى جواره مليم. كان الرجل شديد العناية بهندامه، فله فى كل يوم جلباب نظيف غير جلباب الأمس. وكان إلى ذلك يصبغ شعر رأسه العارى، ويتضمخ بعطور ساطعة، ويحلى أصابعه بخواتم ذهبية. انه دائماً كالعروس فى يوم زفافه. أما مليم فلم يكن يهتم بما يلبس، وإن كانت له أبهة خاصة به تجعله محبباً إلى العين.

وبعد أن يطلق الرجل نداءه ويوجه اليه الأنظار، يبدأ فى المرور على موائد القهوة، فان صادفه جمع من الفتيان، انحنى عليهم متمتما.

— بان الحسن وأشرقت الأنوار. هذا الجمال الباهر بزينة الورد العاطر.

ويلتقط من سلته وروداً يوزعها عليهم، أو يرشقها بيديه فى ملابسهم. وقد يحلو للفتية أن يستبقوه بعض الوقت، فيسأله أحدهم معابثاً.

— ما لنا اليوم لا نسمع منك أخباراً

وهنا يشرع المجذوب فى الكشف عن أحدث أسرار السياسة المصرية. فيتحدث عن مقابلات تمت بين هذا القطب وذاك. ويعيد حديثاً مفصلا يزعم أنه دار بينهما، وأنه بلغه من مصدر موثوق به حضر هذا الاجتماع.

ثم ينحنى على الفتية مستحييا ويقول

— هل يتكرم السادة الأماجد بقرش لمليم؟

هذا حاله مع يانع الشبان . أما الرجال والكهول فله معهم حديث آخر ينتهي عادة بأن يدس فى أيديهم لفائف صغيرة من ورق مفضض

كان المجذوب سعيداً بهذه الحياة التى تتيح له بسطة ورخاء ، دون أن تكلف جهداً يذكر . وكان مليم راضياً عنها كذلك ، لأنها تيسر له حرية مطلقة ، وتعفيه من مزاولة الأعمال المرهقة التى يضطر إليها أمثاله من الصبية . شد ما كان يسخر ويرثى لهؤلاء المساكين الذين يرسلهم آباؤهم وراء عربات متهالكة ، عليها بضاعة هزيلة من الترمس أو الفول السودانى ، فيجوبون بها الطرقات فى الحر اللافح وفى البرد الذى يجمد الأطراف ، ثم يرجعون فى نهاية المطاف بدريهمات قليلة ، لا تشبع معدة ولا تكسو جسداً . هذا إلى ما يصيبهم عادة من عنت رجال الشرطة ، واستبداد اللوائح والقوانين ، التى كأنها لم تسن إلا لسد كل منفذ يمكن أن يجد فيه الفقير باب رزق .

لهذا كان حتما على الفقير — فى تصور مليم — أن يخرج على القانون وأن يعصى ما تقضى به النظم واللوائح . أما الغنى فانه يملك أن تكون له صحيفة تحقيق شخصية خالية نظيفة . وكان مليم يشعر بالإزدراء والثورة معاً ، كلما مر بأحد أقسام الشرطة ، فوجد صفاً طويلا من عربات الباعة الجوالين ، الذين ساقهم رجال الشرطة ليسجنوا أو ليغرموا جزاء سعيهم وراء رزق مشروع .

فاذا لم يكن هذا السعى المشروع ليعجب رجال الشرطة ، فإن لكل صفحة وجهاً آخر . وقد كان والد مليم من أنصار هذا الوجه الآخر ، مما جعل الابن شديد الإعجاب بأبيه ، يضعه من دنياه موضع المثل الأعلى . غير أن هذا الوجه الآخر يتطلب من أتباعه شدة الحرص ، وسعة الحيلة

وإلا أطل رجال الشرطة بوجوههم . وحينئذ تكون النكبة كبيرة والطامة مضاعفة .

وان بعض الشرطة هم أيضاً من أنصار الوجه الآخر . وهؤلاء لهم أيد ميسوطة يجب أن تنقبض على شيء . وكان والد مليم يحرص على مصافحة هذه الأيدى بين حين وحين . إلا أنه حدث فى مرة أن نشب خلاف بينه وبين أحد المخبرين ، كان من نتيجته أن أودع المجذوب السجن ، فى ظل تهمة عريضة نكراء ، تضمن له البقاء فى ضيافة رجال الأمن مدة كفيلة بزيادة وزنه ، وبضياع أثر الأصباغ من رأسه وشاربه . وهكذا وجد مليم نفسه فى أحد الأيام بلا عائل يعوله ، وبلا عمل يمسك به رمقه . وكان لمليم صديق من طرازه يدعونه « بندق » ، فظل يتداول معه الرأى ليالى طويلة فى أمر مستقبله . وكان من رأى بندق أن يتم مليم رسالة أبيه فى جلب السرور إلى رؤوس الناس بالورد والريحان . إلا أن مليم كان يشعر بأن نفسه قد عافت على هذا النمط من الحياة ، وأحس — وهو لا يزال فى عنفوان الشباب — بنوازع قوية تحبب إليه الكد والنصب فى سبيل عيش شريف مستقيم . وكان حينئذ يكاد يبلغ مبلغ الرجال . وشعر فى أحشائه بقوى مضطربة ، لم يكن له عهد بها . فظن أن هذه القوى لن يكون لها مجال للتحقق والبروز إن استمر يطلب العيش من طريق « قرش لمليم أيها السادة الأماجد » . كفاه هذا الوجه الآخر ، وليجرب وجه القوانين واللوائح .

لهذا انعقدت نية مليم على مزاولة العمل الشريف . وفى ذات صباح لقيه صديقه « بندق » يمشى مهرولا لا يلوى على شيء ، وهو متأبط عدداً وآلات . فعدا بندق خلفه واستوقفه متسائلا :

— ما هذا يا « مليم » ؟

— انها « عدة الشغل »

— أذاهب لتحطيم باب ؟

— بل سأصلح بابا . انى اعمل الآن فى مصنع عمى

— وماذا يشتغل هذا العم ، ياعم ، يا عم ...

— نجار

فغر بندق فاه دهشة . وظل فاغراً فاه ساعة طويلة وهو يتمتم

— نجار ! نجار ! أتصبح نجاراً ؟ حقا ؟ لا ، لا ... لا أصدق .

هز « مليم » كتفيه واستأنف سيره وهو يقول

— صدق أو لا تصدق فلست بمهتم

— وهل تظن أنك ستظل ... نجارا !

التفت « مليم » إلى صديقه وبريق الغضب يلمع فى عينيه ، ثم قال له مهدداً .

— ما للنجار ؟ ألا يعجبك ؟

فصدق بندق على قول صديقه ، وقال وهو يغالب الضحك

— صحيح . ما للنجار ؟... ولكن هذا العمل الشريف ... أقصدهل يستمر طويلا ؟

فصاح مليم فى حماسة .

— بلا جدال .

أما « بندق » فقد قهقه ضاحكا وقال .

— سنرى ...

وانكفأ إلى طريق غير الطريق .

الفصل الثانى

ما أن استقر المقام بخالد حتى تهالك على مقعد وثير ، وأطلق لفكره العنان ....

ما بال الفتية من أترابه يروحون ويغدون ، يعملون ويضجون ، أما هو فقابع فى جحره لا يبرح ولا ينشط ؟ إن طول تأمله فى أمر نفسه قد جعله يشعر بأنه نصف إنسان . فالآدمى حيوان ناطق وحيوان إجتماعى فى آن . أما هو فإن لم يكن قد فقد ملكة النطق بعد ، فإنه يحس بأن تيار الحياة قد لفظه إلى شطر مهجور ، فلم يعد فرداً فى مجتمع ، ولكنه فرد فى معزل .

كيف تم هذا ؟ أنشأ هذا الحال المحزن نتيجة خطأ منه ، أم أنه اضطر إليه إضطراراً ؟ كان كلما عاوده هذا السؤال ، ألقى عبء الخطأ على المقادير ، واعتقد أنها ظلمته أشد الظلم . إلا أنه أدرك أخيراً أن إتهامه للمقادير ليس سوى الغبار تثيره النفس لتستر به ضعفها ، ولتسوغ خطأها . إنه يعلم الآن أن الطبيعة لا تنتج آثارها إلا بالمفاعلة والتبادل فى نطاق دائرة مشئومة . فان كان المجتمع قد نبذه ، فلأنه هو الآخر قد طلقه ، وخرج على نظمه وأوضاعه . أما من يرضى بهذه النظم والأوضاع ، فإن المجتمع يفتح له صدره ، ويفسح له سبل العيش . وبقدر قبول هذه النظم والأوضاع ، يكون نجاح المرء وتقدمه . فإن أقرت أوضاع مجتمع ما الرشوة والكذب والتزوير ، فلا يمكن أن ينجح إمرؤ فى هذا المجتمع عينه ، إلا إذا استعان بهذه الوسائل . فإن ثار عليها ، ثار عليه . وحينئذ يعيش المسكين فقيراً ، شقياً . . . عاقلا .

أما أنه فى نطاق دائرة مشئومة لا مخرج منها ولا مناص ، فلأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فهو إن أراد لنفسه النجاة ، حتم عليه أن يسلك أحد طريقين : إما أن يعدل المجتمع ويسويه بالطريقة التى يهوى — وهذا محال . وإما أن يعيد صياغة نفسه بالطريقة التى ترضى المجتمع — وهذا أشد استحالة ، لأنه لا يزال حدثاً يافعاً ، يعيش فى عالم من الألفاظ والمعانى .

ولكن ترى من منهما البادىء بالعدوان : أكان هو أم المجتمع ؟ لقد كان قبل سفره إلى أوربا يعيش سعيداً بين أسرته ، ويشارك أفرادها فى حياتهم المنزلية والاجتماعية . إنه يذكر كيف كانوا يتضاحكون ويتناذرون كلما جمعتهم مائدة الطعام ، وكيف كان يصاحب والدته وأخاه فى زيارتهم للأقارب والأصدقاء .

ولما أن أتم دراسته الثانوية ، أرسله والده إلى جامعة عريقة بإنجلترا . وهناك مضت السنة الأولى بسلام . كان العالم فى ناظرية لا يزال تلك الفئة القليلة من الأقارب والأصدقاء . وكان لا يشغله من المسائل سوى التفكير فى أمر غريزته الجنسية ، والعمل على النجاح والفوز . ولكنه فى عطلة ذلك العام ، غادر إنجلترا فى رحلة طاف فى خلالها بمعظم دول أوربا .

رأى خالد أشياء كثيرة فى غضون هذه الرحلة . ولكنه إذ كان يتنقل من بلد إلى آخر ، لم يكن لديه متسع من الوقت للتفكير فيما شاهد . فلما عاد إلى جامعته بدأ عقله يدور حول ما استوعبه من تجارب وإحساسات . ولقد صاحب هذا الجهد الفكرى العنيف أزمات نفسية قاطبة ، كثيراً ما أبعدت النوم عن جفنيه ليالى متتابعة . كان يحس بأن بين جنبيه بركاناً يضطرم ، وأن هذا البركان يوشك أن ينفجر . ولكنه لم

يكن يدرى إلى أى شاطىء سيقذف به حين تأزف ساعة الإنفجار .

فى تلك الأثناء بدأ تفكير خالد ينتقل من الخاص إلى العام . لم يعد عالمه أفراد متميزين ، ولكن طبقات فى مجتمع . أصبح ينظر إلى الغنى والفقر - لا كنزوات دهر غاشم فهو يبذل أيهما لمن يشاء بغير ضابط كما كان يظن - وإنما هو النتيجة الحتمية لتفاعل الأوضاع الإقتصادية والنظم السياسية .

هنا أحس خالد بنزوع شديد إلى القراءة . فكان يلتهم الأسفار إلتهاماً . لا يترك الكتاب إلا إذا انتهى منه ، ولو كلفه ذلك قضاء الليل فى سهد ، أو إغفال بعض وجبات الطعام . وكان فى أول هذا العهد يقرأ كل ما يقع تحت يديه من كتب . ولكنه ما لبث أن أقلع عن قراءة القصص والشعر ، وحصر همه فى مراجعة المؤلفات التاريخية ، وبحوث الإقتصاد ، وعلم الإجتماع . أصبح صدره يضيق بمنتجات الخيال التى تسوى صورها فى عقول البشر بلا ضابط أو قيد . إنه يريد الوصول إلى أعراق الحقائق المادية التى تسيطر عليها القوانين الطبيعية ، والتى يمكن تتبع أصولها وتحديد نتائجها بالإستقراء العلمى . لقد تكشف لناظريه عالم جديد يريد أن يعرف عنه كل ما يستطيع معرفته . فما حاجته إذا إلى تهاويل الخيال وأوهام الشعراء ؟

هذا الميل الذاتى ، وجد نصيراً فى الإتجاه العام المسيطر على المعهد الذى يتلقى فيه العلم . فقد كان زملاؤه من الطلبة الإنجليز يعتبرون بلدهم زعيمة النهضة الفكرية فى العالم . وينظرون إلى أنفسهم كأنهم جنود الطليعة المنوط بهم حمل لواء هذه النهضة والتقدم بها نحو أهداف المدنية الحديثة .

لهذا كانوا يوهمون أنفسهم باعتناق أحدث الآراء الفلسفية ، وأطرف النظريات العلمية . فلم يكن غريباً أن تتفشاهم الفلسفة المادية ، وأن تجد فيهم أحلص أعوانها ، وأشد دعاتها حماسة وعنفاً .

مضت سنون ثلاث وخالد يقرأ ويستمع ويتأمل . ثم حصل على إجازته العلمية فعاد إلى مصر . ولكن الذى عاد إليها كان شخصاً لا يمت بصلة ما إلى ذلك الفتى اليافع الحجرل الذى غادرها منذ بضع سنين . ولو خير حينئذ بين الحالين لآختار حاله الأول . كان سعيداً فى حياته ، قنوعاً بالبيئة التى يعيش فيها . ولكنه عاد شاباً حزيناً حائراً . فقد الثقة بمثله الأولى . ولم يستطع أن يحل محلها مثلا أخرى تضارعها فى قوتها وأبديتها . إن البضاعة الفكرية التى عاد بها ، لا تهتم بما هو أبعد من أنفها . لقد هدمت بناء شامخاً ، ولكنها لم تبن سوى كوخ ضعيف العماد . حقاً إنه كوخ جميل ، ولكنه لم يلحظ فيه البقاء والخلود . وإنما هو منفعة جيل أو جيلين من الناس ، وليكن بعدهما من أمر البشرية ما يكون .

عاد خالد وهو ثائر على كل أوضاع المجتمع فما أن أستقر به المقام وسط أهله حتى شمل سخطه مجتمع أسرته الصغير . فضاق صدره بأبيه أولا ، ثم بأخيه الأكبر ، وبوالدته من بعده .

كان قبل سفره يشعر نحو والده بذلك الإحترام التقليدى الذى درج على إظهاره منذ المهد . فما دار بخلده يوماً أن يناقش أوامره أو ينقد تصرفاً من تصرفاته . ولقد تركه وهو « أحمد بك خورشيد » من كبار رجال القضاء فى مصر ، وعاد فوجده « أحمد باشا خورشيد » الذى يشغل منصباً لابد أن يكون خطيراً ، إذ تضع الدولة أمام باب منزله جنديا فى النهار ، وآخر فى الليل . ولكنه بدلا من أن يوحى إليه هذا الجاه

بمضاعفة احترامه له ، وجد نفسه ينظر إليه بعين السخط التى لا تبدى إلا المساوىء .

نشأ أحمد باشا خورشيد فى أسرة يدل عليها اسمه . ولم يكن لوالده ابن سواه ، الى جانب أربع فتيات يكبرنه جميعاً . فلم يكن من الغريب أن ينشأ مدللا متغطرسا شديد الأثرة . وكان وهو صغير مفضلا على جميع أفراد الأسره . ولازمه هذا الشعور بعد أن كبر ، فكان يعتقد أنه من طينة غير طينة بقية الناس . لم يكن يحتمل مراجعة أو اعتراضا . إنه يأمر وعلى الخلق أن يطيعوا . ولقد ركبه هذا الشعور حتى أصبح التفنن فى إذلال الناس وفى إشعارهم بحقارتهم شغله الشاغل .

هذا الشعور نفسه قد هيأ له أن ما يسرى على عامة الناس من قوانين وأوضاع يحكمهم أقيسه لا يسرى عليه هو . وقد يستولى هذا الشعور على الفنانين والشعراء ، فيتوسلون به إلى تحطيم قيود الفكر المصطنعة ، وإلى فسح المجال لخيالهم الوثاب ، ليتمكنوا من انتاج الرباعيات والكوميديا الالهية ، وهاملت . ولكن كل ما لهذا الشعور من أثر لدى أحمد باشا خورشيد ، أنه يعطيه الحق فى سلب حقوق الآخرين ، ويسمح له دائما بتغليب صالحه على مصالح الناس ، دون نظر إلى أى إعتبار .

ولقد سمع خالد إشاعة يتناقلها أعداء والده — وهم كثيرون — وإن كان لم يستطع تحقيقها . سمع أن جده أصيب بمرض عضال فى آخر أيام حياته ، فلما أحس أحمد باشا بقرب نهاية والده ، سعى إليه حتى يميزه على أخواته فى الميراث فوق التمييز المشروع . ولعل طلبه قد قوبل بالرفض أو بالإهمال ، فما كان منه إلا أن شن على أبيه حملة شعواء ، جعل يضرم نارها ليل نهاره ، فهو يتوعد ويهدد ويثور ، والأب المسكين يستعطفه ، ويسأله أن يرحم ضعفه وآلامه . واستكمالا لحلقات المؤامرة

سعى الابن إلى إقصاء أخوانه من المنزل ، حتى يضمن بعد تأثيرهن فى أبيه . وهكذا ترك الشيخ المحطم ليستقبل أخيلة الموت الراعبة بغير رفيق يمسح جبينه المكدود . أو يبل حلقه المتقد . وفى ذات صباح وجد الشيخ المسكين جثة هامدة فى أسفل السلم ، وقد تحطم رأسه وكسرت بعض أضلعه .

قد يقال أن الشيخ نهض فى جوف الليل يريد شأناً له ، فأخطأ الطريق ، وزلت قدمه ، فسقط من السلم . ولكن هناك كثيرين يقولون غير ذلك . ولقد زار خالد بيت جده ، ورأى المكان الذى سقط منه . فأدرك تواً السر فى مقاطعة عماته لأبيه ، وفى أنهن لم يدخلن منزله فى غير مناسبات الوفاة . لم يكن من الممكن أن تزل قدم جده فيسقط من شاهق ، على حين أن للسلم درابزينا مرتفعاً .

وبعد أن عاد من انجلترا ، لم يبق لديه شك فى أن والده هو الذى دفع بجده إلى الانتحار . فها هو ذا يراه كل يوم يعتدى على فريسة جديدة . فهو يطرد خدمه لأتفه الأسباب . ثم يأكل حقوقهم بدلا من أن يكافئهم . وهو يقاضى مزارعيه المتخلفين عن أداء بقية من إيجار ، ويحجز على أموالهم ، ويبيع ممتلكاتهم ، حتى ليجردهم من الرداء الذى يستترون به . وهو يطلق كلابه على من يدخل حديقته فيعقره ويمزق ثيابه . ولقد سمع أن لديه فى الضيعة جلاداً يشوى بسوطه ظهور المغضوب عليهم من الفلاحين . وراجت بين الناس روايات كثيرة عن قسوته وعنفه ، حتى لقد قيل أن السر فى تكالبه على المال ، يرجع إلى أن جده كان يهوديا يقرض بالربا . فلما أصبح ذا ثراء ، أسلم ليصير ذا جاه .

لم يكن لأحمد باشا خورشيد صديق واحد ، فلم تكن معاملته حتى لزملائه مما تحببه إلى النفوس . فهو لا يسلم إلا بأطراف أصابعه ، ولا

يتكلم إلا شامخ الأنف ، ولا يقبل من أحد لفافة تبغ ، ولا يجيب دعوة أحد إلى قدح من القهوة . وهو أيام منصبه القضائى كان له فى المحكمة كوب وفنجانة لايشرب إلا منهما ، ويحكى عنه زملاؤه من القضاة ، أنه إذا أراد دراسة ملف إحدى القضـــايا ، وضع أمامه زجاجة من ماء الكولونيا ، فما يقلب إحدى أوراق الملف إلا طهر أصابعه بعدها ، مما قد يكون قد علق بها من ذرات التراب .

ويروون أنه بينما كان يرأس إحدى الجلسات ، شعر المحامى الذى كان يدافع أمامه بالعطش ، فطلب كوبا من المـاء . ولمـا جاءته هم بشربها فإذا به يقهره قائلا :

ـــ كيف تشرب من هذا الكوب يا أستاذ ؟

فردد المحامى نظره بين الكوب وبين القاضى ثم قال :

ـــ يبدو أنه نظيف مغسول يا حضرة الرئيس .

فزم القاضى بأنفه وقال :

ـــ مغسول حقاً ! إننى لو ملكت أن أغسل الماء لفعلت .

ولمـا كان الرجل محاميا ، فانه لم يستطيع أن يمنع نفسه من إبداء أمله فى أن يوفق حضرة القاضى إلى تحقيق رغبته ، وفى أن يوفق أيضاً إلى طريقة تمكنه من غسل الهواء قبل استنشاقه . ولقد كلفه هذا التعليق خسران دعوى كانت مأمولة الكسب .

حقاً لو أراد خالد أن يصور تزمت أبيه السمج ، واستعلاءه القبيح لما وجد أفضل من تعبير والده نفسه :ـــ أنه يغسل المـاء . . .

غاسل المـاء هذا ، حين عاد إليه ابنه ، وجده رث الثياب ، ردىء الهندام ، قد تآكلت أطراف حلته وانسخت ، ويلوح عليها أنها لم تعرف الكواء منذ أعوام ، ولم يكن صاحبها يترفق بهـا ، ولعله لم يكن يخلعها

وقت النوم . قطب الأب جبينه وليكنه لم يفبس ، ظناً منه أن إبنه قد اختار من بين ملابسه حلة تناسب وعثاء السفر . ولكن حين فتحت حقائب خالد وجدت جميعها ملأى بالكتب والتحف وبعض الهدايا .

— أليس لديك حلة غير التى ترتديها ؟

— كلا يا أبتاه .

وكان هذا السؤال وجوابه مفرق الطريق بين الأب وابنه . ومنذ تلك اللحظة بدأ بينهما صراع لايخمد له أوار . حقاً حاول خالد فى أول الأمر — مدفوعاً بسذاجته وقلة تجربته — أن يقنع والده ببعض النظريات الاصلاحية التى تملأ رأسه . واستمع أحمد باشا خورشيد إلى ابنه بعض الوقت ، ثم قاطعه فى حدة قائلا :

— أنت ولد طائش . إن حكم الشعب بالصورة التى تتمثلها ، هو من قبيل أن تحنى ظهرك للحمار وتدعوه للركوب . أما أنا فأفضل أن أركب الحمـــار . أنت ولد طائش . وإنى نادم على ما بذلت من مال فى سبيل تعليمك ، فأنفقته أنت فيما هو شر من الخمر والنساء .

كانت هذه المناقشات تنتهى دائماً بانسحاب خالد ، وتركه المكان لأبيه . وقد تكررت هذه المصادمات على مائدة الطعام مما أدى به إلى إنفراده بتناول وجباته فى حجرته حتى أصبح هذا قاعدة متبعة .

ظن أحمد باشا أن ابنه سيعدل عن غيه ، حين تخمد جذوة الأفكار الصبيانية التى تنتاب الفتى إذا ما أنهى مرحلة التعليم ، وبدأ يفكر فى شق طريقه فى الحياة . ولكن مضت الأيام والأشهر ، ولم يبد على خالد أنه يولى هذا الأمر شيئاً من تفكيره على الإطلاق . وبدلا من أن يعدل عن غيه تمادى فيه ، واندمج فى زمرة من الأصدقاء ، كانت رؤيتهم وحدها يقشعر لها بدن أحمد باشا .

بدأ الرجل يخاف ابنه . فلم يكد يبدو على خالد أنه يعبأ بآراء أبيه ، أو يهتم بتنفيذ رغباته . ولأن أحمد باشا لم يكن على درجة رفيعة من النبل، فقد رأى أن يجرد ابنه من السلاح قبل أن يعلن عليه الحرب . ففى ذات يوم دخل عليه حجرته فوجده جالساً يقرأ .

ـــ أما تقف احتراماً لأبيك ؟ .

ـــ لم أسمعك تنقر على الباب يا أبتاه !

ـــ لاتستعمل معى هذه اللغة أيها الأفندى ! ماذا تعمل ؟

ـــ أقرأ .

ـــ لقد انتهى زمن القراءة وبدأ زمن العمل .

ـــ إن زمن القراءة لاينتهى مادامت الكتب تصدر .

ـــ عظيم .. أتراك حصلت على شهادتك العلمية لتتباهى بها فى القهوات؟

ـــ لست أفهم . . .

ـــ إبتداء من غد ستذهب إلى وزارة الخارجية ، فقد وجدت لك وظيفة فى مكتب الوزير .

ـــ لاأظننى أهتم كثيراً بمكتب وزير الخارجية ، والغالب أن المكتب أيضا لايهتم بى .

ـــ تعنى أنك لن تلتحق بهذه الوظيفة ؟

ـــ إن وجودى بوزارة الخارجية لن يؤثر كثيراً فى علاقة مصر بالدول الأخرى .

ـــ وهل يؤثر فيها وجودك متعطلا فى منزلى ؟

ـــ لست متعطلا . إننى أقرأ .

ـــ ستعرف أمتعطل أنت أم غير متعطل ، حين ينقطع عنك المرتب الذى تتقاضاه منى .

وانقطع المرتب . ولكن خالداً لم ينقطع عن تعطله . بل ازداد فيه . ولم يبد عليه أنه تأثر أى تأثير لهذا الإجراء ، سوى أنه أصبح لا يغادر حجرته فى ليل ولانهار ، وقد كان يغادرها بعض الوقت أصيل كل يوم . وجاءته أمه باكية مستعطفة ترجوه أن يتقدم لأبيه مستغفراً مما فات . قال لها :

ـــ أتركينى لشأنى يا أماه . فلم أعد اليوم قاصراً

فتأوهت وولولت وقالت :

ـــ ماذا يقول الناس عنا ؟ جزى الله أولاد الحرام وأبعد عنا كل عين شريرة . ثب إلى رشدك ياولدى .

ـــ الذى أرجوه هو أن تثوبوا أنتم إلى رشدكم . ولكنكم لاتثوبون إلا إلى خرافاتكم وجهلكم وأنانيتكم

وحينئذ بدأت والدته تتكلم عن العالم الباطل ، وعن القوم الخاطئين ، وراحت تسأل الله أن يلطف بعبيده ، وأن يردهم إلى طريق الصواب . ثم طفقت تعدد أنواع الشقاء الذى حل بالعالم ، وترد أسبابه إلى ضعف إيمان القوم ، والتماسهم سبل الغواية . . .

ـــ كفى يا أماه . إن رجلك قد أتى .

إنها إن انطلقت فى هذا الطريق فلن تقف عند حد . ولولا أنه سمع والده يسعل سعاله التقليدى فى بهو المنزل ، لسمع « المعلقة » إلى منتهاها . فقد كان هذا هو الموضوع الذى تخصصت فيه والدته منذ عادت من الحج . ولعلها قد خيل إليها أنها اصطفيت قديسة صغيرة ، وكل إليها النصح والإرشاد ، وهداية العباد . فأصبح المنزل تدوى فيه الولولة بين الفينة والفينة ، ثم ينطلق صوت « الست » مستعطفاً .

ـــ إرحم عبيدك يارب . . .

وبعد هنيهة تسمع تنهدة مستطيلة أخرى يعقبها :

— إرفع غضبك يارب . . .

وهكذا دواليك ، حتى لم يعد الخدم فى حاجة إلى السؤال عن مكان سيدتهم ، وما عليهم إلا أن يتتبعوا مصدر الزفير والعواء ، فيجدوها جالسة ترسل الدعاء تلو الدعاء .

لم يعد خالد يحتمل هذا المنزل الذى أسماه «منزل التنهدات والسعال» . ولعله لم يكن منفرداً بهذا الشعور . فقد انقطع عن والدته معظم زوارها ، أما والده فلم يكن له زوار من أول الأمر .

○○○

لما أخفقت سياسة العنف عدل أحمد باشا إلى سياسة التلطف والاسترضاء . ففى ذات يوم رأى خالد سيارة أنيقة جاثمة فى حديقة الدار قيل له إنها تحت تصرفه . وأصبح فإذا حجرته مكتظة بالحلل والأحذية والقمصان ، من مختلف الأزياء والألوان . وأمسى فإذا على قطره لفيفة محترمة من أوراق النقد ، تغرى بالانطلاق إلى بعيد الآفاق . وخالد من بعد هذا وذاك ، شاب مكتمل الصحة ، حار الدماء .

تركوه شهراً على هذا الحال . ثم جاءه أبوه ذات يوم مستضحكا يقول :

— يابنى إنك رجل فكر ورأى ، ويهمك أن تقنع الناس بعقيدتك . ولكن خالد المغمور الذى لم يسمع بذكره أحد ، ليس كخالد ذى المركز الخطير والصيت العريض . فالناس لا ينصتون إلا لرأى رجل يحترمونه . فلتكن خالداً المدير أو الوزير ، ثم قل بعد ذلك ماتشاء من حكم أو ترهات ، تجد الناس من ورائك أطوع لك من بنانك . فأنت إن قبلت نصحى ، والتحقت بالوظيفة التى هيأتها لك ، فإنما تخدم عقيدتك وتسعى أحسن السعى لتحقيق آرائك .

وقعت هذه الكلمات موقع القبول من قلب خالد . وأنشأ يحدث نفسه:

ـــ لقد أصبت هذه المرة أيها الباشا . ولكن فاتك أن تقول إن هذه الوظيفة ستمكننى آخر الأمر من الاستقلال بنفسى ، ومن طرح عبودية هذا المنزل إلى غير رجعة . سأقبل وظيفتك يا باشا .

ولكنه بقدر ما ذهب مستبشراً إلى الوزارة فى أول يوم ، آب منها كسيفاً ضيق الصدر بالحياة . كان يشعر بتقزز عنيف لم يشعر بمثله إلا من شهر مضى ، وكان ذلك فى السيارة التى أعطيت له حيث عرف جسد المرأة أول مرة فى حياته . فى كلتا الحالتين كانت حياة الخيال تصطدم مع حياة الواقع فى بدء مواقعهما . وفى كلتا الحالتين احتقر خالد نفسه أشد احتقار ، لأنه استباح لها أن تسقط إلى هذا الدرك . كان يشعر بأنه نذل ، وبأنه قذر .

حين قدم لهم نفسه فى الوزارة ، رآهم يحيونه وعلى شفاههم ابتسامة لم يفهم لها بادىء الرأى معنى . ثم أجلسوه على مقعد وثير ، وأخذوا يسألونه عن صحته ، وعن صحة الباشا ، ويطلبون له القهوة ، ويقدمون اللفائف ، فيرفضها جميعاً فى ضجر ، وهو لا يفقه شيئاً مما يدور أمامه . وطالت جلسته على هذا الحال الممل ، فجمع شجاعته وطلب منهم أن يطلعوه على العمل الذى عليه تأديته . حينئذ اتسعت ابتساماتهم وتحدد معناها : « أى عمل يا شاطر ! إن أمثالك ممن يأتوننا بين الفينة والفينة ، غير مفروض فيهم أن يعملوا شيئاً » .

ولكنه أصر على طلب العمل . فأعطوه ملفاً ضخماً ، قالوا إنه خاص بمعاهدة كذا ، التى أبرمت أخيراً بعد مفاوضات دامت عدة سنوات . والمطلوب منه هو أن يستخلص الدور الذى قام به معالى الوزير الحالى فى هذه المفاوضات .

أخذ خالد الملف على مضض ، فقد خيل إليه أنهم يعطونه عملا من

نوع العمل الذى يعطيه الآباء للأطفال ، حين يريدون التخلص من ضجيجهم ، فيكلفونهم عد صفحات كتاب ، أو بناء بيت من الرمل . ولكنه انكب عليه ، وأخذ يقرأ فيه ساعة وبعض ساعة ، ثم رفع رأسه وقال لهم :

ـ لست أرى للوزير الحالى نصيبا يذكر فى هذه المفاوضات .

فقيل له :

ـ هذا لا يهم .

ـ وعلى فرض أننى قبلت أداء هذا العمل فما جدواه ؟

ـ سيكون موضوع مقال يرسل إلى الصحف لنشره .

ـ إذن لن أكون كاتبه .

ونهض لا يلوى على شىء .

قبع بعد ذلك فى حجرته أسبوعا كاملا . وفى أحد الأيام توجه إلى الوزارة ، فقابلهم بابتسامة تشبه ابتسامتهم ، ثم جلس فى مقعده الوثير نصف ساعة ، قرأ فى خلالها صحف الصباح ، ثم استأذن وانصرف . إن فى وسعه الآن أن يواجه هؤلاء الموظفين دون خجل . فهم لا يختلفون عنه إلا فى أنهم بين جهلة ومنافقين . فالجهلة هم الذين يكدحون طوال النهار ، فى عمل ليس للدولة من ورائه أى مغنم . أما المنافقون فهم الذين يتظاهرون بالعمل ، ولا يعملون شيئا . فإن كان هو لا يعمل ولا يتظاهر بالعمل ، فهو أحق منهم بالثناء ، لأنه لا يكلف الدولة ورقا وأقلاما . ولقد حلا له يوما أن يجوس خلال مكاتب الوزارة فتبين له أن العمل الذى يقوم به هذا الجيش الجرار من الموظفين ينقسم إلى ثلاثة أقسام . عمل يمكن الاستغناء عنه بجرة قلم دون أن تشعر الإدارة الحكومية بأى خلل أو نقص . وعمل مقصور على تنظيم الموظفين

لشئونهم الخاصة . أما النوع الثالث من العمل فيرمى إلى خلق المتاعب فى حياة جمهور الناس ، وإقامة العراقيل فى سبيل استحواذهم على حقوقهم . وقد يغالى القائمون بهذا القسم الأخير من العمل فى تأدية وظائفهم على الوجه الأكمل ، فيمنعون هذه الحقوق عن أصحابها منعا ، ويغتصبونها لمصلحة الحكومة تارة ولمصلحتهم تارة أخرى . ولقد أدرك الناس مقدار الخطر الذى يتعرضون له من جراء هذا النشاط الحكومى ، فاضطروا إلى الاستعانة على النجاة منه ، بما جرى العرف على تسميته « بالسيد على »

منذ ذلك الحين لم يذهب خالد إلى دار الوزارة إلا مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع . هناك يجلس على مقعد وثير يقرأ صحف الصباح ، ثم يستأذن وينصرف . وتقديراً لهذا العمل الجليل ، تصرف له الدولة فى أول كل شهر مبلغا من المال حار فى أساس تقديره إلى أن اهتدى أخيراً إلى أنه يمثل مجموعة مكافآت قدر كل منها جنيهان تمنح له فى مقابل كل صحيفة يقرأها فى دار الوزارة . وعندئذ فكر خالد فى الانضمام إلى إحدى نقابات الموظفين التى لا حصر لها ، ليشترك مع أعضائها فى المطالبة بتحسين حالته .

جالت هذه الخواطر جميعها برأس خالد وهو معتكف فى حجرة المكتب . لقد انقضى على هذا الحال ستة أشهر ، لم تقع فيها مصادمات ذات شأن بينه وبين أبيه . حتى إذ كان هذا الصباح ، دخل حجرة المطبخ لأمر ما ، فاسترعى نظره سلة مغطاة لم يعرها اهتماما أول الأمر . ولما قضى أمره وهم بمغادرة الحجرة ، شعر بدافع يحضه على تبين ما تحويه هذه السلة ، فمشى اليها ورفع غطاءها . حينئذ أحس بالدم يغلى فى عروقه ووجد نفسه يتمتم قائلا :

ـــ الأنذال . . .

كان بالسلة بضع عشرات من ثمار المانجو العطبة . هذه الثمار أهداها بعض ذوى الحاجات إلى والده منذ أسبوع ، فكان يوضع جانب منها كل يوم على المائدة ، ليأكل منها من يأكل ، ويحفظ المتبقى إلى اليوم التالى . واستمرت توضع وترفع على هذا المنوال ، إلى أن دب فيها العفن دون أن يفكر أحد فى إعطاء جانب منها إلى الخدم .

وحين دخل أحمد باشا هذا الصباح حجرة المائدة لتناول طعام الإفطار ، وقعت عيناه على منظر غريب . رأى مقعده فى وضع معكوس وعليه سلة بها ثمار عفنة ومثبت فى السلة ورقة مكتوب بها : ـ « ألم يكن الأفضل أن يأكلها الخدم . . . »

لم يكن فى المنزل من يجرؤ على هذا العمل سوى خالد.

ـــ أأنت من فعل هذا ؟

ـــ نعم

ـــ هل تعلم أن الوقاحة هى أقل ما يوصف به عملك ؟

ـــ وبماذا تصف عملك أنت ؟

فانفجر أحمد باشا صائحا :

ـــ أيها الأفندى إننى حر فى منزلى . آن لك أن تعرف أن كلمتى هنا قانون مقدس .

ـــ أستغفر الله .

ـــ أراك تمزح !

ـــ لقد كنت البادىء حين تحدثت عن الكلمات المقدسة .

ـــ لعلك تظن أن من حقك أن تناقش تصرفاتى ؟ ما أنت يا شاطر إلا ولد مأفون . إنك تعتقد فى نفسك أنك نابغة العصر ، ونبى الجيل ، وما

أنت فى الحقيقة إلا مراهق مضطرب الوجدان ، مشتت الإرادة ، ضعيف القوى العقلية . لقد كنت فى طفولتك دائم السقم يتهددك الموت بين لحظة وأخرى . وأثر هذا الحال فى تكوينك الجسمانى كما أخر من نضجك العقلى حتى لقد خشينا فى وقت ما أن تشب أبكم لا تستطيع الخطاب . لعمرى لقد كنت أود لو استطعت أن ترى نفسك فى هذه الحقبة من حياتك ، حين كنت تلعب مع الأطفال كالقرد الأبلة فيتخذون منك مادة لا تنضب لسخريتهم وعبثهم ، حتى إذا ما شبعوا منك لفظوك من بينهم ، فتنتحى ركنا قصيا وتستغرق فى البكاء . لقد كنت مصدر معرة لى بين الناس . فهل استعدت فى خاطرك هذه الصورة البهية قبلما تفتح فمك بلفظ ، أو تمد يدك لأداء عمل ؟ إنك تعرف حينئذ نفسك على حقيقتها ، وتعرف أننى لم أعد الحقيقة حين قلت إنك ولد مأفون .

— إن كان الإفن ينسب إلى كل من له فى ماضى حياته أشياء يخجل من ذكراها ، فلست المأفون الوحيد .

حينئذ ثارت فى أحمد باشا حماسة جدوده الأسيويين فانطلق صائحاً :

— ماذا تعنى أيها الكلب الوقح ؟ لقد ضقت ذرعا بسفاهتك وانحطاطك . وهأنذا أنذرك بأنه إذا بدرت منك بادرة أخرى فسأحطمك فى طرفة عين .

ولكنه سكت عن الصياح بغتة وانقلب عبوسه ابتسامة صفراء . لقد عاد فأمسك بالزمام قبل أن ينفلت فيكون من الخاسرين . ثم أنشأ يتحدث فى صوت أملس :

— حقا لقد صدعت رأسى أيها الغلام بحديث آرائك الفريدة . فهل تعتقد حقا أن فى وسعك أن تعمل شيئاً ؟ أن تقوم بعمل حقيق ذى قيمة ؟ أجبنى أيها الصبى المتعطل . .

أربد محيا الفتى وانفجر قائلا :

— بلا جدال

ثم التوى إلى مكتبه وأغلق من خلفه الباب . ولو انتظر برهة لرأى بسمة السعادة الأثيمة ترتسم على شفتى أحمد باشا خورشيد ولسمعه يغمغم قائلا:

— سنرى . . .

الفصل الثانى

طال انتظار مليم فى حديقة دار أحمد باشا ، وعاودته طبيعته الثورية فكاد يهم بالإنصراف . ولكنه جمع شجاعته وقام يدق الجرس مرة أخرى . وبعد برهة برز له الخادم النوبى بوجهه المكفهر فسأله بحدة :

ـــ ماذا تريد ؟

ـــ هل صرفتم النظر عن إصلاح النافذة ؟

ـــ ادخل .

وقاد مليم إلى داخل الدار وهو يهمهم بلغة « الخواجات » البرابرة ، مكملا ما فاته من عبارات السباب . ولكنه ما لبث أن وقف فجأة والتفت إلى مليم قائلا :

ـــ أنظيفة أرجلك ؟

حدجه مليم بنظره ساعة ثم قال متحديا :

ـــ كلا . تفضل فدلنى على النافذة المعطلة وكفى ماضاع من وقتى .

إستدار النوبى الجبان ، فما أن أولى ظهره لمليم حتى استأنف رطاناته بأكثر حدة وحماساً ، وظلا يسيران إلى أن بلغا الحجرة التى يجلس بها خالد فطرق النوبى بابها وقال :

ـــ النجار يريد إصلاح النافذة .

ـــ ليدخل . ليدخل .

طلب مليم من الخادم أن يحضر له سلماً ، ثم انتظر بباب الحجرة ولكنه سمع صوتاً يناديه قائلا :

ـــ ادخل ياشاطر

تقدم مليم إلى داخل الحجرة فى وجل ثم قال

ــ نهارك سعيد يابك .

ــ نهارك سعيد .

ــ إسمح لى أن أنتظر بالخارج حتى يحضر الخادم السلم .

ولكن خالداً أخذ يتفرس فى طلعته هنيهة ثم سأله :

ــ ما اسمك ؟

ــ مليم .

ــ مليم . . . يخيل إلى أننى رأيتك من قبل .

أطرق مليم وقد إكتسى وجهه بحمرة الخجل ثم قال :

ــ هل اعتاد سيدى الاختلاف إلى حى سيدنا الحسين ؟

وحينئذ صرخ قائلا :

ــ « قرش لمليم » ؟

ــ أجل ياسيدى .

ــ ولكن ما الذى دعاك إلى ترك حرفتك الجميلة ؟

ــ أردت أن أزاول عملا شريفاً

ــ أنت أيضاً أيها المسكين . . . إذن نحن زملاء . ولكن حدثنى كيف وجدت العمل الشريف ؟

ــ لا أزال أكافح ياسيدى .

ــ عبثاً . أليس كذلك ؟ إن التبطل فى هذا المجتمع العفن أفضل من العمل . وإن كنت تبحث عن العمل الشريف فلن تجده . لم يعد شريفاً فى عالمنا هذا سوى التبطل . فإن حدثتك نفسك بأن تقوم بأى عمل من أى نوع فأنت لابد مقارف إثماً . سترى يامليم . سترى كما رأيت .

ــ سأرى أن العمل لايمكن أن يكون شريفاً ؟

— أجل . لأنك إن أردت فائدة من وراء هذا العمل — وهو المفروض — فلابد من أن تسرق واحدا من الناس إن كنت من طبقة الفقراء ، أو أن تسرق شعباً بأسره ، وهو ما أفعله أنا ، وما يفعله والدى ، وكل من يمتلك أكثر من حذاء واحد وحلة واحدة .

— ولكنى أؤدى عملا أتقاضى عليه أجراً فمن أسرق ؟ .

— مادام المجتمع قائماً على نظام التنافس ، ومادام البلد يعج بالأيدى المتعطلة فأنت تسرق عمل غيرك .

أحضر النوبى السلم فحمله مليم إلى النافذة ثم ارتقاه ، واستقر على قمته يتفحص صندوق النافذة العلوى . وتأمله خالد من طرف الحجرة الآخر فرأى أمامه صورة بارعة الجمال . كان ضوء النهار ينفذ من خلال السجف الحريرية المعفرة ، فيملأ الحجرة بأنوار فاترة الظلال ، تضفى عليها جو اكجو الأحلام . وعلى قمة هذه الأكمة من النور يتربع مليم كأمير من أمراء شهر زاد . وكان الفتى على جانب عظيم من الملاحة ، تضىء عيناه بسحر صامت عميق ، ويشيع من قسماته المنتظمة الحادة معانى الأنفة والنبل ، حتى لتوحى بأن صاحبها ينحدر من أصل ملكى عريق . وكان مما يضاعف من سحر هيئة مليم أنه لم يكن يبدو عليه أنه يشعر بجماله . كانت حركاته طبيعية منطلقة ، وصوته منخفض تشوبه رنة تتردد بين الاعتذار والاستحياء . هذا الفتى المدقع كان يبدو فى ملابسه الممزقة أكثر إصالة وعراقة من والده الباشا .

لم يرفع خالد عينيه عن الفتى طوال المدة التى كان يعالج فيها إصلاح النافذة من فوق قمة السلم . وأخيراً زاه يرفع بهزة من رأسه بعض خصلات من الشعر انحدرت إلى جبينه ثم يهم بالنزول .

— هل انتهيت ؟

ـــ كلا . هناك شىء يعوق حركة «الحصيرة» ولابد لاستخلاصه من أن يساعدنى الخادم بجذب شريط النافذة .

ـــ لابأس سأقوم بهذا العمل .

كانت النافذة من النوع الذى يرفع ويدلى بشريط مثبت بحافتها . وتلف «الحصيرة» فى حالة رفعها فى صندوق بأعلى النافذة .

ظل كلاهما يعملان ساعة . وأخيراً استطاع مليم أن يستخرج من ثنايا طيات «الحصيرة» ذلك الشىء الذى يعوق حركتها ، فإذا بها لفيفة من الورق مربوطة بشريط أحمر .

ـــ ماهذا يامليم ؟

ـــ لست أدرى.

وانحنى من فوق السلم وأسلم اللفيفة إلى خالد.

ـــ يلوح أنها مجموعة من رسائل غرامية . لعمرى لو اتضح أنها من مخلفات الحاجة والدتنا لطفقت أضحك من الآن إلى أن تحين ساعة وفاتى.

نزع خالد الشريط الأحمر وفض اللفيفة . ولكنه بدلا من أن يجد بها رسائل غرامية أو غير غرامية ، ألفاها مفعمة بالأوراق المالية من فئة عشرة الجنيهات .

ـــ إنها ثروة ضخمة يامليم .

وأخذ خالد يحصى هذه الأوراق فإذا بها تبلغ خمسمائة جنيه .

ـــ ماذا لو تقاسمنا هذا الكنز ؟ لعل الرجل لن يعود ليتفقد نقوده إلا بعد زمن ما يكفى لانمحاء كل أثر للجريمة ولإبعاد الشبهات عنا .

ـــ لا أحس الساعة ميلا إلى السرقة .

ـــ ليست هذه سرقة ، فهذا المال نفسه مسروق . اغتصبه الرجل من كد الفلاحين الذين يستأجرون أرضه . فأنا وأنت لن نعمل أكثر

من أن نقاسمه ماسرق . ترى كيف حصل الرجل على هذا المال ؟ كم من أسرة جاعت وكم من بيت خرب لكى يستطيع الباشا أن يكتنز بعض المال فى صندوق نافذته . . . لا بأس ياملیم . سنعيد المال إلى صاحبه ، فالحق أننى أنا الآخر لاأحس الساعة بميل إلى السرقة .

— لقد أتممت إصلاح النافذة .

— حسنا ياملیم . عد إلينا بعد ظهر اليوم وسأكلم الرجل عله يمنحك مبلغاً ما مكافأة لك على أمانتك .

— لقد كنت بالغرفة طول الوقت . فلو أن نفسى حدثتنى بسرقة هذا المال لما استطعت . فأين هى الأمانة التى أظهرتها لأستحق عليها المكافأة ؟

أطرق خالد برهة ثم قال .

— أخشى أن يلجأ الرجل إلى مثل هذا المنطق ليحرمك حقك . فهو بارع فى هذا المضمار . إسمع ياملیم . سأصعد الآن إلى غرفتى ، أما أنت فتستدعى الخادم بعد لحظة وترسله فى طلبى ، بحجة أنك تريد أن تحدثنى فى أمر مهم . فإذا صعدت إليك أعطيتنى اللفيفة . ولكن عليك ألا تذكر للخادم أى شىء يتعلق بالنقود .

— وهل من الضرورى أن تغادر الغرفة ؟

— أجل لأننى لا أستطيع أن أكذب فأقول إننى لم أكن بالغرفة فى حين أننى لم أغادرها . ثم إن إرسالك فى طلبى قد يظهر أمانتك فى مظهر براق ، فيجزل لك الرجل فى العطاء .

— ولكن ألا تخشى أن انتهز فرصة غيابك فأنطلق بالنقود ؟

ضحك خالد وقال :

ـــ إنك لا تملك هذه الجرأة فأنت فقير . لعل مثلى كان يفعل ما تقول لو وجد فى مركزك .

هز مليم كتفه وقال :

ـــ لست أريد مكافأة فلا تزعج نفسك .

ـــ دعك من هذه الأنفة الحمقاء . ونفذ ما قلت لك .

غادر خالد الحجرة فترك مليم إلى نفسه لا يدرى ماذا يفعل . وكان عليه أن ينتظر بعض الوقت قبل استدعاء الخادم . فراح يذرع الغرفة ذهابا وجيئة . ودفعه نزقه الصبيانى إلى أن يتخيل أنه صاحب المنزل وأن هذه الحجرة حجرته . فتصنع الهيبة والوقار ، واتجه نحو المكتب فى خطا متئدة ، وجعل يقلب ما عليه من أوراق كأنما يبحث عن شىء ، دون أن يعثر على ضالته الوهمية . فزوى ما بين حاجبيه ، وزفر زفرة تدل على الضيق . ثم جلس إلى المكتب يفكر . وبينما هو كذلك إذ فتح باب الحجرة فجأة ....

الفصل الثالث

فى مساء هـــذا اليوم وجد مليم نفسه ملقى فى السجن الملحق بأحد أقسام القاهرة . كانت الحجرة تزخر بأناس من مختلف الهيئات والطبقات. وكانوا فى أول أمرهم يختلط بعضهم ببعض، تلتحم أصواتهم فما يميز السامع إلا ضجيجا متصلا قلما يتبين منه كلمة أو حرفا . حتى إذا ما جن الليل ، هدأت حركة القسم ، فهدأت ثائرة ضيوفه على الأثر ، وأخلدوا إلى السكينة بعد أن أيقنوا ألا جدوى من الصياح .

كان السجناء قد جردوهم من كل ما يحملون فى ملابسهم قبل أن يلقوا بهم إلى غياهب الغرفة المظلمة . وكانت حجتهم فى ذلك أنه حين يختلط الحابل بالنابل تنتقل الأشياء من جيوب أصحابها إلى جيوب خفاف الأيدى من النزلاء . ولكن السجناء كانوا يعنون دائما بترك مبالغ من المال فى جيوب من تبدو عليهم مظاهر النعمة . هذه المبالغ ستئول إليهم عما قليل فى مقابل الخدمات التى يؤدونها لأصحابها .

كان لدى أغلب النزلاء طعام أحضره لهم أقاربهم . أما مليم ومن على شاكلته ممن ليس له قريب أو صديق فقد قنع بطعام السجن ، وبما يتفضل عليه به بعض أصحاب الثراء . ومضت فترة من الزمن لم يكن يسمع فى خلالها غير صوت الآلات الآدمية تلتهم وقودها .

كان النوم آخر شىء تفكر فيه هذه العصبة البشرية . ولهذا بدأوا ينتظمون فئات منفردة ، وبدأت كل فئة تقتل وقتها بالسمر . وبعد حين أخذت تنتشر بين هؤلاء الخارجين عن القانون روح أشبه بروح المرح . كان يسمع فى أول الليل أصوات من هنا وهنالك ترتفع بالبكاء والعويل.

وكان آخرون يصيحون ويشكون ويهددون . ولكن فى تلك اللحظة كانت أصوات الضحك هى الوحيدة التى تتردد فى جنبات تلك الحجرة المظلمة الكريهة الرائحة .

كان أكثر الأصوات ارتفاعا صوت جماعة من الطلبة قبض عليهم فى إحدى المظاهرات . إلا أن ضحك هذه الجماعة لم يكن يدل على مرح حقيق . كانوا خائفين ضائقى الصدور ، غير أنه عز عليهم أن يظهروا بهذا المظهر أمام هذا الجمع المختلط ، فهم طليعة الرأى وقادة الفكر فى الأمة . لهذا كان صياحهم شديداً ، وإن كان وجيب قلوبهم أشد . والحق أنه لم يكن يظهر على هؤلاء الطلبة المساكين أى مظهر من مظاهر الشجاعة والإقدام . ولعل المظاهرة عندهم لم تكن ثورة ولكنها عطلة . فلم يعد الأمر أن ردد بعض الأفراد هتافات أجابهم عنها الآخرون . ثم أشار أحدهم إلى الطريق فاندفعت اليه جموع الطلبة تصيح وتولول . وقد يعترض طريقهم مصباح فيحطمون زجاجة ، أو شجرة فيقتلعون جذعها . ويخرج الناس إلى الشرفات للتفرج والتسلية ، فاذا مرت جموع الطلبة بدار فيها فتيات مليحات وقفت المظاهرة عندها لحظات يشتد فى خلالها الصياح ، وتكثر الإشارات والتحيات . وقد يتخلف بعض المتظاهرون أمام هذه الدار ليبدءوا مظاهرة من نوع آخر . ثم تلوح عربات الترام فيهجم عليها المتظاهرون يزحمونها عن يمين وشمال . وأخيراً يظهر جنود الشرطة فيقبضون على فتى من هنا وفتى من هناك . وإذا بالمظاهرة تنفض فى طرفة عين .

إلى جانب جماعة الطلبة كانت هناك جماعتان أخريان . أولاهما كانت أقل النزلاء صخبا وإن كانت أكثرهم كلاما . وهى تتكون من فئة غير مميزة من الناس . فلا هى تنتمى إلى الطبقة الوسطى ، ولا يمكن

أن تحتسب فى العامة من الفقراء . ولكنها تمت بصلة إلى الطبقتين كلتيهما . فيها من يرتدى الملابس الافرنجية ، وفيها من يرتدى الملابس البلدية ، وفيها من يجمع بين الزيين . أما أفرادها فخليط من صغار التجار وسائق السيارات وأصحاب القهوات . وكانوا يتصنعون الوقار ليشعروا الآخرين بأنهم ليسوا من عنصرهم ، ولكن ثمة خطأ هين هو الذى أدى بهم إلى هذا المكان . فما ينبلج الصبح حتى ينكشف هذا الخطأ ، ويخرجوا موفورى الكرامة . وكان الموضوع الوحيد الذى يدور حوله الحديث فيما بينهم هو موضوع هذا الخطأ الهين . كل منهم يشرح المصادفات الغريبة التى أدت إلى اتهامه . ويبين لهم الأدلة التى تقطع ببراءة ساحته . هؤلاء هم الذين لايخطئون أبداً ، وهم الغالبية العظمى من سكان العالم .

أما الجماعة الأخيرة فهم الذين لايعتبر السجن بالنسبة لهم حدثا خطيراً فى حياتهم ، فلا توجد مهنة تخلو من متاعب ، والسجن هو بعض مضايقات مهنتهم . وكانت هذه الجماعة تتميز بأن أفرادها لاينقطعون عن الضحك . فهم يسخرون من أنفسهم ومن الآخرين ، ومن الحكام والمحكومين . الحياة عندهم فكاهة ، وكل موضوع يتناولونه لابد أن يصطبغ بهذه الصبغة . وكان بينهم فتى عذب الصوت ألحوا عليه فى طلب الغناء فأنشد موالا فى العتب على الدهر التعيس . الغاشم .

لايدرى مليم لماذا اغرورقت عيناه بالدموع حين سمع الأنشودة تتردد فى أحضان هذا القبر المظلم الذى يضم حثالة البشرية . كان إلى تلك اللحظة متملكا زمام نفسه . ولم يكن يضايقه سوى حرارة الغرفة المرهقة ، ورائحتها المنكرة التى لانطاق . ولكنه لم يشعر البته بخوف أو بانقباض . بل أنه يذكر أنه أحس بنوع من الراحة حين انتهى به المطاف إلى هذا الجحر المغضوب عليه من الله والناس . لقد انتهى يومه المنكود على أى

حال . انتهى العـــذاب الذى لاقاه على أيدى رجال الشرطة الغلاظ . سيستريح الساعة من تهديدهم ووعيدهم . ولن يسمع إلى حين ألفاظ السباب التى كانت تنسايل عليه من كل فم . لن يرى وجوه الذئاب البشرية التى ألقت به إلى السجن بدل أن يعطوه المكافأة التى وعدها . أتكون هذه نتيجة العمل الشريف الذى لفظ حياته الأولى من أجله ؟ .

مرت بمليم ألوان كثيرة من الخسة والدناءة . شاهد الوالد يدين ولده لينجو من العقاب . شاهد اللصوص يشى بعضهم ببعض . شاهد الصديق يغرر بصديقه ليفوز دونه بفائدة أو بعمل . شاهد نسوة ينفقن أموال أزواجهن على عشاقهن . ويحرمن عيالهن القوت . كما شاهد رجالا يرغمون نساءهم على العمل الشريف أو غير الشريف ليعيشوا عالة عليهن . ولكنه لم يشاهد فى حياته خسة ودناءة كتلك التى أظهرها « عمر » هذا الذى اتضح أنه الأخ الأكبر لخالد . هؤلاء جميعاً كانوا يضطرون إلى الخسة اضطراراً . أما نذل هذا الصباح فقد سعى إلى الخسة سعياً .

إنه يذكر كل كلمة قالها « عمر » هذا أمام المحقق . ولعلهم كانوا ينتظرونه بعد أن أرسلوا رجال الشرطة للقبض عليه . إذ أن المحقق لم يبدأ بإثبات أقوال « عمر » إلا ساعة وصوله . وجدهم مجتمعين فى حجرة المكتب التى كان يصلح نافذتها فى الصباح . ووجد بينهم شيخ مكفهر الوجه نظر إليه شذراً ثم صاح فيه قائلا :

ـــ أهذا هو الخنزير القذر .

فأجابه عمر :

ـــ هو بعينه يا أبتاه .

وكان خالد جالساً فى ركن القاعة ولكنه لم ينبس بحرف . وبدأ عمر يدلى بشهادته للمحقق :

— عدت اليوم من الوزارة مبكراً على غير عادتى . وكانت معى أوراق خاصة بعمل عاجل أحضرتها من الوزارة لإنهائها هذا المساء . ولذلك فقد عرجت على حجرة المكتب لأضع هذه الأوراق قبل أن أصعد إلى غرفتى . فما أن فتحت باب الحجرة حتى وجدت هذا الغلام جالساً إلى المكتب وهو يحاول فتح أدراجه عنوة .

لم يطق مليم سماع هذا الكذب الصارخ فصاح مقاطعاً :

— هذا لم يحصل .

ولكن الضابط ثار عليه ثورة هوجاء وصاح فيه بصوت عريض :

— اخرس يا ابن . . . ياوضيع يا . . . ألم تكن جالساً إلى المكتب ؟

— نعم .

— ماذا كنت تفعل ؟ أكنت تكتب رسالة أم تقرأ كتاباً ؟ .

فلم يجب مليم لأنه لم يدر ماذا يقول .

— والله يا كلب لو فتحت فمك مرة أخرى لأعرفن كيف أسكتك . أطلعه ياعسكرى على طريقة إسكات الحيوانات الثرثارة .

فانهال الشرطى بقبضة يده على كتف مليم حتى كاد يهوى إلى الأرض .

— تفضل ياعمربك .هل كان مع المتهم أدوات يستعملها فى فتح الأدراج ؟

— أجل كان معه أدوات كثيرة ولكنها كانت موضوعة على المكتب ؟ وأظن أنه لم يكن قد استعملها بعد .

وهنا خرج خالد عن صمته لأول مرة فقال :

— هذه أدوات عمـــله يا حضرة الضابط فكان من الطبيعى أن توجد معه .

قطب أحمد باشا وانبعث الشرر من عينيه .

— أرجو أن تحترم التحقيق ياخالد . إننى حين كنت وكيلا للنائب

العام لم أكن أسمح لأحد بمقاطعة الشاهد ، فإن عاد الشخص إلى المقاطعة أخرجته من حجرة التحقيق . فرجائي ألا تضطر حضرة الضابط إلى اتخاذ هذا الإجراء .

واستأنف عمر شهادته قائلا :

— حين رأى الغلام بدا عليه الاضطراب ثم وقف حائراً لا يدرى ماذا يفعل . فسألته عن علة وجوده فى الغرفة فأجابنى متلعثماً بأنه أتى لإصلاح النافذة . وحينئذ استدعيت الخادم ، واستوضحته الأمر ، فقال إن الغلام جاء لإصلاح النافذة حقاً . فذهبت إلى المكتب واختبرت أدراجه فوجدتها سليمة ، ثم طفت بعينى فى أنحاء الحجرة فلم أجد بها نقصا . فأخليت سبيل الصبى ، واكتفيت بأن أنبت الخادم لتركه له فى الحجرة منفرداً ، فأجابنى بأن أخى خالد كان بالحجرة فى ذلك الوقت ، ثم غادرها دون أن يستدعيه لمراقبة الغلام . وحين عاد والدى من عمله قصصت عليه ما حدث ، فأخبرنى بأنه كان قد وضع فى صندوق نافذة حجرة المكتب خمسمائة جنيه ، وأنه اضطر إلى ذلك على أثر ضياع مفتاح خزانته . فأمرت الخادم بإحضار السلم وصعدت بنفسى وفتحت صندوق النافذة فلم أعثر للمبلغ على أثر . وحينئذ لم يجد والدى بداً من إبلاغ الحادثة إلى الشرطة .

كانت هذه الشهادة هى الأساس الذى قام عليه اتهام مليم . وبعدها جاءت شهادة خالد . ولكنه كان مضطربا لا يدرى ماذا يقول . ظن فى أول الأمر أن هناك خطأ لا يلبث أن ينجلى فتظهر براءة مليم . فلعل الغلام لم يتيسر له استدعاؤه لسبب أو لآخر وفقا لما تم عليه الاتفاق . وقد يكون حرصه على المكافأة جعله يمتنع من تسليم النقود لأخيه عمر على أن يعيدها بعد ذلك إلى الباشا نفسه . كم كان بوده لو استطاع

مقابلة مليم قبل مواجهة المحقق . فلو علم بحلية الأمر لأمكنه أن يصور شهادته على النحو الذى يفيد مليم . ولكن والده أسرع بابلاغ الحادث إلى الشرطة ، فلم يتمكن من رؤية الغلام إلا حين جىء به مقبوضاً عليه.

انصرفت نية خالد أول الأمر إلى أن يغفل من شهادته ذكر المؤامرة التى تم الاتفاق عليها بينه وبين مليم . وكان يستتبع هذا الإغفال ألا يذكر أنه رأى النقود مع مليم أصلا. فقد كان مما يجرح كبرياءه أن يظهر أمام والده بمظهر المتآمر على تجريده من بعض نقوده . ولكنه حين سمع شهادة أخيه وجد أن تهمة مليم أصبحت أقرب إلى الثبوت منها إلى الانتفاء . ثم أن مليم لا بد ذاكر هذه الواقعة حين يدلى بشهادته . فمن الحكمة إذن أن يسبقه إلى ذكرها لعل فى ذلك ما يجعل موقف الفتى أحسن حالا .

ولكن جال برأسه خاطر آخر أورثه اضطراباً شديداً . ماذا لو قال الفتى أنه أعطاه النقود فعلا قبل أن يغادر الحجرة ؟ إن روايته حينئذ لما تم عليه الاتفاق بينه وبين مليم تبدو مهلهلة سخيفة . إنه يرى من الآن ابتسامة الرثاء التى سترتسم على شفتى المحقق حين يسمعها . فهى على هذا الوضع الأخير ستبدو للضابط من طراز الروايات التى يسمعها كل يوم من عشرات المتهمين ، الذين يحاولون ستر جريمتهم باختلاق قصة عجفاء لا يمكن أن يصدقها عقل .

ماذا يفعل إذن ؟

سأله المحقق عن اسمه وعمره ومحل سكناه ، ثم قال :

ـــ ماذا تعرف عن هذا الحادث يا خالد بك ؟

بدأ خالد يسرد تفاصيل الحادثة كما وقعت ، فلما وصل فى شهادته

إلى عثور مليم على النقود ، تردد لحظة ثم وجد نفسه يروى الحادث بلا وعى منه .

ـــ هل سلمك النقود حينئذ ؟

ـــ نعم .

تململ الباشا فى مقعده ، ثم قال وهو مغيظ :

ـــ ولكنك لم تذكر لى هذه الحادثة فى الصباح !

ـــ هذا ما وقع .

وعاد المحقق يسأله :

ـــ وبعد ذلك يا خالد بك ؟

ها قد وقعت الفأس فى الرأس ، وأصبح التراجع مستحيلا ، فلم يكن هناك بد من أن يذكر قصة المؤامرة بسائر تفاصيلها . ما كان أشد اضطرابه حينئذ ! رأى والده يقطب ثم يزداد تقطيباً كلما استرسل فى روايته ، ورأى علائم الدهشة ترتسم على وجه الضابط ، ثم خيل إليه أنه يلمح على شفتيه تلك الابتسامة اللعينة التى توقعها . كاد يجن . لقد أصبح المتهم الحقيقى فى نظر المحقق . لقد قال أنه استلم النقود ثم قال إنه غادر الحجرة ، فمن يصدقه إذ يقول أنه أعاد النقود إلى مليم قبل أن يغادر الحجرة ؟ ما أغباه وما أسخفه !

ولشد ما شعر بالارتياح لأبيه حين سمعه يقول :

ـــ أرجو يا حضرة الضابط ألا تصدق حرفاً واحداً مما يقوله هذا الفتى .

ثم التفت إليه وانفجر صائحاً .

ـــ أما تخجل من نفسك ؟ أهذا أوان الروايات الخرافية التى يصطنعها رأسك المخبول ، فتضيع وقت حضرة الضابط بهذا العبث الفارغ !

ثم عاد يخاطب المحقق قائلا :

— يا حضرة الضابط. إن هذا الفتى غريب الأطوار ، ولقد قاسيت منه ما قاسيت . ولكنى أعلم عن تجربة أن ليس كل ما يقوله صحيحاً . فإن فى نفسه دوافع شاذة وأفكاراً صبيانية ، كثيراً ما تدفعه إلى قول ما يعتقد أنه أصوب ولو لم يكن صحيحاً فى الواقع ، وفى ظنى أنه الآن قد تملكته فكرة تبرئة هذا الغلام فقال ما قال .

دهش الضابط لهذه المشاحنة ووجد فيها تسلية نادرة .

— لا بأس يا سعادة الباشا فالحقيقة لا بد أن تظهر آخر الأمر .

والتفت الضابط إلى مليم يسأله :

— هل حدث ما رواه خالد بك ؟

فأجاب مليم باقتضاب :

— نعم .

لم يملك الباشا حينئذ إلا أن يظهر تبرمه بالوسيلة التى اتبعها المحقق .

— ما كان لك أن تسأله هذا السؤال يا حضرة الضابط .

غير أن الضابط الشاب ساءه أن ينتقد عمله بهذه الطريقة وخاصة أمام جنوده . ولذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يجيب قائلا :

— أرجو من سعادة الباشا أن يترك لى حرية توجيه التحقيق .

— هذا حق لا أسمح لنفسى بمناقشته . ولكنى أسألك أكنت تنتظر من الغلام غير هذا الجواب؟ إنه يسعى جهده لتلمس أية وسيلة للنجاة ، وها قد سنحت له فرصة فريدة فكيف لا ينتهزها ؟ إننى أكبر منك سناً يا بنى . ولقد زاولت تحقيق الجرائم حقبة طويلة . لذا أرجو أن تقبل نصيحتى عن طيب خاطر . إن الطريقة المثلى فى التحقيق هى أن يكوّن المحقق لنفسه نظرية شاملة للجريمة . وعليه بعد ذلك ألا يوجه من

الأسئلة إلا ما يؤيد هذه النظرية . وبغير هذه الطريقة تجد المحكمة أمامها تهمة غامضة مضطربة ، لا يلبث الدفاع أن يجد فيها منافذ كثيرة ، فيبادر باستغلالها ، وكثيراً ما يصل من طريقها إلى تبرئة متهم لا شك فى جرمه. هذا المتهم لم يكن ليبرأ لو قدم المحقق إلى المحكمة تهمة متماسكة الأواصر متينة الأركان .

سمع خالد نظرية والده فوجد فيها صورة مطابقة لنفسيته السوداء التى تسعى جهدها إلى إلحاق الضرر بالآخرين . وكاد يصيح قائلا إنها نظرية فاسدة ألف مرة . ولكنه لزم الصمت . كفاه غباوة وسخفاً . لقد أدت به هذه الغباوة إلى ورطة شديدة ، فليسكت الساعة فلعل فى هذه النظرية نجاته .

أما الضابط فقد عاد يقول :

— لا بأس يا سعادة الباشا ، فالحقيقة ستظهر آخر الأمر .

فقال الباشا فى سره : « ما أغباك يا حضرة الضابط ! »

واستأنف الضابط التحقيق فسأل خالد قائلا :

— وبعد ذلك يا خالد بك ... هل أرسل الغلام لاستدعائك على حسب الاتفاق بينكما ؟

— كلا

— وماذا تم بعد ذلك ؟

— لا أدرى. فلم أر الغلام بعد ذلك إلا حين جيء به منذ لحظات .

— وهل كنت مطمئناً إلى أن الغلام سينفذ ما اتفقتما عليه ؟

وحينئذ لاحت لخالد بارقة أمل . إنه يستطيع إذا أحسن استغلالها أن ينجو من المأزق الذى انحدر اليه . ولم يكن يفكر فى هذه اللحظة إلا فى نفسه ، ولذا لم يتردد فى اتباع الخطة التى عزم على تنفيذها . وهو إن

كان قد أطرق برهة كأنما يفكر فى أمر ، فما ذلك إلا لسبك الخطة التى سينتهجها .

— الحق إننى شعرت فى وقت الحادث أننى أستطيع الاعتماد على أمانة الغلام . ولكننى إذ أفكر فى الأمر الآن ، أجد أننى قد أكون أخطأت التقدير

— هل صدر منه ما يمكن أن يوحى إليك بالشك ؟

— أجل . فإننى قبل أن أغادر الحجرة التفت إلى الغلام قائلا ، ألا تخشى أن أنتهز فرصة غيابك فأنطلق بالنقود ؟ ، أما وهو لم يرد النقود ، فمن الجائز أن تكون هذه الفكرة قد اختمرت فى رأسه حين وجد نفسه وحيداً حر التصرف .

التمع سعير الغضب فى عين مليم فلم يتمالك أن يقول :

— حتى أنت أيضاً ...

فالتفت اليه المحقق معنفا :

— تأدب ياولد . هل قلت هذا الكلام ؟

— نعم قلته . ولكن هذا البك يعلم جيداً أنه كان على سبيل الهذر .

ضحك الضابط باستخفاف وقال :

— من السهل على كل متهم أن يدعى أن كلامه صدر على سبيل الهذر .

ابتسم مليم فى سخرية وقال :

— إن مزاح الفقراء وحدهم هو الذى لا يصدق .

— ماذا تعنى ؟

أومأ مليم إلى خالد وقال :

— إنه يفهم ما أعنى . فليتكلم هو إن أراد .

— دعك منه ياخالد بك . ألك أقوال أخرى ؟

كان وجه خالد فى تلك اللحظة يحاكى وجوه الأموات . هذا الفتى

الخامل الذى نشأ فى الأزقة وتربى وسط الرعاع كيف يمكن أن يصوقه نبلا إلى هذا الحد ؟

أحس بقلبه يزيغ بين جنبيه ولم يعد يدرى بما يدور حوله. ماذا دهاه؟ وكيف سمح لنفسه بأن يتسفل إلى أحط دركات النذالة دون أن يعبأ بما سيجره منسلكه على هذا المسكين من مصائب ؟

طال انتظار المحقق فأعاد سؤاله :

ــ ألديك أقوال أخرى يا خالد بك ؟

انتبه خالد من غشيته وأجاب بصوت مبحوح كأنه صادر من أعماق القبور :

ــ ماذا ؟ كلا ، كلا . . .

بدأ المحقق بعد ذلك يستمع إلى شهادة مليم ، فكانت مطابقة لشهادة خالد فى سائر تفاصيلها . فلما أتم حديث الحيلة ، وذكر مغادرة خالد للحجرة ، استأنف شهادته قائلا :

ــ ولكن لم تمض دقيقة أو دقيقتان على خروجه ، حتى فتح باب الحجرة ودخل عمر بك . وحقا كنت فى ذلك الوقت جالسا إلى المكتب. ولكننى لم أكن أعبث بأدراجه كما قال ، كما أن أدوات العمل لم تكن على المكتب ، وإنما كانت ملقاة بجانب الباب . ولما سألنى عما أفعل أخبرته بأننى أريد مقابلة خالد بك لأمر خاص . فانتهرنى مبديا دهشته من أن يكون بينى وبين أخيه أمر خاص ، وقال إننى أستطيع أن أفضى إليه بما كنت أريد الإفضاء به لأخيه . وحينئذ شعرت بحرج موقفى. فقد كان عمر بك محقا فى قوله . ولم يكن فى وسعى أن أفضى إليه بأمر الاتفاق الذى رسمه خالد بك . لهذا لم أجد بدا من أن أقص عليه ماحدث من عثورى على النقود فى صندوق النافذة .

ـ وماذا تم بعد ذلك ؟

ـ سلمت إليه النقود .

قفز عمر فوق كرسيه صارخا :

ـ كذاب وقح .

فتأمله « مليم » مليا ثم قال :

ـ لست أنا الكاذب . وأنت تعلم جيداً أنى لست السارق

ضحك الضابط ساخراً ثم قال

ـ الحق أنى لم أر متهما في جرأة هذا الغلام ياسعادة الباشا .

ثم التفت إلى مليم قائلا :

ـ إذن فأنت تتهم عمر بك بأنه هو الذى استولى على النقود ؟

ـ لست أتهم أحداً . لقد أخـــذ منى النقود ولـكنى لا أعلم ماذا فعل بها .

ـ عظيم . عظيم . وبعد ذلك ؟

ـ بعد أن أخذ عمر بك النقود وقف برهة طويلة يفكر . ثم رأيته يضغط الجرس ، فلما حضر الخادم سأله عن سبب وجودى بالحجرة ، ثم أخذ يعنفه على تركه إياى بلا مراقبة . ولـكننى لم أحتمل هذا القول ممن يحمل فى جيبه الدليل المادى على أمانتى . فهممت بالاحتجاج ولـكنه أسكتنى بغلظة . وأمر الخادم بأن يلقينى إلى الخارج . وفى عصر اليوم جاء هـذان الشرطيان فألقيا القبض على وأحضراني هنا .

* * *

ظلت هذه الخواطر تضطرم فى رأس مليم وهو جالس على أرض السجن إلى أن أضنته الذكريات فنام .

الفصل الرابع

دفع خالد باب حجرة أخيه برفق ثم وقف لحظة منصتا، فلما لم يسمع حركة ما. تقدم على أطراف أصابعه بعد أن رد الباب بحذر. فلما بلغ منتصف الحجرة رأى صورته منعكسة على إحدى المرايا فوقف عن السير فجأة. أحس بأن الضحك يغالبه ويكاد ينفجر من فيه. فقد ذكرته صورته المنعكسة فى المرآة بأرسين لوبين وأمثاله من أبطال القصص البوليسية. لم يكن يعوزه إلا أن يتلثم وأن يمسك غدارة بإحدى يديه وخنجراً بالأخرى.

ولكن وقته لم يكن يتسع للضحك أو للسخرية بمؤلفى هذه القصص. كان عليه أن ينجز عمله فى أسرع وقت قبل أن يفطن أحد إلى وجوده فى غرفة أخيه. إنه الآن فى حاجة إلى الدليل المادى فلو تمكن من العثور عليه ضمن تبرئة مليم. أما الدليل المعنوى فقد تطوعت الأقدار بتقديمه منذ ساعة.

كان خالد جالساً فى حجرته يقرأ كتاباً فيما ورد اليه فى بريد الصباح، وكان منصرفاً اليه يلتهم صفحاته التهاماً. وبينما هو على هذا الحال إذ سمع جرس المسرة يدق دقاً متواصلا دون أن يعبأ به أحد. ولم تكن هناك حيلة لمنع هذا الإزعاج إلا أن يقوم إلى المسرة بنفسه.

ـ ألو. من يا فندم؟

فأجابه صوت نسوى خليع متسائلا.

ـ عمر؟

لم تكن هذه أول مرة يقع فيها هذا الحادث . فكثيراً ما أمسك بالمسرة وإذا بأصوات نسوية تسأله أأنت عمر ؟ وكان مرجع ذلك أنه بالرغم من شدة اختلاف هيئته عن هيئة أخيه، فإن صوتيهما كانا متشابهين حتى لو أغمضت عينيك وخاطبك أحدهما ، لم تستطع أن تعرف من المتكلم منهما . وكان خالد كلما سألته هاته النسوة سؤالهن التقليدى صاح بهن وذكرهن بالحكمة القائلة بأن الوقت من ذهب، ثم ينعى على المجتمع الفاسد الذى جعل من النسوة موسمات يتصيدن الرجال . وقبل أن يبدأ بتبشيرهن بمجتمع صالح تنال فيه المرأة حريتها واستقلالها فتعف عن التبذل الخ . . . تكون المتكلمة قد قطعت حديثه بسيل من عبارات الاستهزاء ، ثم تنتهى المحادثة بضحكة ساخرة أو بنصحه بأن « يروق » دمه ويملك أعصابه .

ولكنه فى هذه المرة أحب أن يسمع ما تريد أن تقوله هذه المرأة لأخيه عمر . لهذا لم يثر عليها كعادته ، بل قال إنه عمر . وبدأت المرأة تسأله عن أشياء وأشياء فكان يجيبها بطريقة مبهمة ، جعلت المرأة تسأله عما به ولماذا هو على غير عادته من المرح . لعله غاضب منها ؟ فنفى خالد ذلك بشدة وقال :

— كل ما فى الأمر إننى أشعر اليوم بتوعك ألزمنى الفراش طول النهار .

— لا بأس عليك يا عزيزى . ولكن بالله أخبرنى أنك لست حانقا على . إننى أعرف قدر تقصيرى فى تأخرى عن شكرك على هديتك المدهشة . ولكنى سأعترف لك بالسبب . إنك حين أرسلت إلى العقد أول أمس لم أصدق أنه من الجواهر الحقيقية . فذهبت اليوم إلى الصائغ فأكد لى أن ليس به حجر واحد زائف ، وعرض على أن يشتريه بأربعمائة جنيه .

ولكنى قلت له بأننى لن أتخلى عنه ولو دفع لى عشرة أضعاف هـــذا الثمن . ومنذ تلك اللحظة أدركت أن عزيزى عمر يحبنى حقاً كما أحبه .
إن سعاد ـــ فتاتك المخلصة ـــ فى شدة الشوق لرؤيتك . أريد أن أظهر مقدار شكرى لك و... أخبرنى . هل تحضر الليلة ؟
ـــ أين ؟
ـــ فى « الصالة » كالعادة . ماهذا السؤال الغريب ؟
ـــ لقد دفعنى إليه إشاعة سمعتها ، هى أنك تعاقدت مع « صالة » أخرى.
ـــ أف ! . ألا يشبع الناس من ترديد الإشاعات ! كلا . اطمئن . فأنا مازلت فى صالة « سميحة » .
ـــ حسناً . حسناً . إلى الملتقى أيتها الحبيبة العزيزة الغالية .

هاقد بان الأمر ، واتضح أن مليم كان أصدقهم جميعاً . من أين لعمر أربعمائة جنيه وقد اقترض منه خمسة جنيهات منذ أقل من أسبوع ؟ كان يعرف عن أخيه أنه زير نساء . فقد تخصص فيهن كما يتخصص عالم فى دراسة جرثومة من الجراثيم . وكان يعرف أنه مسرف مستهتر . ويعرف أنه بالرغم من حمله شهادة عليا فهو أمى فى الواقع ، ولولا أنه مضطر إلى إمضاء بعض الأوراق التى تعرض عليه فى الوزارة التى حشره فيها والده حشراً لنسى الكتابة والقراءة . ويعرف أن دنيا عمر أخيه هى دنيا عمر الخيام ، بيد أنه استعاض عن جدول الماء بساحات الرقص . يعرف أنه سباق إلى الكذب، يحسن النفاق ويفتن فى المداهنة . وهذه الخاصية الأخيرة هى السر فى حسن صلاته بأبيه . فبالرغم من أن أحمد باشا على علم بمعظم مباذل عمر ، تراه على استعداد دائماً لأن يغتفرها له . ذلك أن المسألة عند أحمد باشا ـ كما هى عند معظم الناس ـ مسألة معاملة لا أعمال . ولا ريب أن عمر يعامل والده معاملة ترضيه وتلذه . فالفتى الأريب يعرف مواطن الضعف فى أبيه فينفذ إليه منها . فهو عنده

« بابا الباشا » على الدوام . يقوم إذا دخل ولا يجلس إلا بإذن ، لا يتكلم إلا إذا سئل ، ويجيب بصوت خافض ينبض بالخشية والاحترام . وهو بعد لم يئس فى صباح ما أن يقبل راحة أبيه .

كان خالد يعرف كل هذا عن أخيه . ولكنه لم يكن يعرف أنه يستطيع أن يسرق . أو أن نفسه تسول له تحطيم حياة فتى مسكين . فإذا بالأقدار تثبت أن فى وسعه ارتكاب الوزرين معاً .

لم تكن مهمة خالد باعتباره بوليساً سرياً بالمهمة العسيرة . فهو يعرف أن أخاه يترك جميع أدراج دولابه مفتوحة ، إلا درجا واحداً يحرص على إغلاقه ويحتفظ دائماً بمفتاحه . هذا الدرج يحوى الرسائل الغرامية التى تأتيه من عشيقاته ، وبعض التذكارات المهداة إليه منهن . ولكم عرض هذه البضاعة على خالد وأرغمه على سماع ما يتعلق بها من أقاصيص ، وكان يسميه « درج الهوى » .

إن ضالة خالد المنشودة إن وجدت فلن تكون إلا فى « درج الهوى » . والوصول إلى محتويات هذا الدرج من أسهل الأمور . فما عليه إلا أن يخلع الدرج الذى يعلوه ، ثم يمد يده من فتحته فتصبح بضاعة « درج الهوى » جميعها ملك يديه .

* * *

فى مساء هذا اليوم دق خالد الباب حجرة أبيه ثم دخل عليه وبادره بقوله :

ـــ يا أبتاه . لقد جئت أحدث فيك رجل العدل .

نظر أحمد باشا إلى ابنه نظره المستريب ثم قطب وقال :

ـــ هات ما عندك .

أخرج خالد من جيبه شريطاً أحمر وعرضه على أنظار أبيه .

ـــ أتذكر هذا الشريط ؟

أخذ الباشا بهذه المفاجأة وظل يحدق فى الشريط دون أن يجيب .

ـــ وهل تذكر هذا الظرف ؟

وبسط أمامه ظرفاً عليه عنوان « البنك الأهلى »

جذب الباشا الظرف والشريط من يد خالد ، ثم وقف وقال مزمجراً :

ـــ أين وجدت هذين ؟

ـــ فى حجرة عمر .

ـــ ممن يدرينى ؟ إننى لم أعد أثق بك .

ـــ لا يزال لديه خمسون جنيهاً مودعة أحد الأدراج وهى جديدة لم تمس ملفوفة برباط البنك .

ـــ كيف عرفت ذلك ؟

ـــ لقد رأيتها بعينى ، وفى وسعى أن أطلعك عليها إن أردت .

ـــ إذن فقد استبحت لنفسك أن تفتش حجرة أخيك الغائب .

ـــ أجل . لقد اخطأت فى حق مليم فلا بأس بأن أصلح خطئى بآخر .

ـــ وأين بقية النقود ؟

ـــ اشترى بها عقداً لراقصة تدعى سعاد تعمل فى « صالة سميحة » . إن فى وسعى أن أثبت صحة كل حرف أقوله لك .

تهالك أحمد باشا على مقعده واعتمد برأسه على كفه ساعة دون أن يتكلم . وأخيراً سمعه خالد يتمتم قائلا :

ـــ يسرقنى أنا ! أنا والده ورب نعمته . . .

كاد خالد يبتسم ، وكاد يقول « الولد سر أبيه » . ولكنه لم يبتسم ولم يقل شيئاً ، واكتفى بالتأمل فى صلعة أبيه المطرق . وبعد هنيهة رفع أحمد باشا رأسه ونظر إلى ابنه نظرة تحد وقال :

— وأنت . . . ماذا تريد ؟

— الأمر واضح يا أبتاه .

— لعلك تطلب منى أن أحمل عمر على الاعتراف بجرمه ؟

— إنك أول من يعلم أن القانون ينظر بعين الرعاية إلى الأبناء الذين يسرقون آباءهم ، ولذلك يعفيهم من العقاب . إن عمر لن يناله ضير من الاعتراف بجرمه .

— وفى سبيل أية غاية تريد فى أن ألطخ شرفى وسمعتى بهذه الوصمة الشنعاء ؟

— فى سبيل تبرئة مليم المظلوم .

— مليم . . . أجاد أنت فى قولك ؟ من يكون مليم هذا ؟ إننى على استعداد لبذل ألف مليم فى سبيل المحافظة على سمة طفل من أسرة خورشيد .

— لقد سمعت هذا القول عينه من لسان ناظر ضيعتك القديم إذ نما إليه أن عمراً يتودد إلى ابنته . قال فى ثورته هو الآخر أنه يطيح بألف رأس من أسرة خورشيد قبل أن تمس شعرة من جسد ابنته . هذه جميعاً ألفاظ جميلة تملأ الأشداق ، ولكنها لا تؤدى إلى معنى .

— ما أغباك ! إن هذه القشرة الظاهرة التى تغلف مخك ، والتى تحسبها ذكاء ، إنما تستر فى الواقع غباوة مجسمة . إن المجتمع أيها الشاطر لا يقوم على أفراد العامة ، ولكن على الأسر الكبيرة . والأسر الكبيرة عروش صغيرة تبذل الأرواح من أجل بقائها والمحافظة على شرفها . لقد جئت تحدثنى باعتبارى قاضياً عادلا ، وأنا بهذا الاعتبار أرى أن العدالة الحقة ـ لا الظاهرة ـ العدالة التى تكفل سلامة المجتمع وتقدمه هى فى التجاوز عن مليم فى سبيل المحافظة على شرف أسرة كبيرة كأسرتى .

— هذه الفلسفة تمت إلى عهد سحيق كانوا يسمونه عهد الاقطاع ،

وأظننا نعيش الآن فى عهد يسمونه عهد الحرية والمساواة . ثم إنى لا أدرى لماذا تصف أسرتنا «بالكبيرة» ؟ لأنه إن انصرف هذا الوصف إلى العدد فإن أسرة سائق سيارتك تفوقنا عدداً ، وإن أردت الاصالة والنسب فإننا لا نعرف نسبنا إلا إلى الجد الثالث . وبعده تنقطع سلسلة أسرتنا المتواضعة التى لا نعرف من يكون عميدها الأول . ولعله كان بائع « بصطرمة » . هذا على حين تجد من بين أسر الفلاحين أسرات تستطيع أن تصعد بنسبها إلى الجد السابع . أما ونحن لم نعد فى العهد الاقطاعى ، كما أن أسرتنا ليست بالكبيرة فرجائى إليك أن تسعى إلى تبرئة مليم .

كان خالد يسترسل فى خطابه دون وعى ، فلما أتمه أسف على صدوره منه ، إذ خيل اليه أنه قد استثار غضب أبيه وهو اليوم أحوج الى رضائه . ولكنه عجب حين رآه يبتسم ابتسامته المقيتة ويقول :

— حسناً أيها الفتى المجيد حفيد بائع « البصطرمة » . إننى أوافق على السعى إلى تبرئة مليم ولكن على شرط ...

— أى شرط ؟..

— أن تعيد نقودى إلى

— هذا يقال لعمر لا لى

— لقد تفضلت باخبارى أنه انفقها على عشيقته فما سبيله إلى ردها ؟

— وهل فى حبسك لمليم ما يرد لك نقودك ؟

— أجل يا شاطر . أجل . إن المصنع الذى يشتغل فيه مليم يتبع أحد كبار المقاولين . فلو ثبتت إدانة مليم كان من حق أن أطالب هذا المقاول بأن يرد إلى النقود المفروض أن تابعه سرقها ، إذ أن القانون يجعل السيد مسئولا عن خطأ خادمه .

أما والمسألة أصبحت مسألة نقود فقد أيقن خالد أنه خسر قضيته

بالإقناع ، فرأى أن يجرب وسيلة الاستعطاف

ـــ ألا تشعر يا أبتاه ، وأنت جالس جلستك الهادئة كل مساء ، بالألم يحز فى قلبك حين تذكر أنك كنت السبب فى أن يستبدل فتى مظلوم عالمه الرحيب بحجرة قذرة مظلمة ؟

ـــ أكنت تظن فتاك المظلوم يسكن فى « الكونتنتال » ؟ إننى من هذه الناحية قد خدمت الغلام ولم أظلمه . فهو ينام فى مكان أنظف من الذى كان ينام فيه ، ويأكل طعاما أفضل من الذى كان يأكله . أؤكد لك أن السجن بالنسبة لهذه الطبقة من الناس يعتبر نعمة لا عقابا

وهكذا أخفق الاستعطاف أيضاً فلم يبق أمامه سوى الوعيد

ـــ إذن أنت مصر على رأيك ؟

ـــ إصرارك على رأيك .

ـــ إنك تضطرنى فى هذه الحالة إلى أن أقف منك موقف الخصم فى المحكمة . فسوف أشهد أمام القاضى بكل ما ذكرت لك اليوم

ـــ لن يجديك فتيلا ما دمت لا تستطيع تقديم الدليل

ـــ هبنى استطعت أن أثبت واقعة إنفاق عمر لمبلغ يقرب من المبلغ المسروق فى وقت يعاصر زمن وقوع الجريمة ؟

ـــ سأشهد حينئذ بأننى أعطيته هذا المبلغ وأنه غير المبلغ المسروق

ـــ وهذا الشريط وذاك الظرف ؟

ـــ لن يكونا تحت يدك

قال ذلك وأسرع بوضع الشريط والظرف فى جيب سترته الداخلى .

ثارت ثائرة خالد ووجد نفسه يتقدم نحو أبيه وقد تقلصت يداه .

وتراجع الباشا وهو يرتعد فرقا ثم أخذ يصيح

ـــ اخرج من هنا أيها المجرم . اخرج من هنا .

غير أن خالد ظل يتابعه ببطء

ــ لن أخرج إلا إذا كان الشريط والظرف معى

وكان الباشا فى هذا الحين قد بلغ المكتب فاحتمى وراءه وأخذ يضغط زر الجرس ويصيح

ــ انك تريد قتلى أيها النذل . يا صالح . يا عمر . تعاليا اقبضا على هذا المجرم .....

فتح باب الحجرة ودخل صالح النوبى مهرولا فتهالك احمد باشا على المقعد وهو يلهث من شدة الخوف .

ــ اقبض عليه يا صالح . إنه يريد قتلى . امسك ذراعيه . أخرجه من هنا ...

وفى لحظة وجد خالد نفسه مطوقا بذراعى النوبى القويتين . وما أن أحس الباشا بأنه قد أمن اعتداء ابنه حتى عاد فاستأسد فوقف شامخ الأنف وقال فى غطرسة .

ــ لن تبيت الليله أيها الوغد الساقط تحت سقف منزلى .

فأجابه خالد وهو يرمقه بنظرات من نار .

ــ لا الليلة ولا أية ليلة سواها . هذا فراق بينى وبينك الى الأبد .

ooo

صدر الحكم على مليم بحبسه سنة ونصف سنة مع الشغل والنفاذ . وكان طوال المحاكمة التى استغرقت ثلاث جلسات ملتزماً الصمت التام . يطلب منه أداء شهادته فلا يفتح فاه . تسأله النيابة ويسأله الدفاع فلا يجيب بحرف . ويضيق صدر القاضى فينهره ويتوعده فيثبت بصره فى القضبان الحديدية وكأنه لم يسمع شيئاً مما يطلب منه إبداء أقواله بشأنه . وفى فترات الاستراحة يأتيه خالد فيسأله جلية الأمر ويرجوه أن يعدل عن موقفه فما يزيد عن أن يبتسم ويهز كتفيه . كان كأمير نبيل وقع أسيراً

فى أيدى جماعة من البرابرة ، فهو لايهتم بتبرئة نفسه عندهم . إن الرسوم التى يقوم بها سحرتهم وكهانهم إنما هى محافل يبسطون بها أنفسهم ، ويذلون أسيرهم الذى سيلاقى مصيره المحتوم ولو ملأ الدنيا صياحا واستعطافاً . فالأصون لكرامته أن يصمت .

أما خالد فقد كان حاله غير هذا الحال . اجتمعت فيه حسن النية وقلة التجربة ورعونة الفتوة ، فكاد يكون مثالا حياً للصديق الجاهل ، الذى هو أضر من العدو العاقل . فلم تكن أقواله أمام المحكمة شهادة شاهد ، بل دفاع محام يستنبط الأدلة ويكيف الوقائع ويحشد جيوش المنطق فى سبيل تبرئة المتهم الذى يدافع عنه ، فبدت شهادته منمقة ملفقة . ولم يتأخر محامى أحمد باشا عن انتهاز الفرصة فألهب خالد بسياط من السخرية اللاذعة ، كانت تضج لها قاعة المحكمة بالضحك . ولم يقف الأمر عند هذا الحد . فإن الروايات الغريبة التى حوتها شهادة خالد ، والأعمال البوليسية التى قام بها عقب الحادث جعلت القاضى ينظر إلى أقواله بعين الريبة . ثم مالبثت هذه النظرة أن استحالت إلى تبرم من تلك الخيالات المرتبكة التى يضيع بها وقت المحكمة ، واحتقار لهذا الفتى الجاحد الذى يعرض بأبيه على هذا الوجه ، وأبوه ذلك الرجل العظيم الذى يخشى الناس بأسه . وقد تجلت هذه المشاعر فى معاملة القاضى له . فهو يقاطعه بغلظة ، ويسفه آراءه ، ويسخر بأقواله ، ويرده بعنف كلما أراد الاسترسال فى التعليق على واقعة ما ، ويعنفه كلما تعرض لذكر أبيه ، ولم يمتنع أخيراً من إبداء أسفه علنا لمسلك هذا الابن الشاذ .

لاغرو أن كانت عينا خالد مغرورقتين بالدموع حين انتهى من شهادته . كانت حاله مما يرثى له طيب القلب ويسخر منه بقية الناس . ولو كان أحمد باشا حاضرا الجلسة لما وسعته الدنيا من الفرح .

كان محامى أحمد باشا من أعلام مهنته ، له صيت عريض واسم براق يكفى مجرد حضوره لتغيير وجه الحقيقة فى بعض الأحيان . وكان لطول عهده بالدفاع يعلم أن القضاة يعمدون إلى النوم إن عمد المدافع إلى التفصيل ، فلم يتناول التهمة إلا من ناحيتها العامة ، وركز هجومه فى نقطة ضعف واحدة ، فإذا بالحجج تترى متساندة ، والكلمات المنتقاة تتدفق من فيه كالعقد المنظوم ، وإذا بالحقيقة تتخذ الشكل الذى يصوغه لها وتسلك السبل التى يختارها . فلما انتهى من دفاعه ترك الأسماع مزورة عن تقبل أية صورة للحادث غير الصورة التى رسمها لسانه البارع ، وإشاراته المعبرة الفائتة .

أما محامى « ملم » فشاب حدث من أصدقاء خالد . فلا غرو أن أصابه من دفاعه ما أصاب خالدا من شهادته . خيل إليه أن المحـــامى الكبير لم يعمد إلى الإفاضة لجهله بالتفاصيل ولعدم استيعابه للدعوى . أما هو فقد قرأ ملف الدعوى عشر مرات . وبدأ دفاعه فإذا كله : أولا وثانياً وثالثاً . . . وأخيراً ملت الأسماع وأحس المحامى الشاب بهذا الملل فما لبث أن تلعثم . فلما تلعثم اضطرب . ولما اضطرب نسى تسلسل الدفاع المعد من قبل . وفى لحظة وجد نفسه معلقاً بين الأرض والسماء ، فكان يتمتم بكلمات مبتورة لاتؤدى إلى معنى . وينتظر لحظات ثم يقول « وزيادة على ذلك » ، ولكنه لا يزيد شيئاً . ويعمد إلى أوراقه يقلبها ولكنها لا توحى إليه حرفاً . ولما تحرج الموقف أصبح يقول أشياء فى غير مصلحة المتهم ، أو يخلط بين المتهم والمدعى المدنى والنيابة العمومية وزملاؤه من حوله ينبهونه أو يتضاحكون منه ، والقاضى يتململ يسأله بين الفينة والفينة « هل انتهيت يا أستاذ » ، « هل هناك شىء آخر يا أستاذ » ؟

وكان يجب أن ينتهى هذا الدفاع على أى حال . فإذا بالمحامى الشاب يختمه بقوله :

ـ بناء عليه ترون حضراتكم أن التهمة ثابتة بطريقة لا تقبل الشك.

فاهتزت أعمدة قاعة المحكمة من ضحك الحاضرين .

وهكذا بين سوء نية الأب وحسن نية الابن ضاع من عمر مليم عام ونصف عام.

الفصل الخامس

اعتاد خالد أن يصرح بين آن وآن أنه يكره الأدب وآثار الخيال، فهو لا يفهم ما يدفع الناس إلى قراءة رواية مثلا . هذه الرواية على أحسن وجوهها لا تعدو أن تكون صورة صادقة من الحياة ، والحياة مبسوطة أمام كل ذى عينين ، وهو يستطيع دائماً أن يراها بنفسه بدلا من أن يقرأها فى كتاب ، ويستطيع أن يستوعب تجاربها مباشرة بدلا من أن يستوعبها على يد وسيط ، أما والحياة لم تفته بعد ، فإن وجود الماء يبطل التيمم .

وكان يفاخر بأنه لن يضبط فى يوم من الأيام وفى يده رواية . ويغالى أكثر من هذا فيقول إنه لن يهتم بقراءة قصة يكون هو بطلها ولو كان كاتبها من أعلام الكتاب . وقد يكون بعض مرجع هذا القول نظرته إلى القصة باعتبارها عملا لاجدوى منه . ولكن العالم النفسانى يحلو له أن يرد السبب الأكبر فى ذلك الى أن هناك مناحى من حياة خالد يخجله تذكرها ، ويزداد خجله لو طرحت هذه المناحى تحت مجهر عين الأديب ، فيظهر من حقائقها ماقد يخفى على الآخرين .

ولعل الحقبة من حياته التى يؤلمه تذكرها أكثر من سواها هى التى تلت تلك الليلة المشهودة التى غادر فيها منزل والده بلا رجعة . فى تلك الليلة قصد خالد منزل صديق له يقطن ضاحية بعيدة من ضواحى القاهرة حيث قضى ليلة ساهرة . ماذا يعمل فى غده وبعد غده ؟ إنه سيترك الوظيفة التى ألحقه بها والده . وهذا لاشك فيه . فكيف يعيش إذن ؟ إنه لايستطيع أن يزاول أى عمل من الأعمال الجدية التى تطعم

الخبز . هذا أيضا لاشك فيه . فهو لم يستطع أن يكون موظفا بلا عمل . حقا إن الحال قد تغير بعد أن نصب معين رزقه القديم . ولكنه لايزال غير مستعد لأن يزاول عملا . فأعمال أكل الخبز جميعا أعمال آلية تافهة لاتفيد فكره فائدة ما ، ولكنها قد تضر نماءه الروحى أبلغ الضرر . أما أعمال الفكر فكفيلة بتشريد مزاوليها وتجويعهم ، كما أنها تحلهم أدنى مرتبة من حيث احترام الناس لهم . فمرتبة الكاتب أو الفنان الفقير فى أمة متوسطة الحضارة كمصر ، تترجح بين مرتبة سائق السيارات ومرتبة كتبة المحامين .

ظل يعاود هذه الأفكار وتعاوده إلى أن انبلج الصباح عن فجر وردى . ولكنه حين وقف يرمقه من الشرفة بدا له كعين قرحتها الدموع . ولقد شاهد عينيه فى المرآة قبل أن يغادر مخدعه فوجد أن هذا الفجر إن هو إلا صورتهما معكوسة فى مرآة الطبيعة .

كان بيت صديقه قائما على حافة رمال الصحراء المحيطة بالقاهرة . ورأى أكواخا لبعض الأعراب ، وفى منحدر أمامها رأى قطعة أرض معشوشبة ترعى فيها أغنام عجاف وبالقرب منها أعراب يوقدون نارا . وفجأة لمعت فى رأسه نار الوحى . إنه عربى وسيشارك الأعراب معيشتهم . ما أمتع حياة البدو المليئة بمغامرات الطعان والنزال وضرب الرصاص . أليس هو فارسا مجاهدا مثلهم ؟ لاغرو أنه كان من المبرزين فى لعبة السيف بين طلبة الجامعة الإنجليزية التى كان بها ، ثم أنه يجيد ركوب الخيل . ولقد خرج مرة فى رحلة إلى واحات سيوة فتمتع بها أيما تمتع . هذه الدلائل جميعها تومئ إلى أن بين جنبيه طبيعة بدوية أصيلة ، وإن كان المجتمع الفاسد قد أعمى بصره فلم يدرك هذه الطبيعة إلا الساعة .

وبعد يومين كان أعرابيان يقيمان كوخا من القصب . والهشيم على

أكمة قريبة من أكمتهم . وبعد ثلاثة أيام بات خالد فى هذا الكوخ ليلته الأولى . وبعد أسبوع بات فيه أعرابى يلبس العباءة والعقال ، ولكن المتدثر بهذا الزى كان خالدا نفسه . أجل هذا الفتى الذى طالما احتقر الخيال كان أجنح الناس إلى الخيال ، هذا الفتى الذى طالما نعى على الناس رومانتيكيتهم كان هو الرومانتيكى الأول .

وجاءه صديقه ذات صباح فأوقد خالد نارا وأصر على أن يهىء له قدحا من الشاى على الطريقة العربية . وعبثا حاول الصديق إقناعه بأن منزلهم على مرمى حجر وأن فى وسعهم أن يجلبوا الشاى من هناك ، ولكن أين تكون المروءة العربيـة حينئذ ؟ وماذا يرى يصنع به حاتم لو سمع هذا القول ؟ قال له :

ـــ كيف تـكون فى دارى وتضيفنى أنت ؟

فضحك الصديق وسكت . وبعد جهود عنيفة ومحاولات مخفقة وناجحة ، قدم له خالد الشاى فى أقداح من الفخار . وكان ردىء الصنع جدا فما أن رشف منه رشفة حتى سأله خالد :

ـــ كيف وجدته ؟

ـــ الشاى ؟

ـــ أجل

ـــ ساخنا .

ـــ إنك لا تجد لشاى الصحراء هذا مثيلا عند « جروبى »

فضحك الصديق وقال :

ـــ أجل إنك لا تجد له مثيلا عند أحد على الإطلاق

قطب خالد وقال :

— ماذا تعنى ؟

— لاشىء .

— لماذا تضحك ؟

— لاشىء مطلقا .

وثب خالد على قدميه وصرخ :

— إنك تسخر منى . . . .

— اجلس أيها الأعرابى بربك .

— لماذا تضحك ؟

— خاطر مر برأسى ضحكت له . تذكر أنه كان معنا فى انجلترا كثيرون مثلك ممن يعتنقون الفلسفة المادية وينظرون إلى الأوضاع القديمة على أنها خرافات البشرية المتوحشة تارة ، وأخيلة شعراء ضعيفى المعدة تارة أخرى ؟

— وماذا فى هذا ؟

— لقد قابلت فى مصر أيضا أناسا من هذا الطراز .

— وبعد ؟

— لقد لحظت أمرا غريبا . لاحظت أن الذين يعتنقون أخيلة الشعراء تراهم فى سلوكهم واقعيين بل ماديين فى كثير من الأحيان . فتقول أناس ضعف إيمانهم . أما أنتم فحالكم الأعجب . إنكم لاتعتقدون إلا فى المعادلات الجبرية ، ومع ذلك فإن سلوكـكم يعيد إلى الذهن رومانتيكية القرن الثامن عشر . أنت مثلا تذكرنى بالشاعر بايرون أو بشيلى لا أدرى . وأعرف فى مصر فتى « جبريا » من فصيلتكم يعيش معتزلا ويقضى وقته فى سماع الموسيقى وكأنه زاهد يتعبد . فماذا نقول فيكم وليس لكم عذر فى عدم إقبالكم على مقارفة كل الموبقات التى نهت عنها

مقاييس الأخلاق التى لاتقرونها ؟

— لعل هذا أيضا ضعف جنان منا .

ظل خالد يرفل فى ملابسه العربية أسبوعين ، وإن كان يؤكد هو أنها ثلاثة أسابيع . وفى تلك الأثناء اشترى عنزة كان يحلبها كل صباح ويشرب لبنها . ووجد أن الصورة لم تتم بعد ، فابتاع صوفا ومغزلا وبدأ يغزل . وكان يخالط البدو من جيرانه ويحضر مجالسهم . فرجع من عندهم ذات يوم فقذف بأدوات حلاقة الذقن . وبعد أيام نظر إلى وجهه فوجد أن لحيته الوليدة مع منظاره الأسود يجعلانه أقرب الى المرابى اليهودى منه إلى الأعرابى الصارم — فقذف بالمنظار .

وهكذا . . . .

وفى ذات ليلة عبر بضعة الأمتار التى تفصل كوخه عن دار صديقه فطرق الباب وقال إنه مضطر الى المبيت لديه الليلة لأنه يقرأ فى كتاب ويريد أن ينتهى منه ، وليس فى الكوخ نور يمكنه من القراءة . ثم تعددت الكتب التى يريد أن ينتهى منها وليس فى الكوخ نور يمكنه من القراءة .

ومرة قال له صديقه الماكر :

— إن الجو حار . ألا تضايقك هذه الملابس الفضفاضة ؟

— أصبت .

وفى الغد كان خالد يرتدى سروالا قصيرا وقيصا مفتوحا . ثم أصبح لايبيت فى الكوخ . وبعد أيام أصبح لايأكل فيه . وحل عيد مولد صديقه فأصر أن ينحر له العنزة . ثم اشتدت حرارة الجو فأصبح المكث بالكوخ صباحا لايطاق . فاكتفى بالذهاب إليه كل أصيل .

وهكذا . . . .

وأصبح الكوخ مهجورا بعد شهر وبعض شهر ، وإن كان خالد يؤكد أنهما شهران . وعاد صديقه الماكر يقول :

— ألا ترى أن تهدم الكوخ ؟

فحملق خالد فى خادم صديقه البضة اللعوب وقد أتت تحمل طعاما . ثم قال :

— لعلى أبيت فيه بين وقت وآخر .

فاحمر وجه الخادم حياء وخفضت بصرها .

جاء الرسول يقول إن والدة خالد قد اشتد عليها المرض وأنها تريد أن تراه . أسرع إليها فوجدها طريحة الفراش ، ولما رأته مدت إليه يدها فهوى عليها يقبلها وقد خنقته العبرات ، ثم نظر الى وجه والدته فإذا بها قد عادت شابة فى سن العشرين . وأحس بأنه يحبها حبا ضخما يملأ جوانب نفسه ، ولكنه لم يدر كيف يعبر عنه بغير البكاء . لم تكن والدته وهى على فراش مرضها هذه العجوز المملة التى اضطرت فى وحدتها القاتلة الى أن تسلى نفسها باصطناع مظاهر وعادات كانت تنفره منها ، ولكنها عادت آدمية طيبة ساذجة كطفل خرج الساعة من بطن أمه .

لشد ما أنبه ضميره فى تلك اللحظات ! إن والدته كانت دائما آدمية طيبة ساذجة . ولكنه لم يكلف نفسه مرة أن يخترق قشرتها الظاهرة لينفذ الى أعماق نفسها الجميلة . كان أنانيا الى أقصى الحدود . يفتقد الناس ولا يرى محاسنهم . لابد أن سلوكه معها قد أحزنها أشد الحزن . فهو وإن كان يعاملها باحترام لم يظهر لها هذا العطف الذى كانت فى أشد

حاجة إليه لأنه غذاء حياتها . أجل . لقد كان حال أمه يكون غير هذا الحال لو صادفت عطفا من أبنائها ومن زوجها . ولكن الأسرة جميعها كانت منصرفة عنها . ولولا أنها على ثراء كبير لساء مركزها أضعافا .

لكم ود وهو يمسك بكفها لو استطاع أن يعوضها عن كل ماسلف من تقصير ! إنه يجلس إلى جوارها كل مساء يحدثها إلى أن ترتمى فى أحضان النوم . إنه يوقظها بقبلاته كل صباح كأنها زوج له . إنه يلجأ إليها ليطلعها على كل شئونه ويشركها فى أفراحه وأتراحه . إنه يتخذها أما وأختا وصديقا .

ولكن هيهات فهى تحتضر .

لم يعد إلى دار صديقه هذا المساء . بل قضى ليلته فى الكوخ . كانت والدته قد أسلمت الروح بين ذراعيه . وكانت نظرة الحب والامتنان التى ودعته بها لاتفارق مخيلته لحظة . ولكن لا . إنها ما نظرت إليه هذه النظرة إلا لكيلا تتركه فريسة لتأنيب الضمير . أرادت أن تشعره بأنها قد صفحت عنه . ولكن هذا الصفح الظاهر هو الدليل القاطع على ذنبه الضخم .

واستولى عليه أنه قاتل أمه . فهو لو غمرها بحبه لما مرضت . ولو لم يترك المنزل لما ماتت .

وبعد شهر من هذه الفاجعة سمع والده يقول له :

— أنت قاتل أمك . إن يديك ملطختان بدمها .

ألقى أحمد باشا بهذه التهمة فى وجه ابنه بعد نقاش عنيف دام ساعة طويلة . كأنما هذا الرجل يقرأ فكره . ولكنه تمالك واستجاب لشفتيه ابتسامة ساخرة ثم قال :

— من شابه أباه فما ظلم .

— إن عدت إلى هذا الأسلوب فالأجدر أن نختتم حديثنا .

— كان الأجدر أن نختتمه منذ وقت طويل . ولست أدرى لم ألحفت فى طلب مجيئى ، فلما جئت وجدتك تحاورنى وتروغ منى فلم أخلص من كلامك بنتيجة ما . كل ما استطعت فهمه أنك تريد ـ لسبب ما ـ أن تسترضينى وأن تكسب مودتى . فسمعتك تطلب منى أن أعود إلى المنزل وأنك سترتب لى نفقة شهرية أصرفها كما أريد . أخبرنى . ماوراءك ؟

نهض أحمد باشا من كرسيه وتمخ بأنفه ثم قال :

— أيها الفتى لقد زادت فحتك ولم ترعو . أرانى مضطراً مرة أخرى لأن أطلب منك مغادرة منزلى .

— وأرانى أنا الآخر مضطراً مرة أخرى لأن أذكرك بأننى فى منزل المرحومة والدتى . ولعلى وارث فيه أكثر مما ترث .

— يحزننى أيها الأفندى أن أخبرك بأنك لا ترث فى هذا المنزل قيراطاً واحداً .

— ولماذا أيها الباشا ؟ هل اتضح أخيراً أننى لم أكن ابناً لوالدتى ؟

— إن المرحومة والدتك قد باعت لى هذا المنزل كما باعت لى كل ما تملك نظير ديون كانت لى فى ذمتها .

— ديون ! أكنت تقرضها بالربا ؟

— ليس هذا من شأنك .

— من شأن من إذن ؟ لقد كانت والدتى أوفر منك ثراء فكيف تستدين منك ؟

— إن لهذا قصة طويلة .

— وستكون لها قصة أطول مما تظن . الآن عرفت سر استرضائك لى .

فأنت تعلم يقيناً أن هذه المبايعات المدعاة لاتستطيع أن تقف على قدميها فى وجه القانون .

— إننى أعلم منك بالقانون أيها الأفندى .

— سنرى أيّنا « السنجق » . . .

واستعر أوار الحرب بين « الأفندى » و « السنجق » ، فقد أصر كل منهما أن يطلق على الآخر هذا اللقب الذى اختاره له إذا ما تحدث عنه للآخرين فيقول أحمد باشا لابنه عمر :

— قل للأفندى إنه إذا لم يحمل محاميه المأفون على تغيير اللهجة التى يتناولنى بها فى مذكراته ، فسأعرف كيف أغلق مكتب هذا المحامى . وأكمم فمه .

فإذا ما أبلغ عمر هذا الكلام إلى خالد أجابه ضاحكا :

— حنانيك . حنانيك . قل « للسنجق » : كل ابن أنثى ... إنه لم ير شيئاً بعد . بقى الاستعراض الكبير الذى سيتم قريباً فى افتتاح الموسم القضائى المقبل . فلعلك لا تعرف أن أباك « السنجق » العتيد لم يسعفه الوقت وهو يصنع أحد العقود فى إتمام شكليات لابد منها فلجأ إلى التزوير . التزوير المادى الصريح . اذهب وأخبره بهذا كيلا ينام ليلته .

هكذا حمى وطيس القضايا بين الأب وابنه ، أو لنقل بين « السنجق » و « الأفندى » ، حتى لا نغضب أحدهما . فكان إذا رفع أحدهما دعوى أجابه الآخر باثنتين . وإذا وكل أحدهما محامياً يحمل لقب بك ، وكل الآخر محامياً يحمل لقب باشا ، وإذا طبع أحدهما مذكرة بدفاع ما اجتهد فى أن يوزعها على أكبر عدد من الأقارب والأصدقاء .

كانا يحبان قضاياهما حب الأم لوليدها . فهما ينتظران مايصدر فيها من قرارات أو أحكام بلهفة الصائم يترقب مدفع الأفطار . ويسعيان

جهدهما ليعرفا آخر ما وصلت إليه من تطورات . وفى مرة تأخر صدور حكم من الأحكام إلى الساعة الثالثة بعد الظهر فلم يتناول أحمد باشا غداءه وانتظر بحوار المسرة إلى أن أحاط علماً بمنطوق الحكم . أما خالد فقد توجه فى هذا اليوم إلى المحكمة من الساعة الثامنة وظل بها هذه الساعات الطوال إلى أن نطق بالحكم . وكان الحكم تمهيدياً ولكنه فى صالحه . فكان هو أول من بشر « السنجق » بهذه النتيجة تليفونياً واختتم محادثته قائلا :

ـــ الآن تستطيع أن تتناول طعامك بشهية ، وإن كان من الأفضل أن تدخل مخدعك لتوارى همومك فى طيات النوم . ستقول إنك لم تعد تعرف إلى النوم سبيلا . . . فى هذه الحالة أنصحك بتناول دواء ظهر حديثاً له أثر فعال فى تهدئة الأعصاب . أتريدنى أن أذكر لك اسمه ؟ و ..

ولكن أحمد باشا كان قد أنهى المكالمة بعد أن وجه إلى ابنه كل ألفاظ السباب التى أسعفته بها قريحته .

وكان غريباً أن يعنى خالد كل هذه العناية بالقضايا المترددة بينه وبين أبيه ، مع أنه لم يكن يحفل بالماديات ولا يعرف للنقود قيمة . ولكنه إذا ما سئل فى ذلك يجيب قائلا :

ـــ إن هذه الدعاوى التى أقمتها على السنجق هى فى الواقع دعاوى المجتمع وما أنا إلا أداة . فالمجتمع يكسب كثيراً لو افتقر السنجق . ويخسر كثيراً إن اغتنى . بل إن السنجق نفسه لن تصلح له حال إلا إذا ضاعت ثروته .

ولم يكن لخالد من الموارد ما يمكنه من الإنفاق على هذه القضايا الباهظة . لهذا لم يجد مفراً من أن يتحالف مع « الأعداء » الذين أوسعوا له صدورهم . أما هؤلاء الأعداء فلم يكونوا إلا عماته اللواتى يشاركنه فى كراهيته لوالده ، واللواتى جعلن من قضايا خالد قضايا شخصية لهن

فاهتمن بإشعال نارها بقدر اهتمام خالد بذلك . ولقد اختار خالد من بين عماته الثلاث واحدة أقام عندها . وكانت هذه العمة أبعدهن شبهاً من أبيه . وهذه ميزتها الأولى . أما ميزتها الثانية فهى أنها أرملة وليس لها من الأولاد سوى كاعب فاتنة اسمها نعمت . وكان لنعمت ذراعان بضتان جميلتان ، تعمد دائماً إلى الكشف عنهما . لهذا لم يكن هناك بد من أن يختار خالد هذه العمة نفسها ليقيم معها .

والحديث عن خالد فى هذه الحقبة من حياته حديث عن تطورات النزاع القضائى بينه وبين أبيه . فقد انتقل الزمن من عام إلى عام والقضايا مابرحت مطروحة أمام المحاكم لم يفصل فى واحدة منها . بل إنها على العكس من ذلك نمت وتكاثرت وأعقبت خلفاً وزعته على معظم محاكم القطر .

إلا أن حديث القضايا لا يلذ . فلنترك خالداً وحيداً فى كفاحه القضائى ثم لنعد إليه بعد عامين لنرى ماتم فى أمره وأمر ، ليم .

الجزء الثانى

الفصل الأول

فى حى « الخيامية » ربع عتيق يطلق عليه قاطنوه اسم « القلعة » . « والقلعة » هذه كانت فى الأصل قصراً لأحد المماليك . أو هى على الأصح دار أطلق عليه صاحبه اسم القصر ، لأن صاحبها مملوك ، ولأن المملوك لا يسكن إلا قصراً . فلم يكن فى الدار من معالم القصور سوى باب خشبى ضخم ، ينفتح على دهليز مظلم يؤدى إلى صحن به حوض من الرخام . ولعل المملوك كان يملأ هذا الحوض بالماء ، ثم يجلس إليه فى الأصيل بين أتباعه ، ويصفق فتحضر له النارجيلة المطهمة ؛ فإذا به - فى وهمه - سلطان من السلاطين .

ولا بد أن صاحب هذا القصر قتل بالخنجر أو بالسم ، لأنه مملوك ، ولأن المماليك - لأمر ما - لم تكن تموت ميتة طبيعية . ثم لعل عدوه استولى على قصره بعد أن قتل وارثه وتزوج امرأته جرياً على سنن المدنية فى ذلك الحين . ولا بد أن تقتيلا كثيراً حدث وزواجاً متعدداً تم منذ ذلك العهد . إلا أن الزواج فى عرف الناس لم يكن ليمحو أثر القتل إلا من نفس الأرملة الشابة . فلما أن اطردت الأعوام ، وأهل القرن العشرين على عالم حى الخيامية ، شاع بين أهله أن هذا القصر « مسكون » ، وأن الجن تعبث فيه بالليل فتملأه ضجيجاً وصياحاً . وسرعان ما انتشرت القصص الكثيرة التى يصوغها صناع الخيام ليشغلوا بها ألسنتهم المتعطلة . ولكنها وإن شغلت ألسنتهم فقد قضت على الدار بالبوار . وكانت الدار فى آخر عهدها تابعة لوزارة الأوقاف ، فزاد ذلك من أنواع

الجن التى تسكنها . وإذا بالدار تظل شاغرة قرابة عشرين عاما .

وبينما الوزارة فى حيرة من أمر هذا القصر المشئوم إذ تقدم لها فتى يدعى نصيف، وطلب استئجاره بجنيهين شهرياً لمدة ثلاثة أعوام . عشرة غرف فسيحة - فيما عدا الباب الخشبى الضخم والحوض الرخامى - كل هذا بجنيهين شهرياً ... إنها ولا ريب صفقة رابحة . إلا أن الناس ظنوا أن بالشاب عتها أو سفهاً . فهو لو رضى بسكنى هذه الدار على أن يعطى جنيهان فى الليلة الواحدة لكان هو الخاسر . فقد بلغت قيمة الرهان فى وقت من الأوقات خمسة جنيهات لمن يقبل أن يبيت به سواد الليل فلم يتقدم أحد .

أما نصيف فلم يعبأ بهذه الأشاعات المخيفة ولم يعن أقل عناية بتحقيق صحتها أو زيفها . فالجن لديه خرافة ساذجة مسكينة ، لأنه استطاع - وهو يرى نفسه ويثقفها - أن يطرد من رأسه خرافة أضخم من خرافة الجن ، وأقرب إلى العقل والتصور . ذلك أن نصيف كان يعتنق ديناً غريباً جاء به نبى يدعى «زاردشت» ، وهو لذلك يعتقد أنه خالق نفسه ومبدع العالم . ولكنه حين يعصر ذهنـــه ويستعرض فى ذاكرته ما أبدع وما سوى ، لا يذكر أنه خلق شيئاً اسمه جن . فالجن لذلك لا توجد فى دنياه . ولكنها مع ذلك قد توجد فى دنيا الآخرين ممن عنوا بتزويد عالمهم بهذه المخلوقات العربيدة التى لا جدوى منها . هذه الفئة من الناس لم تقتصر على خلق الجن ، ولكنها أبدعت طغاة كثيرين آخرين ، إذ كان كل ما يسعون إليه هو ألا يصبح الإنسان حاكماً بل محكوما . فالإنسان إما أن يمسك بالسوط أو يجلد به . إلا أن أغلب الناس يستمرئون الجلد لأنه يعفيهم من مهمة الضرب الشاقة . هؤلاء ينكرون بشريتهم ويهربون منها . فللضرب والكفاح والسيطرة يخلق الإنسان نفسه . هكذا قال « زرادشت » .

لهذا وجد نصيف لذة كبيرة فى أن يشيء قلعته فى دار يغتصبها من بعض جلادى البشر ، فينتزع منهم أسواطهم ويشوى بها ظهورهم . ثم أنه وجد فى ذلك فوق اللذة فائدة .

ذلك أن نصيف لم يكن شخصاً متعطلا . ومعنى ذلك لديه أنه لم يكن يمتهن مهنة ما ، بل يستمتع بحياته كلها . أما الموظفون وأصحاب الحرف فهم قوم متعطلون ، لأنهم يصرفون أنفسهم عن الحياة بوسائل لاتختلف عن تعاطى القنب والأفيون . وهم متعطلون لأنهم يعطلون عمل فكرهم فلا يدعونه ينطلق إلى حيث يشاء ، بل يمسكون بتلابيبه ويسخرونه فى البحث عن عدد الدقائق التى يتأخرها المرظف فى شهر ، أو عدد المرضى الذين يجب أن يمتص الطبيب دمهم حتى يصبح ذا ثراء . أما العلماء منهم فيجلسون إلى مكاتبهم ثمانى ساعات يومياً طوال حياة كاملة ليبحثون : أكان الإنسان هو الذى ابتدع الشر أم كان الشر موجوداً قبل خلق الإنسان . والويل لهؤلاء جميعاً إن ثار فكرهم فأمسك بالزمام ! إنك تسمع حينئذ عن حوادث الانتحار وعن ازدياد النزلاء فى مستشفيات الأمراض العقلية .

إن الإنسانية يجب ألا تحتمل تعطلا إلا فى سبيل تسوية آلة أو غرس نبت . هذه ضريبة يجب أن يساهم فيها البشر كل على قدر طاقته مادام لابد للإنسان أن يشبع حاجات جسده . وإن تقدم الصناعة سيخفف من عبء هذه الضريبة إلى أقصى حد . وسوف يأتى وقت لايتعطل فيه المرء إلا بضع دقائق فى اليوم ثم ينصرف بعدها إلى حياة الكفاح الفكرى .

ولكن نصيفا لم يكن صانعاً ولا فلاحا ، فضلا عن أنه لا يمتلك ثروة خاصة . لهذا استأجر « القلعة » فأفرد لنفسه حجـــرة علوية هى أفضل الحجرات وأكثرها اتساعاً . أما بقية الغرف فقد أجرها لأناس متباينين بإيجار يختلف بين جنيه وجنيه ونصف لكل غرفة . ولم يجد نصيف

صعوبة فى الحصول على مستأجريه . فقد عرف نوع الأفراد الذين عليه أن يتوجه إليهم بالعرض .

فالقلعة تقع فى حى يعتبر أنموذجاً للأحياء الشرقية التى تستهوى السائحين من شتى أنحاء الأرض ، والمناظر التى تقع عليها العين فيه هى مناظر الصور الملونة التى تعرض فى معارض المكتبات تحت عنوان « تذكار من مصر » . فإنك إذا انتهيت من شارع تحت الربع وانحرفت إلى حى الخيامية وجدت شارعا مسقوفا بالخشب ، وبالسقف فتحات مربعة تنفذ منها أشعة الشمس كأنها خيوط من ذهب وفضة ، فيخيل إليك أنك لا ترى معالم حقيقية ، ولكن صورا من صور الأحلام . هنا عاش الشاطر حسن ، ومن خلال هذه « المشربية » كانت ترمقه حبيبته قمر الزمان . أما السندباد فيسكن فى الدار المواجهة ، وإلى جواره يقطن حسن الصياد . هنا تستطيع أن تجد كل شخوص ألف ليلة التى قرأت عنها ولم ترها . هنا تستطيع أن ترى كل المشاهد الخيالية التى أصبحت رمزاً لسحر الشرق وغموضه فى العالم أجمع . وسيد هذه المشاهد جميعاً هو مشهد السوق . تلك هى الحوانيت الصغيرة تطالعك من الجانبين . هذا بطرقة يدق وذا على سلم يصيح . هنا مطرزو الخيام وصانعو الجلود . فى هذا الحانوت تستطيع أن تأكل أشهى فطير فى العالم . وفى ذلك الحانوت أمهر صانع لشراب الشعير . السابلة فى هرج ومرج ، والصياح يتصاعد من كل جانب مختلطاً بأصوات المطارق ورنين المعادن . النسوة المتسربلات بالحرير يخطرن متثنيات متمهلات وأعينهن السود الفاتنة تلمع من وراء الحجب . ولا يملك القوم أن يحبسوا إعجابهم فيصيحون فى إثرهن قائلين : « ياقمر ، ياباشا » . وإذا نظرت إلى الخلف اختطف بصرك منظر بوابة المتولى الشامخة الملأى بالأسرار ، والمطلية على جماع تاريخ القاهرة

المعزية عاصمة الشرق وعروس المدائن .

أى نوع من الجان يمكنه أن يقف فى طريق من يستطيع استغلال هذا السحر كله ؟ إن موطن الصعوبة هو فى اختيار من يؤثر فيهم هذا السحر . فأما المصريون عامة فإن حى الخيامية يعتبر بالنسبة إليهم « من الأحياء البلدية الفقيرة » التى تؤذيهم بقذارتها وبانحطاط مستوى المعيشة فيها . لهذا كان نصف مستأجرى قلعة نصيف من الأجانب ، والنصف الآخر من المصريين الذين ينظرون إلى وطنهم بمنظار الأجانب ، وجميعهم ممن يشتغلون بالفن أو الأدب أو الصحافة ، وذلك غير نجار وحلاق . اندسا وسط هذه الزمرة الفريدة . ولعلهما أيضا يمتان إلى الفن بصلة ، فقد كان النجار يرتدى على الدوام جلبابا أسود تزينه أزرار لامعة من الصدف ، أما الحلاق فإنه يطيل سوالفه ، كأنه يمتلك عوداً يستطيع أن يعزف عليه بعض الأنغام فى بعض الأحيان .

لا عجب إذن أن اشتملت هذه القلعة على أعجب عصبة تضمها جدران منزل واحد . ولعل مما يزيد فى غرابة هذه العصبة وشذوذها أن مليم ووالده « مجذوب حوش عيسى » كانا من بين أعضائها .

خرج مليم من السجن فى الشهر الذى أفرج فيه عن أبيه ، وظل متعطلا فترة من الزمن ، ثم عمل بإحدى القهوات التى كانت مسرحاً لنشاط والده فيما مضى ، ورآه نصيف هناك وكان يعرفه من قبل فعرض عليه أن يلتحق بخدمته ، وكان مشروع القلعة قد دخل فى ذلك الحين فى حيز التنفيذ ، وقال له مليم :

— لعلك تعدل عن هذا الرأى إذا علمت أننى أصبحت من خريجى السجون .

فأجابه نصيف :

ـ كنت أعلم هذا ومن أجله اخترتك .

ـ حتى إن علمت أن تهمتى كانت السرقة ؟

ـ لن تجد عندى شيئاً تسرقه . أخبرنى هل التحقت بالمدارس الإلزامية يوماً ما ؟

نظر إليه مليم مدهوشاً ، وقال :

ـ إننى لم ألتحق بأى نوع من المدارس فى أى يوم من الأيام .

فهز نصيف رأسه وقال :

ـ هذا هو السبب .

وقد اعتاد نصيف أن يوجه هذا السؤال إلى كل من يلقاه من عامة الصبيان ، فإذا ما أجابه محدثه بالنفى أو بالإيجاب هز رأسه وقال : «هذا هو السبب» ، حتى إذا لم يكن هناك مسبب يحتاج إلى سبب . أو مهما تبعد الصلة بين التعليم الالزامى وبين ما أثار السؤال من مناسبات .

التحق مليم بخدمة نصيف واصطحب معه كلبه « فيدو » الذى وجده بعد خروجه من السجن قابعاً أمام منزلهم فى هدوء وطمأنينة ، كأن لم يحدث شىء . وما أن دخل مليم القلعة حتى أعجب بها أول وهلة . لقد أدرك أنه قد عثر من جديد على دنياه الحرة الطليقة فى نطاق هذه الدار العتيقة . وسرعان ما صنع لكلبه وكراً خشبياً وضعه فى ناحية من الدهليز المجاور للباب ، كما سوى لنفسه فراشاً أقامه فى ناحية الدهليز الأخرى ، ثم انطلق فى أرجاء القلعة ينظمها ويصلح من أمورها حتى بدت كفندق حسن الترتيب يشرف عليه مدير سويسرى ممتاز . ولم يرقه صحن الدار الأجرد فغرس فيه زهوراً وأشجاراً ، كما استطاع بمساعدة النجار الذى يقطن بالدار أن يقيم ظلة أنيقة تحيط بالحوض الرخامى وتلتف عليها

النباتات المتسلقة . أما الحوض فقد امتلأ بالماء وأصبح يسبح فيه سمك أحمر .

شعر قاطنو القلعة بعد مجيء مليم بأن الحال أصبح غير الحال . وبأن الإقامة فى هذه الدار العتيقة صارت ممتعة حقاً . بعد أن كانوا قد أحسوا بنوع من خيبة الأمل فى أول عهدهم بها . وكان معظمهم بعد أن أمضوا بالقلعة شهراً أو شهرين أصبحوا لا يقيمون بها إقامة مستمرة ، فاتخذها بعضهم « برجا عاجياً » يلجئون إليه كلما نزعوا إلى الوحدة ، واتخذها البعض الآخر وكراً للغرام يجلبون إليه عشيقاتهم كلما ضاقت بهم السبل . أما الرسامون منهم فقد أحالوا غرفهم إلى « ستوديوهات » لا يقصدونها إلا كلما أرادوا رسم صورة أو تسوية تمثال .

وأحس نصيف بأن مشروعه يوشك أن يخفق . وكان يعرف رسامة أجنبية تدعو نفسها « هانيا » . ولم يكن لهانيا هذه جنسية معروفة ، فهى تارة بولونية وتارة مجرية وأحياناً روسية إن دعا الأمر . هى فتاة نحيفة القوام ضئيلة الجسم ، إلا أن لها شعراً أشقر وعينين زرقاوين يشع منهما بريق غريب يضفى على وجهها ملاحة طريفة . كانت قد حضرت إلى مصر منذ خمسة أعوام ، معتقدة أنها تستطيع الوصول إلى الثراء والشهرة فى وقت وجيز . إلا أن الأقدار أخلفت ظنونها فلم تصادف معارض رسومها إقبالا من الجمهور ، وإذا بها تجد نفسها أفقر مما جاءت . فاضطرت أخيراً إلى إعطاء دروس فى الرسم لبعض فتيات الأسر الغنية . والواقع أنه لم يكن للفتاة موهبة فنية حقة ، كما أن أسلوبها فى الرسم كان قاصراً محدوداً ، وألوان صورها ناشزة قلقة لا تدل على فهم صحيح لروح الظلال والأضواء . ولعل عقلها الباطن — هذا الرجل الطيب الذى يلطف دائماً من غباوة الإنسان — قد استطاع أن يقنعها من

طرف خق بأنها لن تفلح فى هذا النوع من الرسم ، فكان أن اتجهت إلى نوع آخر هو ما يسمونه « ما فوق الواقعى » . هذه المدرسة الفنية الحديثة قد جعلت من العقل الباطن نبياً ضخماً عالماً بكل حقائق الكون وأسراره . وصور تلامذة هذه المدرسة ومؤلفاتهم قد تحتوى على إشراقات ذهنية لامعة ، ولكنها فى أغلب الأحيان تكون أشبه الأشياء بمخزن للمخلفات القديمة ، أو كمانوت مخصص لبيع مختلف الأدوات المستعملة ، فتنعدم فيها بذلك الرابطة الجوهرية بين عناصر العمل الفنى . فبدلا من أن يكون الفن هو خلق عالم متسق يفسر بعضه بعضا ، إذا به يصبح على أيدى مريدى هذه المدرسة قطعة خربة من الأرض تضم فى رحابها أشياء متنافرة متنابذة : سمك ، لبن ، تمر هندى . . . . لا فكرة ولا غاية .

فلا عجب إن كانت هانيا ترسم صوراً لا يفهمها الناس ، ولا تفهمها صاحبتها ، والصور ذاتها لا تفهم نفسها .

أغرى نصيف الفتاة بالسكنى فى قلعته فلم تتردد كثيراً إذ لم يكن لها فى مصر قريب أو نسيب ، وأحدث قدومها ضجة بين السكان ، وأصبحوا أكثر إقبالا على القلعة ، وقد خيل لكل منهم أنه الفارس الذى سينجح فى الاستيلاء على قلب الفتاة . ولكن هانيا لم تظهر اهتماماً كبيراً برفاقها الفنانين ، كما أنهم لم يظهروا اهتماماً بآرائها الفنية . فإن النسوة من الفنانات لسن ممن يستحب الاستماع إلى حديثهن . فالفن عندهن هو ما عملنه وما يزمعن عمله . لا شىء غير ذلك ، بل لا يمكن أن يكون هناك شىء غير ذلك .

لهذا عاد سكان القلعة إلى حالهم الأول ، واستمروا كذلك إلى أن ظهر مليم على المسرح ، ووقف المجذوب بالباب . لقد أحال هذا الفتى

الصامت تلك الدار المتهدمة منتدى نضيراً يجد المرء فيه كل ما يحتاج إليه . فيه طعام وفيه شراب . فيه أمكنة يحلو الجلوس فيها بعد أن كان بلقعا . فيه مرح وفكاهة وروح اجتماعية تربط بين أهله . فيه حرية مطلقة ونظام دقيق فى الوقت نفسه . فيه المجذوب معين تسلية لا ينضب . ولكن الأهم من ذلك كله هو مليم هذا الفتى الساحر الغامض الذى ملك عليهم الأفئدة والمشاعر .

أصبح مليم على مر الأيام أداة التنفيذ الوحيدة فى القلعة . فإذا أراد أحد « الرفاق الأنذال » — وهو الاسم الذى أطلقه ساكنو القلعة على أنفسهم — شراء شىء طلب ذلك من مليم . فمليم هو الذى يعقد صفقاتهم ، وهو الذى يصرف أمورهم ، وهو الذى يحل مشكلاتهم ، وليس غيره من يخلصهم من أى مأزق يتورطون فيه . ومليم أيضا هو الذى يخلط لهم ألوانهم ، وهو الذى يعد أقلامهم ومحابرهم ، ويجهز حجارة التماثيل وأدوات النحت .

كان الوفاق ذات ليلة جالسين فى الظلة يحتسون الخمر . وصاحت هانيا تنادى مليم ، وكان إلى جوارها فتى يدعى سعد الدين يشتغل بإحدى العجلات الأسبوعية فإذا به ينفجر ضاحكا ويقول :

— لعلك تريدين من مليم أن يشرب لك كأسك ؟

— لقد سكرت يا سعد

— بلا ريب فلا يمكن أن أشرب أنا ويسكر مليم مثلا . ولكنك أحكم منى ياهانيا ، إن مليم سيشرب أما أنت فتسكرين من غير شرب .

وانتهز الخواجه « خورين » هذه الفرصه فأراد أن يتدخل فى الحديث . وخورين هذا أرمنى متمصر . كون والده ثروة من صناعة النعال . ولكن الابن أحس بنوازع الفن تضطرب فى أحشائه ، فاكتفى

بما جمعه له أبوه من مال . وجاء إلى القلعة ليتلقى أصول الفن على يد هانيا.

— أنت غير محق ياسعد فإن هانيا تسكر من خمر مليم .

فقالت الفتاة محتدة :

— إنى أمنعكم من هذه الغمزات المبتذلة.

فضحك سعد وقال :

— لاتغضبى ياهانيا فالواقع أن مليم قد أصبح زوجنا جميعا .

ولكن الفتاة لم يرقها هذا القول . أو هى لم ترغب فى أن تتورط بالسكوت عليه فأصرت قائلة :

— إن مليم مجرد خادم.

وتكلم نصيف — وكان دائماً آخر من يتكلم — فقال :

— هذا قلب للأوضاع يا رفيقى . فإن مليم اليوم هو سيد القلعة .

فعادت الفتاة تقول :

— إنه شخص تافه .

وقال سعد :

— بل هو شخص ممتاز . ولا أنكر عليكم أيها الرفاق إننى أحترمه أكثر مما أحترم نفسى .

وكان لا بد لنصيف حينئذ أن يقول قوله .

— إنه ليس بالشخص التافه ولا بالشخص الممتاز . ولكنه فتى عادى ، وهذا هو سر سلطانه عليكم . فنحن أيها الرفاق فتيان مخفقون . أما مليم ففتى ناجح فى مهنته . ولكنه لو وجد فى بيت تاجر أو موظف لكان مجرد خادم كما تقولين يا هانيا . إذ التاجر والموظف شخصان محترمان لأنهما يعتبران من الناجحين فى المجتمع الذى نعيش فيه . فمليم إذ يشتغل لديهما لن يحتل سوى مركزه الطبيعى . أما نحن فعصبة منبوذة

ونغم شاذ فى لحن المجتمع . لهذا فإن الناس لا يقدروننا بل يسخرون منا ويحتقروننا . وهذا شىء طبيعى لم نكن ننتظر سواه . ولكن الذى يؤخذ علينا حقاً هو أننا نحن أيضاً لانقدر أنفسنا . إن فى قرارة نفس كل واحد منا تساؤل عريض : ألا يكون المجتمع هو الأصدق نظراً ؟ فنحن فى الواقع لا نثق بأنفسنا وهذا وحده هو السبب فى أن شخصية مليم ضخمت فى أعيننا فاتخذت صورة شخصيات الأساطير الخرافية .

والتفت سعد قائلا :

— أقسم أنك قد قرأت خلسة قصتى التى كتبتها عن مليم . فإن تعبير : « شخصيات الأساطير الخرافية » وارد فيها بنصه .

ضحكت هانيا وقالت وهى مطرقة :

— يظهر أن كل واحد منا قد اتخذ من مليم موضوعاً لفنه . فلقد رسمت له صورة أسميتها « السيد مليم » وكنت مزمعة أن أعرضها عليكم غداً

فقال خورين ساخراً :

— سمعنا أنه مجرد خادم !

— إنه سيد فى الصور فقط .

هز نصيف رأسه وقال :

— يافتاتى . . . وهل نعيش نحن إلا فى الصور ؟ إننا نحيا داخل إطار ، وقلعتنا هذه ليست سوى صورة كبيرة ملقاة إلى جانب الطريق.

ولم يكد نصيف يتم كلامه حتى فاجأهم صوت الأستاذ « شتا » وقد أقبل مهرولا يقول :

— لا تجزع أيها الرفيق . لا تجزع . فعما قريب سنمسك بزمام الأمور . لقد سمعت اليوم عاملا يقول : إن السادة فى البرلمان لا يشرعون إلا لأنفسهم » . وهذا معناه أن آراءنا قد تغلغلت فى نفوس الشعب ،

ولم يبق إلا الشرارة التى تشعل النار . ولهذا جئت إليكم مسرعاً لنرتب أمورنا حتى لا نؤخذ على غرة . أنا رئيس الحكومة . هل يعارض أحد من الرفاق ؟ أما هانيا فلأنها أجنبية سأدع لها وزارة الخارجية . . .

كان الأستاذ « شتا » هذا موظفاً صغيراً عند أحد سماسرة القطن الأجانب . هذا هو جزؤه الظاهر للمجتمع . أما هو فقد كان يقول إنه لا يهب لوظيفته إلا أظافر يديه وشعر رأسه . أما يداه ورأسه فهما ملك للأستاذ شتا الحقيق عاهل السينما فى مصر بعد حقبة وجيزة . والحق أن شتا قد قرأ كثيراً عن السينما والمسرح ولكنه لم يطبق معلوماته القيمة إلا مرة واحدة . وكان ذلك حين قام بدور بائع عرقسوس فى إحدى الروايات المصرية . ولعل تمثيله لهذا الدور قد أثر فى نفسه أكبر الأثر فهو دائما يمشى منبعج البطن ، مدلى اليدين ، مرفوع الرأس ، بالرغم من أنه لا يحمل إناء العرقسوس فى حياته العادية . ولكنه مع ذلك على قدر كبير من الذكاء ، وإن كانت معلوماته سطحية فى الغالب ، حصلها من قراءة الملخصات الصغيرة التى تصدر فى كل فن .

وعاد شتا يقول :

ـــ أيها الرفاق الأنذال . إنكم تعلمون نظريتى فى فن الإضاءة : النور والظلال ولا شىء غير النور الظلال . ثم ستائر بيض وأخرى سود . هذا هو مسرحى . لا مقعد فيه ولا مائدة ، ولا أبواب ولا نوافذ . والآن أرهفوا آذانكم ، وعطلوا قلوبكم عن الخفقان ورئاتكم عن التنفس . فستسمعون الفصل الأول من المسرحية الأولى التى ستمثل على مسرح النـــور والظلال : أما عنوان هذه المسرحية ، فهو : « مليم الأكبر » . . .

° ° °

أتى « المجذوب » إلى القلعة حين أصبح مليم كثير التغيب عنها . فكان يحل محله فى غيابه ، ويلزم الباب إذا حضر . وأصبح مليم كثير التغيب عن القلعة لأنه لم يعد خادما فحسب بل صار أيضا صاحب عمل . وكان عمله يدر على قاطنى القلعة مالا يفوق كسب أى واحد منهم ، وهو بعد عمل يسير لا يكلفه جهداً ينافى طبيعته الحرة التى تفزع من القيود . إنه مجرد التجول فى شوارع القاهرة ساعتين كل أصيل . ولا يظنن أحد أنه كان ينشل المارة خلال هذا التجوال . بل هى حيلة بارعة وقع عليها ذات يوم حين كان يداعب كلبه « فيدو » ، فتوجه إلى هانيا وأطلعها فلم توافق على تنفيذها . فلجأ إلى نصيف وشرح له حيلته فرحب بها ووعده بالسعى لدى هانيا للحصول على موافقتها .

وقد ابتكر مليم هذه الحيلة فى وقت كان مركزه فى القلعة مهددا دون أن يدرى . فمنذ بضعة أيام طالع نصيف رفاقه برأى ضجوا له ولم يوافقوا عليه . قال لهم .

— إن لدى تجربة أريد أن أثبت لكم بها أن مليم ليس إلا شخصا عاديا . نطرد الفتى ونستحضر أى خادم غيره . وأراهنكم أنه لن ينقضى اسبوع أو أسبوعان حتى يصل إلى المرتبة التى أحللنا فيها مليم .

ولم يكن الدافع الحقيقى لهذا الاقتراح هو إجراء تجربة علمية كما ادعى نصيف ، ولكنه نوع من الغيرة والحسد . فقد كان صاحب القلعة يلذه كثيرا أن يشعر بزعامته على هؤلاء الرفقاء . أن يكون حامل لواء الفكر بينهم . أن ينظروا إليه وهو قابع فى غرفته العليا نظرتهم إلى الرئيس العاكف على الدرس والتحصيل ، فيخفضوا من اصواتهم حتى لا يقلقوا فكره المنكب على وضع خطط العالم الجديد . أن يكون اسم نصيف على أطراف ألسنتهم دائما .

ولكنه أدرك اخيرا ان مليم قد انتزع الزعامة منه فصار قليلة الانظار دونه . إنهم يرسمون له الصور ، وينحتون له التماثيل ، ويكتبون عنه القصص . إنه «السيد مليم» : انه «مليم الاكبر» ... ومن يدرى ما يكون بعد ذلك. لعـــله هو الذى سينام فى الدهليز على حين يحتل مليم غرفة الزعامة العليا . آن إذن أن يضع لهذا الأمر حدا .

ثم كانت حيلة مليم التى انقذته من القضاء المحتوم . لقد كانت تدر عليهم مالا موفورا .

الفصل الثانى

ظل جرس المسرة يدق فى مخدع خالد دون انقطاع . وكان يغط فى نومه فانتفض متفزعا . ولما أن تبين مصدر الازعاج رفع السماعة ووضعها على المنضدة . ثم أغلق عينيه وحاول مواصلة النوم . ولكنه بدلا من أن ينام حلم أنه ذاهب إلى المدرسة فلما أصبح فى فنائها اكتشف أنه حافى القدمين ، ثم ما لبث أن اجتمع حوله لفيف من الطلبة وأخذوا يضحكون منه . ولم يكن نائما بل كان أقرب إلى اليقظة . فاختار أن يغادر فراشه بدلا من أن يقع فريسة لهذه الأحلام الصبيانية التى كثيراً ما عاودته فى الأيام الأخيرة . طالما قام من نومه مضطربا مهموما عقب رؤيا من هذه الرؤى فهو تارة فى سرادق الامتحان وقد انقضى الوقت المخصص للإجابة دون أن يخط حرفا فى ورقته . ويصيح المراقب . «ضعوا الأقلام» ، ثم يأتى اليه ليأخذ ورقته ، فيستعطفه كى يتركه لحظة قصيرة يخط فى أثنائها جملة أو جملتين . ولكن المراقب لا يعبأ باستعطافه وينتزع منه الورقة انتزاعا . فيهم بالبكاء ويعدو خلفه ملحفا فى الرجاء والاسترحام . . . ثم يصحو . وهو تارة على أهبة السفر فينظر إلى ساعته وإذا به يكتشف أنه لم يبق على قيام القطار سوى دقائق قليلة وهو لم يرتد ملابسه بعد . فيأخذ فى جمع أشيائه وملابسه بعجلة عظيمة ، ويحملها تحت ابطه ، ثم ينطلق بالسيارة إلى المحطة ، فيجد القطار قد بدأ يتحرك . ويعدو وراءه مزاحما جمهور الناس الذين يرمقونه فى دهشة وسخرية . ولكنه لا يستطيع اللحاق به . وإذا بالقطار قد أصبح أثرا بعد عين ، وإذا به واقف فى فناء المحطة بملابس النوم والناس من حوله يتضاحكون .

لم يكن يدرك لهذه الأحلام سببا . أهو تأنيب الضمير يتخذ هذه الصورة ؟ أهى رمزية هذه الصور تومىء إلى أشياء لم يستطع كشفها ، أم تراه حقا قد رسب فى الامتحان وفاته القطار ؟

قام إلى النافذه وأزاح سترها ، ثم نظر إلى ساعته فإذا بها منتصف العاشرة . كان يشعر بثقل فى رأسه ويبس فى أطرافه وفكر فى أن يستحم بماء بارد . وفكر فى أن يزاول بعض الحركات الرياضية . وفكر فى أن يخرج إلى الشرفة ليملأ رئتيه بنسيم الصباح لعله ينتعش . ولكنه لم يفعل شيئا من هذا بل ارتمى على مقعد بجوار الفراش وأشعل لفافة تبغ .

دق جرس المسرة عودا على بدء ، فمد يده بتراخ إلى السماعة ، ووضعها على أذنه ثم تكلم دون أن ينزع اللفافة من فمه . وأجابه صوت نسوى قائلا :

ـــ هل تزوجت أمس بعد أن غادرتنا ؟

فأجاب بطريقة آلية وهو لا يدرى ماذا يقول :

ـــ كلا لم أتزوج . هل تزوجت أنت ؟

ـــ إننى لو تزوجت فلن أكون فى حاجة إلى المسرة لكى أخاطبك . ثم أننى لم استيقظ فى الساعة العاشرة مثلك .

فأجاب وهو مغضب :

ـــ إننى لم أستيقظ فى الساعة العاشرة أيتها الآنسة . لقد مضت ثلاث ساعات منذ غادرت الفراش .

ـــ حقا ! لقد حاولت الاتصال بك مرات ثلاثا قبل الآن فلم لم تتكرم بالرد على ؟

ـــ لقد كنت . . . كنت أقرأ فى الحديقة . من السخف أن يضيع المرء ساعات الصباح الجميل داخل الغرف المغلقة .

ـــ دعنا من هذا . أتدرى أنك كنت نجم الحفل بالأمس ؟ لقد كان كل المدعوين لا يتحدثون إلا عنك .

ـــ لا عجب فى ذلك . فقد كنت الآدمى الوحيد فى هذا الحفل .

ـــ حقا . . إذن أنت لست « سوبرمان » مثلنا ؟

ـــ كلا . إن جسمى ـــ لسوء الحظ ـــ لا يزال يشتمل على معدة وأجهزة أخرى لا تعرفينها .

فصاحت الفتاة وقالت باللغة الفرنسية :

ـــ مدهش . مدهش !

ثم تكلمت بصوت مرتفع كأنما تخاطب شخصاً بعيداً :

ـــ هل سمعت يازيزى ؟ ان « الطاحونة الحمراء » عندها معدة ...

فانفجر خالد محنقا :

ـــ قلت لك لا تلقبينى بهذا اللقب . إنه سخيف .

ـــ أنت تعلم أنك حين تسترسل فى الكلام تكون أشبه الاشياء بالطاحونة . على أنه يجب أن تقرأ « فيشر » ياخالد . ألم تقرأ « فيشر » ؟

ـــ كلا . إننى أكتفى بأكل ما ينتجه .

ـــ تأكلها ! هل معدتك التى حدثتنى عنها تأكل الكتب ؟

ـــ أية كتب ؟

ـــ كتب « فيشر » . ألا تعرف فيشر ياخالد ؟ « فيشر » مبتدع « السوبرمان » .

تنهد خالد فى استطالة ثم قال :

ـــ أتسمحين لى بأن أضع السماعة .

ـــ كلا . وحياتك دقيقة واحدة . أخبرنى هل تحضر مأدبة حسين بك هذا المساء ؟ لقد دعانا بالأمس بعد انصرافك .

ـــ ياللمسكين !

ـ هل تحضر ؟

ـ كلا .

ـ كلا . . . إنك لست جاداً . لماذا لا تحضر ؟

ـ لأن حسين صديق .

ـ ألا تحضر إلا مآدب الأعداء ؟

ـ نعم . ولا أقيم إلا فى بيوت الأعداء . ولا أعيش إلا فى مجتمع الأعداء .

ـ إن لم تذهب إلى هذا الحفل فلن أذهب إليه أيضاً .

ـ لن تخسر البشرية كثيراً . إلى الملتقى .

وضع السماعة وظل على جلسته يفكر . إنه لا يدرى لماذا ضايقته هذه المحادثة التليفونية . ولكنه شعر بعدها بمثل الشعور الذى أحس به عقب حلم الصباح . لقد قالت الفتاة إنه كان النجم اللامع الذى بهر الأعين فى حفلة الأمس . ولعل مرجع هذا القول إلى أنه قد ذهب إلى هذا الحفل وهو يرتدى سرواله الرمادى الفضفاض ، وقميصه القطنى المفتوح ، على حين كان بقية الحضور يختالون فى أبهى حللهم ، يفوح منهم العطر وتتألق عليهم الجواهر . ليس له أن يظن أن أحداً أعجب به . فهو لم يكن سوى هذا الصبى المسكين الذى ذهب إلى المدرسة حافى القدمين فاجتمع الطلبة من حوله يتضاحكون .

* * *

كان الصداع يدق رأسه دقا ، فصاح بالخادم ليعد له قدحاً من القهوة . ودق الباب ولكن الخادم لم يدخل ، بل دخلت ابنة عمته نعمت . وإذ رآها قطب وهم بأن يفعل شيئاً . ولكنه سرعان ما أدرك أنه عاجز حيالها فاستسلم للأقدار . كان يكفيه صداع واحد .

تقدمت إليه الفتاة قائلة :

— صباح الخير ياخالد .

فتمتم خالد بما يشبه رد التحية، ثم أشعل لفافة جديدة من اللفافة الفانية . جلست الفتاة على مسند مقعده وقالت :

— لالا ياخالد . إنى لست راضية عنك ، فقد صرت مدمناً للتبغ، مع أنك لم تبدأ التدخين إلا منذ أسابيع قليلة .

فعاد خالد يتمتم بما قد يفهم منه أن رأسه يوجعه . وصمتت الفتاة برهة ثم قالت :

— من كنت تكلم فى المسرة هذا الصباح ؟

هاقد بدأت « التقاسيم »، وسيعقبها « الموال »، ثم فى أثرها التواشيح الطويلة ، التى كان خوفه من سماعها يجعله يتلافى مقابلة نعمت أياما كاملة . ولكنه أجاب فى ثبات المتمرن على أداء دوره :

— إنه الحائك . هاقد نزلت على إرادتك وسيصبح لى عن قريب ثياب منمقة غير ثيابى القديمة التى تكرهينها .

— حقاً ياخالد ؟ إنك الآن تستحق قبلة .

ومط المسكين شفتيه، فلم يكن هناك مفر بعد أن طوقته الذراع البضة . إن القبلة على أى حال أفضل من التواشيح التى يلوح أنها أعفته من إسماعه إياها هذا الصباح . ولكن العناق لم يؤد إلى أكثر من قبلة، فقد أسرع بالنهوض وأطلق رقبته من أسر الذراع البضة قائلا :

— دعينى أفتح باب الشرفة فلعل فساد جو الحجرة هو السبب فى تصدع رأسى .

ولم تكن هذه الخطوة حكيمة، فقد كان العناق هو الدافع إلى الإعفاء . أما وقد رفض أن يدفع الثمن فليتلق الضرب على أم رأسه .

— كلا ياخالد بك . ليست العلة هى فساد جو الحجرة، ولكنها فساد

البيئات التى ترتادها، والسهر كل ليلة إلى مطلع الفجر. أتعرف فى أية ساعة عدت أمس ؟

— إننى لم أعد أمس ولكننى عدت هذا الصباح . أما الساعة فقد كانت منتصف الثانية .

صدر هذا الجواب من خالد على غير وعى منه . ولكنه سرعان ما شعر بالأسف حين أدرك ما قال . كان توجيه سلوكه حيال نعمت يسبب له حيرة كبيرة منذ بضع أشهر ، ولا سيما منذ ذلك اليوم الذى كانوا فيه جلوسا على مائدة الطعام فعرضت مناسبة علق عليها بقوله

— إن نعمت فتاة لامثيل لها .

فابتسمت عمته ونظرت إليه من خلال منظارها قائلة :

— كأن كل منكما يتحدث بلسان الآخر. فإن نعمت تقول عنك مثل هذا القول . هيا إذن أعد عدتك حتى نفرح بكما .

ومن هذا اليوم أدرك أن المسألة ليست مسألة قبلات فحسب . وكان صدره قد ضاق بها على أنها كذلك . فقد كانت الذراع البضة الناصعة التى فتنته أول ما رآها هى كل ما تملك صاحبتها من عناصر الفتنة . جسد رطيب أبلج . هذا هو كل شىء . أما الفتاة التى تقطن هذا الجسد فقد كانت مخلوقا يبعث على الملل، ولا يدرى من أمور الدنيا إلا ما لا يجب أن يدرى . ثم أن نعمت ظلت طيلة شبابها حبيسة بين جدران المنزل العتيق، فكان خالد أول من عاشرت من الرجال ، ولهذا تدفقت عليه كالطوفان . وأحس خالد فى أول أمره بالدفء ، ولكن هذا الدفء ما لبث أن خنق أنفاسه وثقل به صدره . إنه لم يحب نعمت أكثر من

أسبوع واحد . ولعل هذا الشعور الأول لم يكن حباً حقيقيا بقدر ما كان غروراً وزهواً بالنصر . ولكنه بعد ذلك لم يكن يتشوق إليها حتى باعتبارها انثى . واستحالت الذراع البضة الجميلة حية باردة يقشعر جسده من ملامستها .

ولكنه كان يعمد إلى مغالبة شعوره مظهراً التودد إلى عمته وإلى ابنتها . فهو يعيش بينهما ، ويأكل من طعامهما ، فلا أقل من أن يجاريهما ما دام فى دارهما . ثم أنه أصبح قليل الثقة بانتهاء هذه القضايا الأبدية الناشبة بينه وبين أبيه ، ولا يدرى كيف تكون نتيجتها إن انتهت . فلو أن والده استطاع أن يتغلب عليه كما تغلب على مليم ، فالزواج بنعمت يكون حينئذ أفضل من تزوج الفاقة والشرود فى الطرقات .

عليه إذن أن يمسك العصا من وسطها . أما وقد ابتعد عن وسط العصا بما بدر منه من إجابة جافة ، فعليه الآن أن يصلح الأمور . اقترب من نعمت وطأطأ برأسه ثم قال بصوت النادم :

— معذرة يا نعمت . إن هذا الصداع قد جعلنى ضيق الصدر .

ولكنها لم تكن لتصفح دون أن يفتح لسانها الفرصة ليجول جولة أو جولتين .

— إنك دائماً ضيق الصدر هنا منشرحه فى الخارج .

ولم يكن خالد فارساً فى مضمار الأخذ والرد . ثم إنه من معتنقى الفلسفة المادية التى لم يكن يلوح على الفتاة أنها لا تميل اليها . وكانت نعمت فى هذا الصباح تكشف عن جزء كبير من صدرها . كما أن وجنتيها كانتا أكثر توردا وعينيها أكثر التماعا . فالفلسفة المادية إذن ...

وبعد حين صحت الفتاة من غشية هذه الفلسفة ، فإذا بها تسأله الصفح

بعد ان كان هو السائل . وهم خالد بالقيام فردته إلى صدرها ، وقالت بصوت تشوبه رنة غريبة ، تصطنعها كلما أرادت أن تقوم بدور المرأة التى تفتن القلوب وتسلب الرشاد . وكان هذا الصوت يقتضى أن تسبل عينيها فأسبلتهما :

ـ إنك لم تقبلنى هنا يا « دولة » ...

وكان قد حاول الهرب لتوقعه هذا الطلب . ولكنه وجد رأسه بين كفيها يوجهانه إلى صدرها الذى تحب الفتاة أن يلصق به شفتيه . فقبلها مثنى وثلاث دون أن تخلى رأسه من كفيها . وعاود التقبيل ولكنها لم تكن تشبع بل ظلت تقبض على مؤخر رقبته بإحدى يديها وتمسح شعره بالأخرى . ومل خالد هذا الوضع وتصبب العرق من جبينه . وبينما كانت شفتاه تنضمان وتنفرجان بطريقة آلية ، كان هو يفكر فى إفطاره أيكون بيضاً مقلياً أم مسلوقاً . واستغرقت الموازنة بين الصنفين مدة ما . فلما أن استقر رأيه على تفضيل البيض المقلى ، كان الكفان قد أطلقا سراح رأسه وسمع صاحبتهما تسأله :

ـ أتحبنى يا « دولة » ؟

وخيل لخالد أنها تسأله عما كان يفكر فيه فأجاب :

ـ أحب المقلى ياتوتو .

وكانت الفتاة مستلقية فشرعت تضحك ضحكا شديدا . أما هو فقد وقف مدهوشا . إن جوابه الخاطىء لم يكن ليبعث على الضحك على أى نحو فسر ، وعلى أى وجه فهم . ولكن الفتاة كانت كلما وجدت فى مثل هذا الحال تضحك لشىء ولغير شىء . وكان هذا الضحك الأبله يحمله على كرهها ، فلا يطيق رؤيتها وينفر من سماع صوتها .

أولاها ظهره وابتعد إلى طرف الحجرة حيث علق لوح مسدل

عليه غطاء . أزاح الغطاء وأخذ يتأمل الصورة التى لم يكن قد فرغ منها بعد . ذلك أن الأخيلة الصبيانية التى ألبسته يوماً ما ملابس البدو ، قد عادت فوضعت المرقم فى يده وأوهمته بأنه بدوى . حقاً إن هذا الفتى لعجيب . ولو أتيح لأحد أن يكشف عن رأسه لوجد فيها حجرتين : إحداهما يتربع فيها القرن العشرون بآلاته ومعادلاته ، والثانية يمرح فيها القرن الثامن عشر وسط غابة يخترقها جدول . ولكن لعل كل الناس كذلك إلى حد . لعل كل رجل له شخصيتان ، يترجح بينهما دهراً إلى أن تستقل به إحداهما ، وقد لا تستقل .

ظل يرمق الصورة لحظة طويلة إلى أن سمع الفتاة تقول :

— متى ترسم صورتى يا « دولة » ؟

فأجابت سريرته قائلة : « عندما تصبحين فى ذمة التاريخ » . أما لسانه فقد قال :

— أتريدين أن تصورى وأنت على هذا الحال ؟

فضحكت الفتاة وقالت :

— يا قبيح . . .

— اذهبى وأصلحى من شأنك ، ثم لننظر بعد ذلك فى أمرك .

— حسناً . سأعود إليك بطعام الافطار عما قليل .

وقامت الفتاة فأصلحت شعرها ، وسوت هندامها ، ثم غادرت الحجرة بعد أن ناوشته مناوشة قصيرة ، أصيب فيها وجهه ببعض قبلات فى مواضع لمختلفة .

ولم يكن هذا من العدل فى شىء ، فقد كان قد دفع ثمن تخلصه منها من قبل . ولكن عادة النساء المساومة . ولعل الفتاة اعتقدت أن ما كان بينهما ليس إلا أساسا يبيح لها أن تطارده وتلتصق به طوال

النهار . ولقد بدت نيتها هذه حين أعلنته بأنها ستحضر له طعامه بنفسها . وبعد ذلك ستطلب منه أن ينزلا معاً إلى الحديقة ، ثم لعلها ستسأله أن يصحبها إلى السينما ، أو أن يخرجا بالسيارة إلى الأهرام أو المعادى . لا شك أنها تعد فى رأسها الآن برنامجا حافلا لا ينتهى قبل منتصف الليل .

وعاد جرس المسرة يدق وسمع صوتاً نسويا يسأله :

ـــ حضرتك المجاهد ؟ .

ـــ أجل . يا رتيبة هانم .

ـــ أتسمح لى بسؤال صغير ؟

ـــ ليت ذلك فى وسعى . إن المجاهد فى عطلة ابتدأت منذ عامين ، وسأخبرك حينما يستأنف مباشرة جهاده . . .

لم يعد أمامه سوى الهرب السريع إن أراد أن يعيش عمره كاملا . فإنه بين اضطهاد عالم المنزل الداخلى الممثل فى نعمت ، وتهديد العالم الخارجى الممثل فى المسرة ، قد تزهق روحه فى أية لحظة . لهذا أسرع بارتداء ملابسه وغادر المنزل متسللا من سلم الخدم . ومضى يدب فى الطرقات إلى غير غاية . . .

الفصل الثالث

انطلق خالد هائما فى الطرقات . لم تكن له وجهة يقصدها ، وحسبه ان يتجنب الأماكن التى يعرف أن أصدقاءه يرابطون فيها . وأدى به المطاف إلى حديقة على شاطىء النيل فجلس بها . كان الاطفال يلعبون من حوله ، أما مربياتهم فقد قبعن تحت ظلال الاشجار يتحادثن أو يطرزن .

هذا شىء غريب . كان يخيل اليه أنه أتى الى هذا المكان بطريق المصادفة المحضة . ولكن لم تكن هذه هى المرة الأولى التى وجد نفسه فى هذه الحديقة ، بل فى هذا المكان من هذه الحديقة . لقد أتى اليه مرارا من قبل . إن قدميه تقودانه اليه حتما كلما أحس بانقباض وكلما ضاق ذرعا بالدنيا وبنفسه . انه لا يلبث حينئذ أن يجد نفسه بين هؤلاء الاطفال ، وتحت هذه الاشجار ، وأمام هذا النهر الافريقى الأسود . انه يكره الحدائق والاطفال كما انه لم يحب النيل يوما فى حياته . فما الذى يأتى به الى هذا المكان ؟

ان يصدره بوادر أزمة روحية ، وفى نفسه شعورا بانه على أبواب تطور جديد . فلعله يأتى إلى هذا المكان البغيض ليساعد هذه الأحاسيس الخفية على النضج والايناع حتى تستطيع التعبير عن كنهها .

أمضى سحابة نهاره جالسا مكانه ينظر الى الاشياء فى بلادة وعدم إدراك . كان بصره يقع على الوردة فلا بد ان يقال له انها وردة حتى يدرك ما هى . وكان ذهنه تتنازعه افكار الحياة والموت فلا يعى لها معنى خاصا بل يتركها تغيب عن باله ليحل غيرها محلها . ان انقباض صدره لم يفارقه لحظة واحدة . ولكنه كان يفكر فيه بدون اهتمام أو

مبالاة كأن هذه الازمة تخص شخصا آخر . لم يكن فى حال يسمح له بالاهتمام بشئون الاخرين. حسبه أن يستلق هكذا كما يستلق المخدرون فى «شانغهاى» بعد أن يسرى المخدر فى عروقهم. فليفكر هذا الذهن المختل لرأسه فيما يشاء، وليصور ما يحلو له من التهاويل والخيالات؛ فلا شأن له به وليس يملق إليه بالا.

أفاق من غشيته بعيد الغروب فوجد الحديقة قد خلت من روادها ولم يبق أمامه سوى هذا النيل الذى بدا لناظره كأنه ذيل إبليس . قام على قدميه وترنح صوب الباب . وهناك وجد بائع كعك فابتاع واحدة وراح يقضمها وقد اتخذ سمته ناحية المدينة . وبينما يجتاز جسر قصر النيل إذ شعر بسيارة تقف بجواره . والتفت فوجدها غاصة بمعارف له من من الفتيان والفتيات ينادونه ويطلبون منه أن ينضم إليهم . ولكنه وجد نفسه يصيح فيهم ويسبهم سبا لم تنطق به شفتاه من قبل . ثم مضى فى طريقه غير عابىء .

ووجد نفسه يجتاز ميدان إسماعيل . وضايقه مافيه من زحام وصخب، فانحدر إلى إحدى الطرقات المتفرعة منه . وكان الطريق هادئا يكاد يخلو من المارة . ولكنه مالبث أن رأى كلبا غريب الصورة يحوم حوله هنية ثم يعود أدراجه . وتكرر هذا الحادث مرة بعد أخرى . وأخيرا ضاق صدره بالكلب فهم بركله وإذا به يسمع من خلفه صوتا ينادى :

— فيدو . . . أقبل هنا .

فالتفت فوقعت عينه على مليم .

عرف كل منهما الآخر على التو . وحدثت مليم نفسه أن يروغ إلى طريق قريب فلم تتسع له الفرصة إذ وجد خالد يندفع نحوه مهرولا . ورآه يمد إليه يده ، فتردد هنية ثم بسط يمناه فشد عليها خالد فى حرارة .

— كيف حالك يامليم ؟

— أحمد الله .

— متى بارحت السجن ؟

— منذ ستة أشهر .

وأخذ يتفرس فيه برهة ثم قال :

— أراك كبرت يا مليم . أتراك تزوجت ؟

فضحك الفتى وقال :

— أجل . ثمانية .

— ثمانية ! لا بد أنك صرت من أصحاب الثراء حتى تستطيع الإنفاق على هذا القطيع .

— الواقع أن هذا القطيع هو الذى ينفق على .

قطب خالد وسكت هنيهة ثم قال :

— ماذا تشتغل يامليم ؟

وأدرك مليم ما يدور برأس خالد فابتسم وقال :

— لقد كنت أمزح يا خالد بك . إننى لم أتزوج بعد .

وأصر خالد على اصطحاب مليم إلى قهوة قريبة . وطاوعه الفتى فى تململ إذ أدرك أن صاحبه لا بد مصدع رأسه بكلام كثير . وأمام أكواب الشاى أنشأ خالد يعبر له عن رغبته فى التكفير عن آثام والده وأخيه ، واستعداده لتعويضه عن بعض ما ذاقه فى السجن من عذاب واضطهاد . وشكره مليم فى رقة وقال له إنه ليس فى حاجة إلى تكفير أو تعويض ، وإنه لم يتعذب فى السجن بل كانت حياته به ممتعة فى الغالب . وعرض عليه خالد أن يقدم له أى عون يطلبه ، فأجابه بأنه يعيش عيشة راضية ليس فى حاجة إلى شىء . وأضاف فى سريرته وأنه يفضل اعتداءات أبيه على معونته هو . وطال الحديث وصار مملا .

فخالد لا ينقطع عن التفلسف والنواح . ومليم متبرم ضجر يريد أن ينصرف إلى عمله . وراح خالد يتابع تأملاته المسترسلة فقال :

ـــ أليس لقاؤنا اليوم من المصادفات السعيدة ؟ لقد كدت أيئس من أن أراك مرة أخرى ، فإذا بالمصادفة تجمعنا على غير انتظار أو تدبير . ولكنى لا أحب أن أعتبر هذا اللقاء مجرد مصادفة . وإذا شئت فقل إن المصادفات عنصر أساسى فى حياة المرء كأعماله المدبرة سواء بسواء . كان فى وسعى أن أعمد إلى البحث والتنقيب حتى أظفر بالعثور عليك . وكان فى وسعى أن أترك تحقيق ذلك لمحض الاتفاق . فالأمران سيان . . .

وأعجب خالد بهذا الموضوع فأخذ يعيد فيه ويزيد ، وكأنما يلذه سماع صوته . وبينما «الطاحونة الحمراء» تجعجع وتموء بطحينها الكلامى ، إذ ومضت عينا مليم بفكرة مفاجئة . لقد أضاع عليه هذا الفتى وقته سدى . فماذا لو جعله يدفع الثمن ، وأضافه إلى قائمة «زبائن» هذا اليوم ؟ إن جيبه لا يحوى سوى بطاقتين ، وهو محصول ضئيل لا يسر . فلتكن بطاقة خالد ثالثتهما ، ولعله يستطيع أن يضيف بطاقة رابعة فى طريق عودته إلى القلعة . لقد سلب والد خالد من حياته عاماً ونصف عام أمضاها فى السجن ، فلا أقل من أن يدفع الابن عشرين قرشاً ، فهى لن تؤثر فى ميزانيته شيئاً . لهذا انتهز مليم فترة سكون كان خالد يبلع ريقه فى أثنائها واندفع يقول :

ـــ الواقع يا خالد بك أن لقاءنا لم يكن مصادفة محضة .

ـــ عجباً ! وهل كنت تبحث عنى ؟

ـــ لا . ولكنى كنت رسول شخص يبحث عنك . ولقد رآك اليوم فأرسلنى فى إثرك فظللت أتتبعك زمناً طويلا وأنا أتردد بين

الاحجام والاقدام . فقد عرفت شخصك أول ما دلنى عليك . ولم تكن المهمة التى كلفتها مما ترضاه النفس ، وخاصة إن أسىء فهمها .

— إنك تملأنى دهشاً يا مليم . لست أفهم شيئاً . . .

— هل أنت تتردد على حان « جروبى » ؟

— نعم لسوء الحظ ولقلة الحيلة .

— هذا الذى كلفنى الاتصال بك يتردد هو الآخر على الحان نفسها . وهناك رآك .

— ومن هو هذا الشخص وما صلتك به ؟ لعمرى إنك شديد الغموض . أتراك درست فن السياسة أثناء إقامتك بالسجن ؟

— لو عرفت مهمتى لما لقبتنى بالسياسى بل بلقب آخر . إننى أشتغل لدى أسرة أجنبية . ولهذه الأسرة ابنة تهوى الرسم . ولقد دفعها هذا الهوى إلى الخروج على تقاليد بيئتها مما جعل أبواها يغاليان فى مراقبتها . هذه الفتاة رأتك اليوم تمر أمام المنزل ، فاستدعتنى فى لهفة ، وأشارت إليك ، ثم طلبت منى فى إلحاح أن أبلغك رسالة . وكان من الطبيعى أن أرفض القيام بهذه المهمة — وهى ليست مهمة السياسى كما ظننت — وخاصة لأننى أعرفك . ولكنها أخذت تستعطفنى باكية ، فلما لمحت فى وجهى علائم القبول دفعتنى إلى الباب دفعاً مدعية أمام والدتها أنها أرسلتنى لأنزه الكلب .

استمع خالد إلى حديث مليم وهو مطرق . وظل على إطراقه ساعة طويلة ثم رفع رأسه وقال :

— أليست سيدتك هذه فتاة فارعة ذات شعر أسود وعينان يميلان إلى الضيق ؟

فصاح مليم قائلا :

— إذن أنت تعرفها يا خالد بك ! إنها كما تصف .

— لا . لست أعرفها . ولكننى كنت أرى فتاة بهذا الوصف تتردد على حانى جروبى . وكانت تكثر من النظر إلى ، فإذا ما تلاقت عينانا حولت بصرها إلى ناحية أخرى . وأذكر أننى طلبت مراقصتها ذات مرة فرفضت معتذرة .

— هذا حالها فى المنزل دائماً . إنها ترفض ما يطلب منها وإن كانت تودّه ، وتطلب ما تمنع منه وإن كانت لا تريده .

— لابد أنها غريبة الأطوار . وما هى الرسالة التى حملتك إياها ؟

— لقد طلبت منى أن أعرف اسمك ورقم تليفونك . وهى ترجو أن تضرب لها موعداً تتصل بك فيه .

— فليكن ذلك فى الساعة العاشرة من صباح الغد .

ثم أخرج احدى بطاقاته فدفعها الى مليم ومعها قطعة نقود فضية .

* * *

عاد خالد إلى الدار وعقله غارق فى أحلام عذاب . فهذه الفتاة الأجنبية لا بد أن تكون من طراز يختلف عن طراز الفتيات اللواتى يلقاهن كل يوم . ولعل حبها هو الذى سينتشله من هذا الضيق المستولى عليه منذ شهور . لعلها هى التى ستبعثه من جديد فتعيده إلى حياة النشاط والجهاد ، وتجعل منه الرجل الذى كان يتمنى أن يكون . فإن لم يتحقق هذا جميعه ، فستكون على الأقل مغامرة غرامية مثيرة ، تعوضه عن بعض ما يقاسيه على أيدى نعمت .

لقد ظهرت الفتاة فى الحين الذى يجب أن تظهر فيه . فقد أصبح خالد يسأم معاشرة الفتيات المصريات ولا يلذله حديثهن . فالفتاة المصرية فى نظرة مجموعة من تفكير تافه ، وادعاء ممض ، وعقد نفسية يضيق لها

الصدر . إنها ليست سوى أنثى تسعى لاصطياد قرين. ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان . ولكنها تنكر أنها مجرد انثى ، وتنكر سعيها وراء الذكر وهي لذلك تعمد إلى الادعاء. إنها تارة الفتاة المثقفة، وتارة الفتاة المتفرنجة التي تعرف آخر ما وصل إليه فن الغرب . وهي تظهر أحيانا بمظهر الفتاة المستهترة ذات الأفكار الحرة ، ويحلو لها في أحيان أخرى أن تسدل على وجهها قناع التحفظ والاستحياء . إنها دائماً تمثل دوراً من الأدوار التي تستهويها لعجزها عن أن تكون نفسها . فهي لا تزال في طور الأنوثة البدائية . لم ترق بعد إلى مرتبة البشرية . وإن جهادها لطويل .

ظلت هذه الأفكار تساوره فطردت النوم عن جفنيه معظم الليل . وغادر فراشه في الصباح الباكر ، فحلق لحيته ثم حلقها مرة أخرى ، وارتدى ملابسه ثم خلعها وأعاد ارتداءها ، وسوى شعره ، ثم أعاد تسويته بطريقة أخرى . وأخيراً لم يجد شيئاً يعمله فرابط بجوار المسرة وجلس يترقب .

وفي تمام الساعة العاشرة دق الناقوس فرفع العاشق الولهان السماعة في لهفة وسأل عن المتكلم فأجابه صوت نسوي رقيق :

— حضرتك خالد بك ؟

— أجل .

وأخبرته الفتاة أنها لا تعرف من العربية إلا قليلاً وسألته هل يتكلم اللغة ألمانية ، فاعتذر وأجاب بأنه لا يعرف إلا الانجليزية ونتفا من الفرنسية . ثم أضاف قائلا .

— ولكن عربيتك بارعة يا سيدتي . إنها تصدر من فمك أجمل من حقيقتها .

— إن صوتك يعجبنى أيضا . لقد أخبرنى مليم أنك تعرفنى .

— بل سأعرفك يا سيدتى . إن النظرات العابرة لا تعتبر معرفة .

— أنا أيضاً أريد أن أعرفك .

— ولم إذن أبيت مرافقتى حين طلبت منك ذلك .

— لأننى . . . ولكننى سأقص عليك خبر ذلك حين ألقاك . فأنا أخشى أن تدخل والدتى فى أية لحظة .

— حسنا . هل يوافقك أن تلاقينى فى «جروبى» بعد نصف ساعة .

— هذا مستحيل . فلن توافق والدتى على خروجى فى مثل هذا الوقت . اسمع يا خالد بك. إن لى صديقة فى شارع قصر النيل رقم ٢٧ . وبجوار شقة صديقتى سيدة عجوز تؤجر غرفها لقاء عشرين قرشاً فى الليلة . ولكننى لا أملك هـذا المبلغ الآن . ولذلك سأرسل لك مليم لتعطيه إياه . . . أرجو ألا تكون قد غضبت ؟

— كلا يا سيدتى . لقد رفعتنى إلى السماء السابعة .

— شكراً يا خالد بك . إننى مستبشرة بمستقبل علاقتنا . سأكون فى انتظارك أمام باب المنزل الذى ذكرت لك عنوانه فى منتصف الساعة السابعة من مساء اليوم . وسأضع فى ردائى وردة حمراء تميزنى بها .

— ولكننى أعرفك بغير هذه الوردة ياسيدتى، وإن كنت لم تخبرينى باسمك بعد .

— ستعرف عنى كل شىء حين نلتقى . لا تتأخر .

كان قد اتفق مع الفتاة على أن يحضر له مليم فى القهوة التى جلسا فيها بالأمس . على أن يكون ذلك فى الساعة الخامسة بعد الظهر . وجاء مليم فى الموعد المحدد وطلب منه خالد أن يجلس اليه قليلا ولكنه اعتذر محتجاً بضرورة عودته إلى المنزل على وجه السرعة .

ـ خمس دقائق لا أكثر .

ـ أرجو أن تعفيني من ذلك يا خالد بك . لقد أخبرتني سيدتي الصغيرة بأنك ستعطيني مبلغاً من المال .

ـ ها كه . وخذ هذا لك .

تسلم مليم النقود ثم حيا خالد وانصرف مهرولا . ولما صار على مسافة مرمى الحجر التفت وراءه ثم استأنف سيره . وحينئذ استولى على خالد شعور غامض بأن في الأمر شيئاً لا ينبيء عنه مظاهره . فغادر مجلسه توا وانطلق وراء مليم .

وتمكن من العثور عليه بعد وقت قصير فتتبعه عن كثب . ووجده يسير في اتجاه لا يؤدي إلى المنزل الذي قال إنه يعمل فيه . كان ينحدر صوب شارع فؤاد الأول ، في حين أن منزل سادته المزعوم قريب من ميدان اسماعيل باشا . فكان أن ازداد تشككه وعظمت ريبته . فما سر لهفة مليم وعدم قبوله البقاء معه ولو خمس دقائق ، مع أن الخدم يغيبون عن منازل سادتهم ساعات وساعات ؟ ولم كان مليم هو البادىء بطلب النقود كأنما خشي ألا يعطى إياها بغير سؤال ؟

واستعاد في مخيلته حديث الصباح الذي دار بينه وبين الفتاة الأجنبية ، وعلى ضوء هذا الشك الجديد بدت له أشياء لم يستطع تفسيرها . إن الفتاة حين فاجأته بأمر الغرفة فسر ذلك بأنها لا تعرف الادعاء ، وأنها تفعل ما تريد بغير التواء . ولكن من الغريب مع ذلك أن تتم أول مقابلة بين فتى وفتاة في حجرة مغلقة بها فراش . هذا ينافي طبيعة العلاقات الغرامية الصحيحة ، فالفراش لا يكون بداية بل خاتمة . ثم ما بال الفتاة تقول إنها ستضع في ردائها وردة حمراء يميزها بها ! فالمفروض أنها

تعرفه حق المعرفة وأنها لذلك سعت إلى مقابلته ، كما أنه قد أخبرها بدوره بأنه يعرفها . .

وبينما هو فى تأملاته إذ رأى مليم يقترب فى استحياء من شاب كان يقف أمام معرض أحد الحوانيت . ورآه بعد ذلك يتحدث إليه حديثا قصيرا انتهى بأن أخرج الشاب ورقة كتب عليها شيئا ثم دفعها إلى مليم . وبعد هنيهة أخرج الشاب قطعة نقود وأعطاه إياها . وعندئذ حياه مليم شاكرا وانطلق فى طريقه .

استأنف خالد متابعته لمليم إلى أن وصلا إلى شارع فؤاد الأول ، وهناك وقف مليم فى انتظار الترام . وما كانت أشد دهشة خالد حين وجده يصعد فى الترام رقم ١٣ . إن هذا الترام يذهب إلى الخلمية الجديدة وإلى القلعة ، فهل يتصور أن تقطن سيدته الأجنبية فى مثل هذه الأحياء؟ وقفز خالد إلى عربة غير التى ركب فيها مليم وقد أصر على متابعة الرواية إلى آخر حلقاتها . إنها مغامرة ممتعة على أى حال .

وحين وصل الترام إلى ميدان باب الخلق نزل مليم فنزل خالد وراءه . ورآه يخترق الميدان ثم يدلف إلى شارع تحت الربع فازداد عجبه .

وبدا كأن كل أهل الشارع يعرفون مليم ، فهو لا يخطو خطوة ألا يزد على تحية من هنا أو هناك . واستمر فى سيره إلى أن بلغ «بوابة المتولى» فانحرف إلى يمينه ودخل فى شارع «الخيامية» . وكان الشارع مزدحماً بالسابلة فأخذ يشق طريقه بينهم فى خفة ومهارة . ورآه القوم من أهل الحى فصاروا ينادونه من كل مكان : «تعال يا مليم» ، «اسمع يا مليم . . .» ولكنه لم يذهب ولم يستمع بل مضى فى طريقه مكتفياً بأن يلقى على هذا تحية ، ويداعب ذلك بكلمة ، أو يخطف من بائع خيارة .

واعترضته كاعب فاتنة ملفوفة فى ملاءة سوداء. فرمقته فى فتور وتكسر ثم قالت :

— قمر والنبى . . .

فأمسك مليم بذقنها ثم قال :

— مهلا إلى أن تكبرى . لقد كنت طفلة إلى عهد قريب يا فتحية .

وتثنت الفتاة أمامه وقالت :

— وحياتك كبرت يا مليم . ماذا تريد فوق ذلك . . .

وحسرت ملاءتها عن صدر مرمرى . ولكن مليم ربت كتفها ، ثم قال ضاحكا :

— إذن فمهلا إلى أن أكبر أنا . . .

وغادر الفتاة ودخل حانوت بائع الفطير فدحا له فطيرتين ، وضمخها بالسمن ، ثم أدخلها الفرن وأخرجها كالوردتين ، فنثر عليهما السكر وماء الورد . وأخذ مليم بضاعته ثم قفز قفزتين أوصلاه إلى « القلعة » . ودق الباب دقة خاصة ففتح له على الفور ، وما إن دخل حتى أغلق من خلفه .

هكذا توارى مليم فى جوف الظلمات ، وكأنما هو حلم من الأحلام .

الفصل الرابع

دخل مليم على هانيا دون أن يطرق الباب . وكانت الفتاة تطل من النافذة فظلت توليه ظهرها ولم تلتفت إليه . كانت حجرتها تنقسم إلى قسمين . فى ناحية منها فراش ومكتب عليه كتب وأوراق . وفى الناحية الأخرى حامل عليه لوح ومنضدة تعلوها أدوات الرسم .

شرع مليم يتقدم متمهلا نحو الفتاة إلى أن بلغ منتصف الحجرة فسمعها تقول له :

ـــ لم أسمعك تطرق الباب .

ـــ هذا صحيح .

ـــ إذن فاخرج وأغلق الباب ثم اطرقه ولا تدخل إلا إن أذنت لك .

ـــ حسنا .

وهم مليم بالانصراف . ولكن الفتاة عادت تقول :

ـــ لقد حرمتك ميزة الدخول على بغير إذن . أسمعت ؟

ـــ سمعت .

واستأنف مليم تقدمه نحو الباب فصاحت فيه الفتاة :

ـــ إلى أين ذاهب ؟ تعال هنا واخبرنى من تلك الفتاة التى كنت تغازلها الساعة ؟ لقد كنت أرقبك من النافذة فلا تحاول الانكار

ـــ إنها فتحية

ـــ لايهمنى أن تكون فتحية أو فاطمة . من الطبيعى أن يكون هذا هو طراز الفتيات اللواتى تشغف بهن . فما أنت إلا صعلوك من صعاليك الشوارع . لست أدرى لماذا صعدت الى ! انزل إليها . ماذا تنتظر ؟

لم يد على مليم أنه تأثر من تجريح الفتاة له . فأجابها فى سكون :

— لقد حضرت لأعطيك نصيبك من حصاد اليوم . إن معى من النقود ستين قرشا ومن البطاقات اثنتين .

— لست أريد نقودكم ولا بطاقاتكم . اذهب وقل لهـذا الأفاق المسمى نصيف أننى لن أقبل بعد الآن القيام بهذا الدور الشائن الذى فرضتموه على . أتحسبوننى غانية من ساقطات المشارب ؟ . إنك ورئيسك وكل من فى هذه القلعة المشئومة لستم سوى عصبة من الرعاع . أما ادعاؤهم الاشتغال بالأدب أو الفن فليس سوى حجاب يسترون وراءه أعمالهم الأثيمة . كذلك القناع الذى يستر به قطاع الطرق وجوههم . ولقد آن لكم أن تعلموا أننى لست من هذه الفئة المنكودة . إننى أعجب حقا لمن يدعون أنفسهم بفتيان الطليعة فى هذا البلد ! لقد جبت معظم عواصم أوربا ، وخالطت المشتغلين بالفن فى كل قطر ، فلم أقع على مثل هذه القلعة الجهنمية وسكانها المحتالين ، الذين يسلمون قيادهم لشخص وضيع مثلك . أقول لك إننى لست من طرازكم اللعين . وسأغادر هذا الوكر القذر فى الصباح الباكر .

كان مليم مشغولا عن ثورة الفتاة بعد ما فى جيبه من نقود ، وباختبار قطعة فضية داخله الشك فى جودتها فجعل يرنها على أرض الحجرة ، ولكنه حين سمع الفتاة تهدد بمبارحة القلعة صحا فجأة وأقبل إليها وضغط ذراعها العارية بقوة وهو يقول :

— كلا . لن تذهبى .

فنظرت إليه الفتاة باستخفاف وقالت :

— ومن يمنعنى ياسمو الأمير ؟

فأمسك مليم بذراعها الأخرى وعاد يكرر قوله :

ـ كلا . لن تذهبي . إنك ستبقين هنا .

لم تحاول الفتاة الخلاص من قبضته ، بل بدت عليها مظاهر الضعف والتكسر فقالت :

ـ ماذا يهمك إن ذهبت أو بقيت مادامت فتحية إلى جوارك ؟ .

ـ أنت تعلمين أنه قد عرضت على أعمال كثيرة ، أوفر ربحاً وأرفع قدراً ، فرفضتها جميعاً ، وفضلت أن أظل خادما صعلوكا حتى أبقى إلى جوارك أنت . إنى أخدم كل من فى هذا المنزل لأستطيع أن أخدمك أنت . وأنا حين دبرت حيلتى لم أقصد بها نفع نصيف كما تتهمينى ، بل قصدت بها نفعك أنت . فقد سمعت أنك تريدين ثوباً جديداً ، وليس معك ماتبتاعينه به . لا . لن تذهبي . . .

لم يكن من عادة مليم أن يطيل فى الكلام ، بل كان أغلب حديثه لفظاً أو لفظين . وكانت الفتاة تسمعه أول مرة وهو ينطلق فى الحديث على هذا الوجه ، فاستولى على مشاعرها تلك الصرامة والثقة والتحكم الكامن وراء كل لفظ نطق به . لقد مضت عليها دهور طويلة دون أن تسمع صوت رجل ، فسكان هذه القلعة لايتكلمون إلا «بليت» و«لعل» . أما مليم فيقول : «لا» و«لن» .

نظرت إليه الفتاة طويلا ثم قالت :

ـ إنك متعب ياماليم .

فأطلق مليم سراح ذراعها وقال :

ـ أجل ، لقد مشيت اليوم كثيراً .

ـ إنى مسرورة لأنك تجهد نفسك من أجلى . ولكنك عائلى الوحيد . . .

أومأ مليم إلى اللفيفة التى أحضرها معه ، وقال :

ـ لقد أحضرت لك من الفطير الذى تحبينه .

فضحكت الفتاة وقالت :

ـ شكراً يا مليم . ألم أقل لك إنك عاقل ؟ تعال نأكله معاً .

ـ سأذهب الآن لأستحم ولأزيل عن جسدى عرق النصب والاحتيال . إن العمل غير الشريف يكلف من الجهد مثلما يكلف العمل الشريف ، إلا أنه أبعد عن الملل .

صفقت الفتاة بيديها وقالت :

ـ مرحى مرحى للتلميذ النجيب . لقد صرت تتكلم بمثل كلامهم تماما . لم يبق إلا أن تقول إنه ليس هناك عمل شريف وعمل غير شريف ، وإنما هو جهد تقصد به غاية ، وقد يكون موفقاً أو غير موفق فى الحالين .

قطب مليم هنيهة ، ثم قال :

ـ كلا . هناك أعمال غير شريفة حقاً . افترضى أننى لم أعط بائع الفطير ثمن فطيرة . . .

ـ ولم تتناسى النقود التى تسلبها فرانسك كل يوم ؟ .

ـ هذه فضلة من كثير يمتلكونه . أما بائع الفطير فإنه يقتات بما يكسب ، فلو أننى سلبته قرشاً نقص طعام أسرته رغيفاً .

ضحكت الفتاة وربتت كتفه ثم قالت :

ـ ألم أقل إنك تلميذ نجيب . . .

ـ هاك نصيبك من غنائم اليوم . ثلاثين قرشاً ، والثلاثون الأخرى لنصيف ، وإن كان من بينها قطعة مزيفة . أما أنا فقد أعطانى خالد بك عشرة قروش ، وأعطانى الشاب صاحب هذه البطاقة خمسة .

مدت يدها فتناولت البطاقة . ثم ردتها إليه قائلة :

ــ إنها مكتوبة بالعربية . اقرأها يامليم .

أخذ مليم البطاقة وراح يقرأها ببعض الصعوبة .

ــ «محسن عبد الباقى، مرشد اجتماعى». هذا معناه أنه شخص متعطل ، لابد أن هذا السيد سيأتينا عما قريب ، فنحن يعوزنا مرشد اجتماعى بلا ريب .

ــ اطمئن بالا ، فقد أتاكم ابن عم له هذا المساء ، يا لثقل ظله ! إنه يبدو كمصارعى الثيران .

ــ أمرشد اجتماعى هو الآخر ؟

ــ شىء من هذا القبيل . . . كلا تذكرت الآن . إنه خبير نفسانى . دخل علينا منتفخ الصدر كالديك الرومى . وكان يمشى مشية غريبة تحكى خطوة الأوزة ، فلما أن صار على بعد خطوات من المظلة التى كنا نجلس فيها ، أمسك عن السير فجأة ، ثم وقف وقفة نابليونية زادت من انتفاخ صدره ، وجال ببصره فينا هنيهة ، ثم تكلم بصوت مضغوط استعمل فيه كل عضلات جهازه الصوتى حتى لتحس أنه يكاد ينفجر لكثرة مايختزن فى صدره من هواء . قال: «الأستاذ نصيف» ...وكدت أنفجر ضاحكة، فقد كان من الواضح أن هذا المخلوق يؤدى دوراً أجهد نفسه كثيراً فى التمرن عليه حتى بدا بهذه الصورة المضحكة . وساد السكون بيننا لحظة ، فقد كان كل منا منصرفا إلى تأمل هذه الظاهرة الطبيعية التى مثلت أمامنا فجأة . وكنت أول من تكلم . وكان ذلك بعد أن اختزنت غاية ماتتسع له رئتى من هواء ، وضغطت حنجرتى بقدر ما أستطيع ، ثم قلت محاكية صوته: «الأستاذ نصيف مات » . وحينئذ لم يستطع أحد كتم ضحكه فانفجرنا

وأطلقنا لأصواتنا العنان . أما هو فقد رفع أنفه فى الهواء ونظر إلينا من عال على طريقة روايات السينما . ولكنه مالبث أن اضطرب اذ لم يكن قد أعد العدة لهذا النوع من الاستقبال . فراح يدمدم « ماذا . . . ما هذا . . . » إلى أن أشفق عليه نصيف فدعاه للجلوس .

أغرق مليم فى الضحك . ثم قال :

— شخصية فذة . هذا القادم الجديد .

— ليتك رأيته ياماليم وهو يحيينى — تقدم إلى فى جلال . ثم انحنى أمامى كأنه فارس من العصور الوسطى ، ولعله كان ينتظر أن أمد له يدى ليقبلها . وكان بعد ذلك يخاطبنى « بحضرة الآنسة المحترمة » كأنه يقرأ من خطاب .

— وأين هو الآن ؟

— لابد أنه جالس معهم . فقد تركتهم وصعدت إلى غرفتى لأننى كنت أتوقع حضورك . أخبرنى ماذا فعلت مع خالد ؟ لقد كنت تتوجس خيفة من مقابلته .

— أجل . فقد أخبرنى أنه يريد مساعدتى وإصلاحى . ونياته الحسنة هذه هى أخشى ما أخشاه .

ألقت الفتاة بنفسها على الفراش وقالت :

— آه . . إننى متعبة ياماليم . تعال اجلس إلى جوارى . أريد أن أفضى إليك بشىء .

وهم مليم بتنفيذ رغبة الفتاة ولكنه وقف فجأة فى منتصف الطريق . فقد دوى فى أنحاء القلعة صوت طرق عنيف مزق سكون الليل .

٥٥٥

لم يكن خالد قد أتى هذا المكان من قبل . بل إنه لم يكن يتصور أن فى

القاهرة مثل هذا الحى الذى قاده إليه مليم . وحين بلغ الجزء المسقوف من الشارع تضاعف لديه هذا الشعور ، فحسب أنه هبط عاصمة شرقية كدمشق أو بغداد أو بمباى ، ولكنها ليست القاهرة بحال . وخيل إليه أن الناس فى هذا الحى غير المصريين الذين يعرفهم . إن لهم سحناً — وإن تكن شرقية — فهى غريبة السمات كأنما أصحابها من المغرب أو من بلاد فارس .

لقد شعر بالخوف من أول الأمر وهو يتقدم وسط السابلة متتبعاً «مليم» . كأنما الخلق جميعاً يفترسونه بنظراتهم المستريبة . ولعلهم سيجتمعون عليه فيضربونه أو يسرقونه أو يجعلون منه فكاهة يتسلون بها على أقل تقدير . ماذا يفعل ؟ وكيف يرد عدوانهم ؟ إنه على الأرجح لن يفهم لغتهم ولن يفهمون حديثه .

واعجباً ! كيف يكون هذا المكان المخيف موطناً للفتاة الأجنبية التى كالمته فى هذا الصباح ! أتكون زعيمة عصابة ؟ ولكن النسوة لا يتزعمن على العصابات إلا فى الروايات الصبيانية . إنها إذن جاسوسة أجنبية علمت أنه فى شقاق مع والده فهى تحاول أن تحصل منه على معلومات تهمها ، وهى تسكن هذا الحى حتى لا يعلم بأمرها أحد .

وبينما يعالج هذه التأملات ، إذ اختفى مليم عن ناظريه فجأة وسط الجموع . فأسرع فى السير إلى المكان الذى رآه فيه آخر مرة وأخذ يبحث عنه دون جدوى . أين ذهب هذا الشيطان ؟ لابد أنه قد سبقه بمرحلة طويلة فإن هذا اللعين خفيف الحركة كالفراشة فكأنه يتنقل فوق رءوس الناس . وجد فى السير وهو يتلفت يميناً ويساراً دون أن يعثر له على أثر ، فقال لأعد من حيث أتيت . فكر راجعاً إلى أن وصل إلى بوابة المتولى دون أن يصادف شبح مليم . وحينئذ أسقط فى يده .

وقف خالد الى جوار البوابة برهة يتأمل جوفها المظلم الذى تخرج منه الناس كأنهم لصوص يغادرون كهفهم للنهب والسطو . وفيما هو على هذا الحال إذ أحس بكراهية شديدة لنفسه . أيكون رعديداً إلى هذا الحد ؟ إن هؤلاء السابلة من رجال ونساء وأطفال كلهم أشد منه جنانا وأصلب عوداً . أما هو فإن اليأس أقرب إليه من الكفاح . إنه قليل الحيلة سريع إلقاء السلاح .

وانعقد عزمه على وجوب العثور على مليم ولو كلفه ذلك أن يخاطب هؤلاء الأعاجم سكان هذا الحى . إنه مهما يكن من أمرهم فلا بد أنهم يخضعون للقوانين المصرية التى تعاقب على الضرب والقتل، ثم أنهم آدميون آخر الأمر ، وشرقيون بوجه خاص . أما السائل فلا تنهر . .

رجع خالد إلى شارع الخيامية ثانية وأخذ يبحث عن رجل تدل ملامحه على طيبة القلب ولين الجانب . وأخيراً هداه البحث إلى بائع جوافه كهل فتقدم منه وسأله أن يبيعه أقة اشتراها بالثمن الذى طلبه دون أن يساومه . وفيما كان الرجل يزن البضاعة سأله خالد :

— أتعرف مليم ؟

فأجاب الرجل :

— ومن ذا الذى لا يعرف هذا اللعين . لقد مر من هنا منذ لحظة .

— وهل تعرف مكان سكناه ؟

فنظر إليه الرجل نظرة المستريب ثم قال :

— عجباً ! ألست واحداً منهم .

— من ؟

— من الأفندية والخواجات الذين يشتغل عندهم ؟

— كلا . إننى صديق لواحد منهم ولست أعرف المنزل الذى يقطنونه .

— هاك الجوافة . إنه المنزل الثالث على اليمين .

حمل خالد بضاعته وسار نحو المنزل الذى أرشده إليه البائع .ووجد أمامه بابا ضخما لايشجع طارقا على الطرق ، ولا يرحب بدخول زائر ، فسرعان ماعاوده الخوف . كيف يطرق باب أناس لايعرفهم فى مثل هذه الساعة من الليل ؟ وإن فتح الباب فماذا هو قائل ؟ إن ماجرى بينه وبين مليم أقرب إلى القصص المختلقة منه إلى الواقع . يقينا إنهم سيضحكون عليه حتى تخرج أمعاؤهم . وهذه الجوافة ؟ ماذا يفعل بها ؟

هذه الجوافة سيأكلها . وجلس خالد على عتبة الباب ثم تناول واحدة واخذ يقضمها ولكنه لم يستسغ طعمها فألقى بها وتناول أخرى . وقبل أن يعض عليها بأسنانه وجد نفسه يلقى بجميع حمله على الأرض . ثم قفز من مكانه وأخذ يطرق الباب طرقا عنيفاً .

الفصل الخامس

نفث القادم الجديد دخان لفافته على دفعات ثم استأنف حديثه قائلا — إننا كمن يقيم معرضا للصور الزيتية فى وسط صحراء قاحلة ثم يدعو البدو لزيارته . الصحراء لن ينصلح حالها بهذا المعرض ، ولن يرقى فن التصوير بزيارة البدو له . كلا أيها السادة . إننا لسنا فى حاجة إلى أدب أو فن ، ولكننا فى حاجة إلى العمل . العمل الجرىء الحاسم . ماذا أفاد الشرق من آلاف الدواوين التى أنتجها شعراؤه على مر العصور ؟ لاشىء سوى أن لفظ « الشرق » أصبح قرينا للخرافات والأوهام . إن شعر الشرق بمثابة المخدر الذى يتناوله شخص فاشل متعطل ، فنحن نقول الشعر لأننا لانقدر على العمل . فإن نهضنا وأبدعنا مدنية حديثة وشعبا متقدما فلن نقول الشعر حينئذ . ولكننا إن قلنا الشعر فلن ننهض . لهذا كان رأيى أن نبادر إلى العمل السريع ، ودعونا من رسم الصور وتدبيج المقالات .

كان اسم القادم الجديد « عطا الله » . هذا هو الاسم الوحيد المكتوب فى بطاقته بغير لقب لاحق أو تعريف سابق ، كأنما هى بطاقة أبى العلاء أو سقراط . وكان فيما يبدو من طراز الناس الذين يحبون سماع أصواتهم ، فهو كثير الكلام ، كثير المقاطعة ، قليل الانصات . وكان سعد الدين يصغى إلى حديثه بتبرم وضجر ، فقد شعر نحوه بنفور أول مارآه . ولهذا كان حامل لواء المعارضة من بين الرفقاء ، فهو لايترك قولا لعطاالله إلا ناقشه فيه محاولا تأييد الرأى المخالف مهما يكن . لهذا فقد انبرى له قائلا :

ـ يا أستاذ عطا الله ، إن كلامك ـ باعتباره رأيا ـ يقتضى منا الاحترام . ولكنه كسكل الآراء الجدلية ينتهى آخر الأمر إلى دحض نفسه بنفسه . فأنت تقول إن شعبنا لم ينضج إدراكه بعد ، فلا فائدة من أن تنظم له الشعر ، وتديج له المقالات . وأنا أسألك كيف يمكن أن يرتقى شعب جاهل إذا لم يقرأ المقالات ويستمع إلى الشعر ؟ إن الأساس الأول لأى اصلاح هو تكوين وعى اجتماعى . وبغير هذا الوعى لن يشعر الفلاح أنه مغبون ، ولا الصانع بأنه مستغل . فأنا أسألك مرة ثانيـة كيف تكون هذا الوعى الاجتماعى بغير الأدب والفن ؟

كان عطاالله يحاول مقاطعة سعد الدين بعد كل فقرة من عبارته ، فكان سعدالدين يعلو بصوته ليتغلب على المقاطعة ، وعطاالله يعلو بصوته ليضع حدا للحديث . فما انتهى سعد الدين من كلامه حتى كان كلاهما يصيحان بأعلى صوت ، وكأنما يتشاجران .

وكان « شتا » قد انتحى ركنا من الظلة وجعل يشرب الخمر من زجاجة على انفراد . ولعل هذا الصياح قد آذى مزاجه المنصرف لخيالات الراح فصاح فيهما قائلا :

ـ رفقا بأنفسكما وبنا ، فإن أصواتكما أكبر من آذاننا . لعمرى إنكما لكفيلان بإفساد أية رواية تمثيلية . ماهكذا يكون الحوار . إن للمقاطعة يا أستاذ «عطالله» فنا خاصا كان عليك أن تتقنه قبل أن تمارسها ، كما أنك تستعمل حنجرتك استعمالا سيئا ينافى فن الإلقاء ، ولذلك بح صوتك مع أنك لم تتكلم إلا ساعة واحدة . وهذا خطأ يقع فيه الممثلون المبتدئون فهم . . . .

ولكن عطالله لم يترك يتم نصائحه بل اندفع فى صياحه يقول :

ـ إننا لسنا فى حاجة الى هذا الوعى الاجتماعى على الاطلاق ، فما

الشعب إلا أداة طيعة فى أيدى القادة الماهرين . إن الزعيم القادر يستطيع أن يحرك الجماد . وإنى أسألك يا أستاذ « سعد الدين » هل كنا فى حاجة الى الشعر حين قمنا بثورتنا الوطنية عام ١٩١٩ ؟

— لو أنك كنت من رواد ملاهى روض الفرج لعلمت أن الأغانى الحماسية كانت عنصراً مهماً فى إلهاب روح الثورة فى النفوس . إن ثورة عام ١٩١٩ لم تنجح إلا لأنه كان من ورائها وعى اجتماعى متيقظ ، سرت بفضله الحماسة الوطنية فى كل طبقات الشعب ... حتى بين الموظفين الذين هم دائماً آخر من يثور من الأهلين .

وهكذا ظل الرفاق فى أخذ ورد كعادتهم كلما بدأوا إحدى جلسات النقاش ، التى لم تكن تنتهى إلا إذا بحت أصواتهم أو غلب عليهم السكر . ولكن فى هذه الليلة عمد نصيف إلى إسكات أعضاء قلعته كلما وجدهم يتمادون فى التعبير عن آرائهم . وأدرك الرفاق مقصد نصيف كما أدركه « عطا الله » أيضاً . وحدث أن كان الخواجة أخورين يتكلم عن نظام الحزب الواحد ، وكيف أنه لا يتعارض مع الروح الديموقراطية بل قد يكون أحياناً الطريقة المثلى لحكم الشعب نفسه بنفسه ، ثم أخذ يضرب الأمثال بنظام الحكم فى تركيا وسويسرا . غير أن نصيف لم يدعه يتم حديثه بل قاطعه فى شىء من الحدة وقال :

— لا داعى للإفاضة يا خورين . هذه مسائل يستطيع كل منا أن يقرأها فى الكتب .

وحينئذ نهض عطا الله بطريقة تمثيلية مضحكة جعلت شتا يصيح من مكمنه قائلا :

— صمتاً أيها السادة . هذا موقف مسرحى مهيب . ارفع رأسك قليلا يا أستاذ عطا الله . وابتدىء حديثك بصوت منخفض ، ثم يعلو

تدريجياً على ألا يصل إلى مرتبة الصياح . لا تتعجل إحداث الأثر المطلوب وإلا أخفق الموقف .

ولكن عطا الله لم يعبأ بنصائح الأستاذ شتا كعادته . فبدأ حديثه بصوته المتكلف العريض قائلا :

— أرى أنكم لا تثقون بى أيها السادة ، ولعلكم تعتبروننى دخيلا على الحركة . اعلموا إذن أننى من أقدم المجاهدين الذين سعوا إلى الإصلاح فى وقت كان أغلبكم لا يزال يطالع « مجلة الأولاد » ، ولقد استمعت إلى آرائكم فوجدتكم جميعاً - فيما عدا الأستاذ نصيف بالطبع - لا تزالون فى طور التكوين . إن مبادئكم مقلقلة وآراءكم غير ناضجة ، ولهذا أنتم فى حاجة إلى إرشاد وتوجيه ، وهو ما دفعنى إلى المجىء إليكم حين سمعت بحركتكم . لا تنتظروا لأنفسكم أى نجاح ما لم يشرف على نشاطكم رجل عركته التجارب وأنضجته الأعوام . أنا هذا الرجل . . .

لم يتمالك شتا أن يصيح ويولول قائلا :

— يا خيبتى فيك يا أستاذ عطا الله ! لقد تعجلت إحداث الأثر بالرغم من تنبيهى إياك ، فقلبت الموقف المؤثر إلى مشهد مضحك .

فابتسم سعد الدين وقال :

— لعل هذا مفتاح شخصية الأستاذ « عطا الله » . إنه يمثل دور الفارس ، فيرتدى له ملابس الألعبان .

أما خورين فقد رأى من اللائق أن يدافع عن الضيف وأن يأخذ بناصره فقال :

— لا تغمطوا الرجل حقه يا رفاق . ألم تسمعوا بحركة « عطا الله والأجر على الله » ؟

فصاح شتا من ركنه :

ـــ أجل ، أجل . تذكرت الآن . فقد اعتاد الأستاذ « عطا الله » أن يقيم لحركته سرادقاً فى معظم الموالد . وأذكر أن الأستاذ « عطا الله » كان يجلس على منصة عند مدخل السرادق ومن حوله أعضاء الحركة يرتدون ملابس حمراً وخضراً وخلفهم فرقة موسيقية تحدث ضجة كبيرة تلفت أنظار رواد المولد . الى أين يا أستاذ عطا الله ؟

كان عطا الله يسير بخطوة الأوزة مندفعاً نحو الركن الآخر من الحديقة . فصاح سعد الدين فى إثره :

ـــ ستجد بالباب شخصاً يدعى « مجذوب حوش عيسى » خذه معك فهو من « النمر » التى تفيد الحركة كثيراً .

ولكن عطالله لم يتجه إلى الباب كما ظن مشيعوه ، بل وقف فى منتصف الحديقة وصاح بأعلى صوته :

ـــ يا أستاذ « نصيف » اسمح لى بأن أكلمك على حدة .

كان نصيف هو الوحيد من بينهم الذى لم يشترك فى « الاحتفاء » بعطالله . إنه بعد أن قدح الشرر جلس بعيداً يرقب ويبتسم . كان يحس بما يشبه شعور الانتصار ، فهذا فتى جاء ينازعه الزعامة فحطمه أتباعه دون أن يكلف نفسه أى عناء . إن زعامته وطيدة . لأنه لم يتعجل إحداث الأثر المطلوب . لقد استأجر لذلك « قلعة » وقبع فيها صابراً إلى أن ظهر قدره على مر الأيام ، وفرضت زعامته نفسها على الرفاق .

نظر نصيف إلى عطالله الذى كان قد شد قامته وشمخ بأنفه كأنما يتحدى هؤلاء الأذناب الذين تجرؤا عليه . كانت هيئته « النابوليونية » تدعو إلى الاستغراق فى الضحك . ولكن نصيف لم يضحك ، بل ابتسم ابتسامة عطف ورثاء ، وكأنه يريد أن يظهر لعطالله أنه يعامل الجميع

معاملة واحدة ، وأنه أرفع من أن يكون شريكا لرفاقه فى عيشهم الصيانى وأخيراً تكلم فى صوت تغلب عليه الرقة ، فقال :

ـــ تفضل وقل ماتريد يا أستاذ عطاالله ، فليس عندى أسرار أخفيها عن الرفاق .

وكأنما تأدب نصيف قد أعاد إلى عطاالله شيئاً من ثقته بنفسه التى تتخذ غالباً مظهر القحة والتحدى إذ أنه وضع يده فى جيب سرواله . وزاد من إبراز صدره ، ثم قال بلهجة المستعلى :

ـــ إن معى رسالة خاصة طلب منى أن أبلغك إياها .

ووجد نصيف أن فى إجابته لمطلب عطاالله مايرفعه فى أعين الرفقاء . فإن قيامه وانفراده بهذا الرسول ، يشعرهم بأنه على اتصال بجهات عالية ، كما أنه يحيطه بجو من الغموض ، كان يحرص دائماً على إثارته حول نفسه . فهو حين ينصرف مع عطاالله سيقول الرفاق فيما بينهم : «ترى ماذا تكون هذه الرسائل التى يحملها إليه أناس غرباء ، ومن أى مصدر أتت؟ لابد أن يكون نصيف معروفا لدى هيئات كثيرة لاعلم لنا بها . . . »

غادر نصيف مقعده فى تؤدة ووقار ، ثم قال بصوت الزعامة المهيب :

ـــ حسناً يا أستاذ عطاالله ، هلم بنا إلى غرفتى .

وتقدم نصيف وسار عطاالله فى إثره ، ثم صعد فى السلم الخشبى المظلم دون أن ينبس أحدهما بلفظ . وكان عطاالله يتحسس موضع أقدامه بصعوبة فأشعل نصيف عود ثقاب ليثير به الطريق . وأحس عطاالله بشىء من الرهبة ، فقد بدت ظلالها المتراقصة على الحوائط كأنها أشباح من الجن تتآمر عليهما . ومرا فى طريقهما بحجرة ينفذ النور من أسفل بابها فسأل عطاالله :

ـــ هذه حجرة الآنسة هانيا ؟ .

فأجابه نصيف فى اقتضاب :

ـــ أجل .

ـــ من تكون هذه الفتاة ؟ .

ـــ إنها فتاة أجنبية .

ـــ أمن أنصار الحركة هى ؟ .

فأجاب نصيف وهو يضغط مخارج الألفاظ :

ـــ إنها مجرد فتاة أجنبية .

صمت عطاالله لحظة ، ثم قال :

ـــ لست أدرى إلى متى تمنعون ثقتكم عنى ؟ ولكن مهلا إلى أن تقرأ الرسالة .

أدار نصيف مفتاحه فى القفل فسمع له صرير حاد . وانفتح الباب على حجرة مظلمة ، فأشعل عوداً من الثقاب أضاء به مصباحاً زيتيا ضخما له غطاء من الزجاج الأبيض . وتوجه إلى مكتب مرتفع قائم فى طرف الحجرة ، فوقف قبالته ، ثم دعا ضيفه للجلوس ، على حين أخذ يقلب فيما أمامه من أوراق ونشرات كأنما يراها أول مرة . وهى حيلة كثيراً ما يعمد إليها نصيف ليوهم محدثه بتعدد رسائله وكثرة أعماله .

أشعل عطا الله لفافة تبغ وأسند رأسه إلى حافة المقعد ثم أخذ ينفث الدخان فى سقف الحجرة . وبعد برهة تنحنح وضغط عضلات حنجرته أهباً للكلام ثم هز رأسه وقال :

ـــ إننى معجب بعملك يا أستاذ نصيف .

رفع نصيف رأسه من بين الأوراق وثبت بصره فى ضيفه ساعة ثم قال مبتسما :

ـــ أى عمل يا أستاذ عطا الله ؟

ـــ لم يعد هناك موجب للتستر . إننى قادم من لدن حمدان .

رفع نصيف حاجبيه دهشة وقال :

ـــ حقاً ! ومن يكون السيد حمدان ؟

ـــ أرى أنك شديد الحرص . وهذا شيء نشكره لك جميعاً . فإن مصائر الكثيرين مرهونة بحسن توجيهك لنشاط الحركة بطريقة تبعد عنها الشبهات . فالواقع أن إسماعيل بدر وأتباعه لم يحق بهم المصير الذى تعرف إلا لتهورهم وعدم احتياطهم . ونحن نستطيع تجنب كثير من المصائب إذا لم يداخلنا الغرور وعملنا بحذر وتكتم .

جلس نصيف على حافة المكتب . ولكنه لم يستقر عليه سوى لحظة حتى استوى على قدميه وأخذ يجول فى الحجرة وهو مطرق . وأخيراً وقف قبالة عطا الله وقد عقد ذراعيه فوق صدره وراح يرمقه فى سكون . وأحس عطا الله بشيء من الاضطراب وهو ينظر إلى الأعين المصوبة نحوه كأنما تحاول أن تنفذ إلى أغوار نفسه . وأراد أن يخفى اضطرابه فضحك ضحكة خابية وقال :

ـــ كأنما أرى نفسى أمام المحقق . لا تنذرنى بهذا المصير يا أستاذ نصيف فلا يزال أمامنا مهام جسام .

لم يحول نصيف بصره عنه . بل ازدادت نظرته حدة حين سأله قائلا :

ـــ من أية خلية أنت ؟

ـــ إننى صاحبها .

ـــ ومن المفوض ؟

ـــ تعلم أن هذا سر ليس فى وسعى البوح به .

— هات الرسالة .

أخرج عطا الله من جيبه ظرفاً مفتوحاً وسلمه إلى نصيف ونفض نصيف الرسالة فوجد فيها ما يلى :

عزيزى نصيف

« حامل هذا موضع ثقة . إنه مجاهد قديم قاسى كثيراً فى سبيل »
« الحركة . أرجو أن تتوجه معه فى أقرب فرصة إلى شخص »
« يدعى عبد العزيز مصطفى ، وهو موظف بوزارة الداخلية . »
« لا تكتب إلى بنتيجة المقابلة ، فقد غادرت المسكن الذى »
« تعرفه ، وتركت الإسكندرية منذ أسبوع . سأحضر اليك »
« فى وقت قريب للتحدث معك فى أمر هذا الشخص وفى »
« أمور أخرى . »

حمدان

لم تكن الرسالة مكتوبة بخط حمدان ، ولكن التوقيع يشبه توقيعه . وجعل نصيف يتأملها ملياً ثم قال :

— من الذى سلمك هذه الرسالة ؟

— عجيب والله ! لقد تسلمتها من يد حمدان عينه .

— هل كتبها أمامك ؟

— لقد أخذتها منه مكتوبة .

— وأين هو الآن ؟

— لقد أوصانى بكتمان هذا السر وأنت تعرف السبب .

— وهل أوصاك بكتمانه عنى أيضاً ؟

ـــ لم أسأله فى ذلك . ولذا أرجو قبول معذرتى إن اضطررت لكتمانه عنك أيضاً .

ـــ هذا غريب . . .

أشعل نصيف عوداً من الثقاب وقرّبه من الرسالة فسرت فيها النار والتهمتها التهاماً . وفتح النافذة ثم مد يده ببقايا الرسالة المحترقة ، ونفخ فى الرماد فذهب مع الريح . وبينما يعالج إغلاق النافذة إذ دوى فى أرجاء القلعة صوت طرق شديد . . .

سرت فى جسد نصيف رعدة سمرته فى مكانه . ونظر اليه عطا الله فوجده قد حال لونه ، وتراخت عضلات وجهه ، فاتسعت عيناه ، وتدلت شفتاه ، وسقطت يداه الى جانبيه . وكان من يراه وهو على هذا الحال يتعذر عليه أن يلمح الصلة بين نصيف الواجف المذعور الذى يبدو الساعة كالمصعوق ، ونصيف الممتلىء ثقة وخيلاء الذى كان منذ لحظة يجول فى الغرفة كالأسد فى عرينه . .

أخذ العرق يتصبب من جبينه ، وبدأت شفتاه تتحركان دون أن يسمع منهما صوت . وبدا عليه أنه على وشك الانهيار فأسرع يعتمد على حافة المكتب وهو يتمتم .

ـــ من هذا ؟ من ... من يكون الطارق.... مليم ، مليم . لقد ضعنا ... ضعنا . . .

واستولى عليه نشاط مفاجىء فأخذ يبحث فى جيوبه عن شىء ، وأخيراً أخرج مفتاحاً عالج به درجاً من أدراج مكتبه ، فلما انفتح راح ينقب فى أرجائه ويقذف بما فيه من أوراق إلى أن اهتدى إلى ضالته ، فصاح قائلا :

ـــ هاهو ذا ... سأقتلك أيها الجاسوس القذر . . .

قفز عطا لله من مقعده وصدرت منه صيحة ملتاعة . فقد رأى فى يد نصيف المرتجفة مسدسا مصوباً إلى صدره . وكان الذعر المستولى على نصيف لايؤمن معه من انطلاق هذه الآلة الجهنمية فى أية لحظة . فجرى عطالله إلى دولاب فاحتمى به وهو يصيح قائلا :

ــ لاتكن مجنوناً . . . ألق بهذا المسدس من يدك .

ولكن نصيف أخذ يتقدم منه فى بطء ، وهو يقول :

ــ قسماً إذا كان هؤلاء رجال الشرطة فلن يصلوا إلى إلا من فوق جسدك .

انكمش عطالله فى مخبئه وأخذ يتوسل إلى نصيف قائلا :

ــ تعقل بربك ... ماصلتى أنا برجال الشرطة ؟ إن مركزى كمركزك سواء بسواء .

وسمع صوت الطرق ثانياً فارتجف نصيف رجفة أسقطت المسدس من يده ولكنه بدلا من أن يلتقطه أخذ يولول قائلا :

ــ ماذا أفعل ... سيحطمون الباب . . . ماذا أفعل . . .

وبرقت فى خاطر عطالله فكرة فخرج من مخبئه واقترب من نصيف قائلا :

ــ لابد أن لديك أشياء يجب ألا تقع فى أيدى رجال الشرطة فهلم بنا نتخلص منها . أين هى ؟ .

وفى تلك الأثناء وصل إلى أسماعهم صوت أقدام تصعد السلم عدواً ، فأرهف نصيف أذنيه ، وشخص ببصره نحو الباب . وعاد عطالله يلح قائلا :

ــ هيا بنا قبل فوات الأوان . هل لديك أعداء من المنشور الأخير ؟

غير أن نصيف لم يكن يستطيع الكلام ، فظل مسمراً فى مكانه وعيناه رانيتان الى الباب : كأنما قد طلع عليه شبح مخيف . ما الفائدة الآن ؟ ، لقد ضاع كل أمل فى أى شىء .

وانفتح الباب فى عنف ودخل منه مليم وهو يعدو قائلا :

ـ يانصيف بك . . . لقد ضعنا...

صدرت من نصيف آهة خافتة وبدا عليه كأنما يبحث بعينه عن شىء. ثم مالبث أن تهالك على مقعد قريب وهو يئن . ولكنه فى لحظة أخرج من جيبه لفافة تبغ وأشعلها بأصابع مرتجفة ، ثم مر بيده على شعره فنسقه والتفت الى مليم وقال بصوت متهدج :

ـ دعهم يدخلون . إننى هنا . ولتحى مصر . . . .

الفصل السادس

ما بلغت تلك الطرقات العصبية أسماع مليم غادر غرفة هانيا مسرعا وعدا نحو الباب . ولكنه لم يلبث أن وقف فجأة قبل أن يبلغه ، فقد سمع خالد يسأل المجذوب عنه .

وامصيبتاه ! عاد أدراجه مهرولا ، وصعد غرفة نصيف ليدبر معه طريقا للخلاص من تلك الورطة . ولكنه وجده يقوم بمظاهرة انفرادية ينادى فيها بحياة مصر .

وسمع والده يناديه من أسفل السلم فحار فى أمره . ولكن سرعان ما استولى عليه شعور فقدان المبالاة الذى هو أقرب المشاعر الى نفسه كلما دهمته ضائقة . فنزل السلم ثانية وأقبل على والده يسأله عما يريد .

ـــ هذا الأفندى يسأل عنك .

كان الدهليز لا يضيئه سوى مصباح زيتى ضئيل النور ، فتظاهر مليم بأنه يتفرس فى محيا القادم الجديد ثم البث أن صاح قائلا :

ـــ خالد بك . . . أهلا وسهلا . تفضل ياخالد بك . خير إن شاء الله .

حدجه خالد بنظرة صارمة وقال فى جفاء :

ـــ إنك تعرف لماذا أتيت ؟

فتصنع مليم الدهشة وقال :

ـــ كيف أعرف ياخالد بك ! أترى لم تحضر سيدتى فى الموعد الذى ضربته لك ؟

ـــ أية سيدة أيها المنافق الكذاب . . .

ـــ عجبا ! ألم تسمع صوتها فى المسرة ؟

ـــ صوت من أيها المحتال ؟ أهذا عملك الشريف الذى طالما تقت إليه ؟

وبلغت هذه المناقشة أسماع الرفاق الجالسين فى الظلة فصاح شتا قائلا :

ـــ من هذا ياملیم ؟ إن كان سائلا فانهره ، ثم اقطع يده قبل أن تطرده ، فقد صدع رءوسنا بطرقاته .

فأجاب ملیم وهو يتكلف المرح :

ـــ إنه خالد بك يا أستاذ شتا . تفضل ياخالد بك . تفضل فستجد صحبة مؤنسة تعوضك عما فات .

وأخذ ملیم يدفعه دفعا رفيقا ، ووجد خالد نفسه يتقدم بالرغم منه إلى أن صار وسط الظلمة بين عصبة من الفتيان لم ير أغرب منهم . وقدمه ملیم إليهم قائلا :

ـــ هذا هو خالد بك الذى سجنى والدة الباشا .

فصاح سعد الدين قائلا :

ـــ أهلا وسهلا يا أستاذ خالد . تفضل . إن والدك عدو لدود لنا جميعاً .

وقدم له ملیم مقعداً وقال :

ـــ تفضل فاجلس . وسأذهب فأستدعى رب البيت ليقوم بواجب الترحيب بك .

وانطلق يعدو إلى نصيف فوجده قد فض المظاهرة ، فاستطاع أن يطلعه على جلية الأمر . وكان نصيف قد ملك زمام عواطفه فعادت إليه ثقته بنفسه وأصبح زعيم القلعة كما كان . ظل يستمع إلى ملیم فى هدوء فلما انتهى من قصته قال له فى اقتضاب :

ـــ أرسله إلى .

ـــ أنه ثائر محنق . وأخشى . . .

فقاطعه بلهجة الزعامة قائلا :

— قلت لك أرسله إلى .

— أليس الأفضل أن أدعو الرفاق جميعاً .

فقطب نصيف برهة ثم قال .

— لا بأس .

بعد لحظات كان الرفقاء يتوافدون على حجرة نصيف ، وخالد يسير وسطهم وهو مشدوه مما يرى . فالحق أنه لم يتوقع أن يوجد فى مثل هذه البيئة العجيبة ، فقد حسب وهو يطرق الباب أنه لن يجد سوى مليم ووالده فى مسكن متواضع خاص بهما .

وكان نصيف قد أضاء مصباحاً آخر فى تلك الأثناء ، فلما دخل خالد الحجرة وجد النور يتوهج فيها ، ويبدى سائر معالمها . كانت حجرة متسعة رحبة الجوانب . وكان أثاثها شرقيا فى الغالب . فعلى اليمين أريكة طويلة موشاة بالخزف ويعلوها بساط ساطع الألوان . وإلى اليسار دولاب ضخم لمكتب أسدل عليه مفرش من حرير مطوز . وفى جوانب الحجرة مقاعد شرقية ومتكئات عليها وسائد من الجلد أو من الحرير ، كتلك التى تباع للسائحين فى خان الخليلى . وفى صدر الحجرة مكتب نصيف الضخم تعلوه الكتب والأوراق والنشرات . وإلى جانبه « جرامفون » عتيق الطراز يبدو أنه من مخلفات الآباء .

غير أن أكثر ما استلفت نظر خالد إطار معلق فوق رأس الجالس إلى المكتب . وكان هذا الاطار لايحوى إلا ورقة بيضاء فيها ثلاثة أسطر مكتوبة باللغة الإنجليزية . أما ترجمة هذه الأسطر الثلاثة فهى كالآتى :

« الرجل العظيم من يسعى إلى خلق أشياء جديدة وفضائل جديدة .

« والرجل الصالح هو من يسعى إلى أن يظل القديم على حاله.

« وإن أشد خطر يتهدد الرجل العظيم هو أن يصبح رجلا صالحا »

لم يغادر نصيف مقعده حين دخل عليه خالد والرفاق ، بل رد تحية خالد وهو جالس ، وأشار له إلى مقعد قريب منه . وقبل أن يفتح خالد فاه ، الفتت إليه نصيف وقال له إنه يعلم الغرض من زيارته ، وإن عليه ألا يجهد نفسه فى إثبات اتهاماته ، فهى جميعاً صادقة ، وإن مافعله مليم معه ليس إلا حيلة لابتزاز بعض النقود ، بيد أن هذا لايعتبر سرقة ، لأنه ـ وإن كان قد دفع عشرين قرشاً ـ فقد استمتع يوماً كاملا بخيالات لطيفة ورؤى بهيجة ، كما أنه قد سعد بالاستماع إلى صوت نسوى رقيق .

ألجم لسان خالد فلم يدر ماذا يقول . إن هؤلاء النفر هم أعجب من وقع عليهم بصره من الناس . ولقد بهره ماسمع وما رأى فلم يدر أيعجب بهم أم يثور عليهم . ولكنه كان عنيداً فلم يقبل وجهة النظر الغريبة التى سمعها من نصيف ، بل أجابه قائلا :

ـــ لست أدرى كيف لا تكون فعلة مليم من باب السرقة . إننى لم أعطه مالا لاستمع إلى صوت نسوى رقيق ولكن لشىء آخر أنت تعلمه .

ألقى نصيف رأسه إلى الوراء واضطجع فى مقعده وهو ينظر إلى خالد من عل وقال :

ـــ ياسيد خالد . إننى لو افترضت أن مليم قد صادفك فى الطريق فنشل حافظة نقودك فما أعتبر هذا سرقة . فإن مليم فقير وليس الفقراء هم الذين يسرقون الأغنياء ، إنما الأغنياء هم الذين يسرقون طعام الفقراء ـ وسعادتهم ، وصحتهم ، بل بشريتهم أيضاً . لا ياسيد خالد . لا . . . كفى مليم تجربته الأولى . فإن أخاك هو السارق ، وأباك هو المنتفع ، ومليم هو الذى دفع .

كانت كلمات نصيف مما يحلو لاسماع خالد. ولكن الذى غاظه هو أنه جعله من زمرة أخيه وأبيه فانطلق يدافع عن نفسه قائلا :

— قد يكون الحق ماتقول . ولكن مليم لم يستعمل حيلته مع أبى أو أخى . ولكنه استعملها معى أنا . . . أنا الذى كنت نصيره الوحيد . أنا الذى تركت أبى وهجرت أسرتى من أجله . . . فهل أفهم من هذا أن مليم قد تجرد من كرامته بحيث . . .

لم يتم خالد حديثه إذ قاطعته ضحكة ساخرة صدرت من فم نصيف .

— أ أسمعك تقول الكرامة ؟ هذا لفظ لا نعرفه هنا أيها السيد العزيز . فالفتيان الذين يحيطون بك الآن هم أناس اختاروا لانفسهم لقب «الرفقاء الأنذال» . الكرامة . . . إن لنا معجماً خاصاً بنا ياسيد خالد . هذا المعجم هو « معجم الفقراء » ، وهو لذلك خلو من كثير من الكلمات التى تعرفها أمثال : الكرامة ، والشرف ، والأمانة ، وغير ذلك من الحلى الغالية التى يستطيع الأغنياء ابتياعها ولكن لا يقدر عليها الفقراء .

وجاء دور خالد لكى يطلق ضحكة ساخرة فأطلقها وقال :

— هذا شىء عجيب . فقد كنت أظن أن الكرامة والشرف جواهر لا يتحلى بها سوى الفقراء . ولكنك تحدثنى بأن الفقراء لا يعلمون من أمر هذه الصفات شيئاً . فهل لك أن تخبرنى أين أجدها إذن ؟

— إن كان يهمك العثور عليها فاذهب إلى دور الآثار فستجدها هناك مع جثث الفراعنة ، وبين ركام أسلحة الغزاة الأول ، ووسط مخلفات الشعوب المتوحشة التى قرأت أخبارها فى كتب التاريخ . إن الإنسان المتمدين لم يعد فى حاجة الى مثل هذه التهاويل التى تعرقل تقدمه . فالكرامة ليست الا الحرب الضروس ، والشرف معناه الغيرة والحسد والحقد ثم القتل من بعد ذلك . أما الأمانة فمعناها السرقة ،

لأنها الوسيلة التى تبرر احتفاظ كل سارق بما سرق .

غادر سعد الدين مقعده ثم تثاءب وتمطى وتقدم من نصيف وهو يقول:

ـــ ما أظنه يفاهم شيئاً مما تقول . . فالذى يلوح لى أنه تربى تربية إنسان ما قبل التاريخ .

ثار خالد وتملكته العزة فصاح قائلا :

ـــ ياحضرة المحترم . . . إننى تخرجت فى أعرق جامعات النمسا .

التفت سعد الدين الى نصيف وقال له :

ـــ ألم أقل لك ؟ إنه أمىّ .

ثم أدار رأسه صوب خالد واسترسل قائلا :

ـــ إننا أيها السيد المفضال لا نثق كثيراً بخريجى الجامعات . فالشخص الصالح لا يطيق الاستمرار فى دور العلم ليتلقى الحذر الفارغ الذى يقدمونه له . وكان عليك أن تترك المدارس بعد أجازة الكفاءة . ولا عذر لك قط إن بقيت بها بعد حصولك على إجازة البكالوريا .

وانبرى شتا من مكنه فقال بلهجه مسرحية :

ـــ الكرامة حقا . . . إننى حين سمعت هذا اللفظ حيل الى أننى عدت صبياً صغيراً فكدت أطلب من السيد خالد أن يتفضل على بقطعة من « الشوكولاته » .

ثم وقف فجأة ورفع يديه قائلا :

ـــ أيها الرفاق. علينا أن نختبر الأستاذ خالد أولا لنرى أهو ممن يجدى معهم الكلام أم أننا ننفخ فى رماد . ما رأيكم فى اختبار الجزيرة ؟ إنكم موافقون ؟ حسنا .

دس شتا يديه فى سرواله وتقدم من خالد ثم وقف يتأمله برهة وقال :

ـــ هل أنت جزرى يا أستاذ خالد ؟

رفع خالد بصره الى ممتحنه وقال :

ـ لست بفاهم ؟

ـ أنصت إلى يا سيد خالد . افترض أنك قمت برحلة مع أسرتك . وبينما أنتم وسط المحيط إذ قامت عاصفة هوجاء أغرقت السفينة ، فلم ينج من ركابها سواك وأخت لك ، فتعلقتما ببعض حطام الباخرة ، وظللتما على هذا الحال الى أن ألقت بكما الريح إلى جزيرة صغيرة . ولما استقر بكما المقام فى هذه الجزيرة ، رحت ترتاد مجاهلها مع أختك فظهر لكما أن ليس بها من البشر سواكما . ومرت بكما الأيام والليالى دون أن تجوز بكما سفينة حتى تأكد لديكما أنكما لن تغادرا هذه الجزيرة حياتكما . والآن أخبرنى يا أستاذ خالد : أتسمح لنفسك فى هذه الحال بأن تعاشر أختك معاشرة الأزواج أم تراك تمتنع من ذلك ؟

ثارت ثائرة خالد فقفز من مقعده بعنف وصاح قائلا :

ـ أراكم تعبثون بى وتتخذون منى أداة تلهية لكم . . .

وتكلم عطا الله أول مرة وقال :

ـ لا تلق بالا إليهم يا خالد بك فهذه عادتهم . إن كنت تريد الانصراف فأنا طوع أمرك .

وكان لابد حينئذ أن يتدخل نصيف فى الأمر فتكلم بصوت هادىء قائلا :

ـ هدىء من روعك يا أستاذ خالد . يلوح لى أنك لا تزال شديد الحساسية . وهذا نقص كبير أوقعتك فيه خيالات الكرامة والعزة . ولكنك معذور فأنت تفهم الإنسان فهماً خاطئاً جداً . إنك تتصوره شيئاً عظيما يتجسد فيه العالم أجمع . إن الإنسان فى نظرك شىء مقدس تدين له الخلائق بالطاعة والاحترام . ولذلك فأنت تثور وتحتد وتغضب

لاتفه الاشياء . ولكنك إذا خرجت إلى شرفتك ذات مساء ، وجلت ببصرك فى الكواكب والنجوم التى لا يحصرها العد ، أدركت أن الأرض لا تعدو أن تكون مجرد ذرة بجانب تلك العوالم الضخمة المنتشرة فى الآفاق الفلكية . وحينئذ تستطيع أن تدرك أن الإنسان ليس بالشىء التافه فحسب بل إنه لا شىء مطلقاً . قطعة من الجبن نهكتها الأيام ، تزحف عليها ديدان حقيرة ـ هذه هى الأرض وهذا هو الإنسان .

ضاق صدر خالد بهذه الصورة البشعة التى رسمها له نصيف ، فأطرق وهو مقطب ثم رفع رأسه قائلا :

ـ إن كان الأمر على ما تصف فما تكون حكمة الوجود وما الغرض من الحياة ؟

هز نصيف كتفيه وقال :

ـ لا حكمة ولا غرض . إنك تبحث عن شىء غير موجود ، كمن يبحث عن حكمة تألق الماء إذا انعكست عليه أشعة الشمس . هذه الأرض التى نعيش فيها إن هى إلا مجموعة تفاعلات أنتجت ما ترى من بهم وأشجار . ولو تغيرت درجة الحرارة فى حقبة من الأحقاب ، أو اتفق أن كان موضع الأرض فى الأثير أكثر قرباً أو بعداً من الشمس ، لرأيت غير ماترى من كائنات ، ولما تشرفت هذه الكائنات برؤياك . فأين هى الحكمة ؟ وما هى حكمة فقدان الحياة فى القمر ؟ إنها حكمة المصادفة لا أكثر ولا أقل . . .

* * *

استمر الحديث بين الرفاق دائراً فمضى الهزيع الأول من الليل وفى إثره الهزيع الثانى وهم لا يزالون فى حوار ونقاش . كانوا لا يتعبون من الكلام . فكرهم يصطنع المعنى ، وألسنتهم تدور باللفظ ، وأحوال العالم

وأقداره منسوطة أمامهم يصرفونها كيف يشاءون . ولقد وجدوا فى خالد فرصة تمكنهم من تصريف مكنون رءوسهم ، فتلاحموا عليه وأمطروه بوابل من آرائهم حتى أصبح المسكين ككرة « التنيس » ، يتقاذفون أسماعه فيما بينهم وهو زائغ البصر مبهور النفس .

واحتل نصيف مركز الزعامة فكان المشرف والمدير ، وكانت له الكلمة الفاصلة فى كل موضوع . أما سعد الدين فقد كان يقوم بدور نائب الزعيم ، إذ تترك له موضوعات « الدرجة الثانية » ، فيتناولها بالشرح والإيضاح . وكان شتا كعادته ينظر إلى الحديث وإلى المتحدثين من الوجهة المسرحية . فهذا كلام مقتضب انتهى نهاية سريعة ، وهذا المحدث يسىء استعمال صوته ولا يعرف كيف يستخدم نبراته فى إحداث الأثر المطلوب . . . الخ . أما خورين فيقوم دائماً بدور المؤيد لآراء الآخرين . ولما كان أغنى سكان القلعة فقد جرى بين رفاقه تقليد على أن يترك له المتحدث بقية من رأيه ليتمها هو ، حيث يختتم كلامه دائماً بعبارة « مفيش فايدة » ، حتى أصبحت عنواناً له . وكان نصيف يشبهه بالكناس الذى يجمع فضلات الناس ويجعل منها بضاعته الخاصة .

أما عطا الله فما إن عرف أن خالد هو ابن أحمد باشا خورشيد صاحب المركز الخطير فى وزارة الداخلية ، حتى صرف همه إلى تملقه والتودد إليه . ففى الوقت الذى لم يكن خالد يجد فيه من بين الرفاق نصيراً يؤيد آراءه ، كان عطا الله يهب دائماً لنصرته ، محاولا تسويغ أفكاره والدفاع عنها .

وفى أولى ساعات الليل دخلت هانيا عليهم فرآها خالد أول مرة . هذه إذن صاحبة الصوت الساحر الذى ظل يرن فى أذنيه طول النهار ! وأدركت الفتاة أول الأمر أن خالداً قد وقع فى فخ فتنتها فلم تتأخر فى

أن تسلط عليه أقوى أسلحتها : عينيها الرماديتين ذواتى الأهداب الطويلة المقوسة . فكانت كلما سنحت سانحة ضحكت ضحكة رقيقة كرنين الكئوس ، ثم تشفعها بنظرة متكسرة ينخلع لها قلب الفتى المدله .

فى تلك الليلة أحس خالد بأنه فى حلم . ففى رأسه ثورة أفكار ، وبين جوانحه ثورة عواطف ، أما نفسه فقد بحث عنها فلم يجدها .

وعند ما كان الفجر يرسل أضواءه البواكير ، كان خالد يفتح باب حجرته ، ثم ما لبث أن ألقى بنفسه على فراشه ، وغرق فى سبات عامر بالأحـــلام .

الفصل السابع

تتالت الأحداث بعد تلك الليلة فى سرعة فائقة . ففى اليوم التالى كان خالد يقطن حجرة بالقلعة . وبعد عشرة أيام كان ملقى فى حجرة السجن التى بات مليم ليلته فيها عند ماتهم بالسرقة .

كان للأفكار التى ألقيت فى أسماع خالد أثر عميق فى نفسه . فبالرغم من أنها أفزعته وأرهبته أول الأمر ، وبالرغم من أنه قد عز عليه أن يكون العالم على تلك الصورة البشعة القاتمة التى رسمها له الرفاق ، فقد وجد نفسه أخيراً يتقبل هذه الصورة وتلك الأفكار ، بعد أن أدرك أنها ليست سوى النتيجة الطبيعية للفلسفة التى اعتنقها . إنها مقدمات مبادئه نفسها بعد أن سار بها سكان القلعة الى نهاياتها المحتومة . لقد وقف هو فى منتصف الطريق ، وأشعل نارا فاترة كانت للزينة أكثر منها للتخريب والتدمير . أما الآن فأمامه جهنم الحمراء عينها ، يتلظى فيها السعير ، وتتعالى ألسنة اللهب من كل جانب . . . . فليلق بنفسه فى أحضانها إذ لم يعد من ذلك بد .

لم يكن فى القلعة حجرة خالية . فأفردوا له الحمام الكبير الذى كان ملاصقا لغرفة هانيا . وكان هذا الحمام حجرة فسيحة أرضها وحوائطها من الرخام ، أما سقفها فمن الزجاج الملون وفقا للطراز التركى الذى جرى المماليك فى آخر أيامهم على الاقتداء به فى مساكنهم وأزيائهم .

كان أغلب سكان القلعة يغادرونها فى الصباح سعيا وراء الرزق . فلم يكن يبقى بها سوى هانيا ومليم وخورين فى بعض الأحيان . لذلك كان خالد يقضى بياض نهاره فى حجرته على زعم أنه يقرأ . أما حقيقة الحال

فهى أنه لم يكن يستعمل عينيه فى القراءة . ولكن فى التطلع الى هانيا من ثقب الباب الذى يفصل حجرتيهما . كانت كل دقيقة تمر عليه فى القلعة تزيده تدلها بحب الفتاة . أصبح لا يفكر إلا فيها ، ولا يحلم إلا بصورتها . وفى ظرف أيام ثلاثة كان الغرام قد استبد به حتى بلغ حد العبادة : كان مجرد ذكر اسمها يبعث فى جسده رعدة يخفق لها قلبه طربا ورهبة فى آن . صار يقدس كل مايمت إليها بصلة ، حتى أنه كان يسرع إلى المقعد الذى كانت تجلس عليه فيقبل موضع جلوسها إن لم يوجد من يراه ، أو يتحسسه بأصابعه إن وجد بالمكان أحد . وفى الليل كان يمضى ساعات طويلة ملصقا أذنه بباب حجرتها لينصت إلى ترديد أنفاسها وهى نائمة . بل لقد بلغ من شدة هيامه أن سمح لنفسه مرة بدخول حجرتها أثناء غيابها ، فاختطف منديلا لها كان ملقى على الفراش ، وكان بوده لو استطاع أن يأخذ بعض ملابسها التى كانت معلقة على المشجب لولا خوفه من افتضاح الأمر .

وأعجب مافى أمر هذا الفتى أنه كان يزعم أنه من أشد الناس احتقارا للنساء . ومما ساعد على نمو هذا الشعور أنه كان موضع إقبال كثير من فتيات تلك الطبقة التى كان يغشى مجالسها إلى عهد قريب . وكان يحلو له أن يردد على صحبه أنه لن يستطيع امرؤ أن يضبطه متلبسا بجريمة حب فتاة . فالحب كما يتصوره الناس ليس حقيقة وإنما هو وهم اصطنعته مخيلة رجال عاشوا فى مجتمع قائم على الجهل والكبت الجنسى . فإذا مارفع الجهل وزال الكبت ، أصبح الحب مجرد حركة رياضية .

كانت هانيا على علم بعاطفة خالد . ولقد اعتادت فيما مضى أن تصد كل محاولة غرامية يقوم بها أحد الرفاق . ولكنها سلكت مع خالد غير هذا المسلك . ولم يكن هذا لأنها شعرت بميل إليه ، ولكن لأنه سرها أن

يكون لها مثل هذا التأثير على فتى يختلف عن بقية فتيان القلعة . فتى تبين عليه علائم النعمة والثراء . وينتمى إلى تلك الطبقة الراقيـــة التى لها — على الرغم من كل ما يقال عنها — سحر خاص يجذب قلوب غير المنتمين إليها . لهذا كانت تشجع خالدا على المضى فى غوايتـــه وتيسر له سبل الاعتقاد بإمكان بلوغه الهدف الذى يطمح إليه ، كل هذا بطريق خفى دون أن تورط نفسها فى موقف صريح يؤخذ عليها .

كان خالد يسمع فى كل ليلة من سكان القاعة آراء ثائرة جريئة تفتن له . حتى إذا ما أوى إلى فراشه اضطرمت تلك الآراء فى فكره اضطراما مبلبلا يطرد النوم عن أجفانه . ولم تكن هذه الأفكار بالنسبة لقائليها إلا كلمات يقصد بها التسلية وتزجية الفراغ . إنها مجـــرد ألفاظ ضخمة اعتادوا ترديدها ليثيروا بها أفئدتهم . وليصوروا لأنفسهم أنهم من الأبطال المغاوير . فالنفس بطبيعتها تميل إلى استشعار الخطر والرهبة بين آن وآن . وقد كان أسلافهم يعمدون كلما دهمهم هذا الشعور إلى المبارزة والصراع . ثم ابتكر الإنسان بعد ذلك فكرة الرياضة ، فأصبح يشبع هذه الرغبة النفسية بمشاهدة مصارعة الديكة أو الثيران ، ثم جاءت من بعدها مباريات الملاكمة وكرة القدم إلى غير ذلك من مظاهر الوحشية المستترة . أما سكان القلعة فقد ابتكروا هذا النوع من المبارزة الكلامية التى يتحمسون لها فى حينها أشد التحمس . فإذا ما انتهت هذه المبارزة على وجه من الوجوه . خمدت شهوة المشتركين فيها وأشبعت رغباتهم ، فتراهم من بعد ذلك ينامون ملء جفونهم وادعين .

إلا أن خالدا لسوء حظه كان ينظر إلى هذه المناوشات اللفظية على أنها حقائق سامية تستدعى العمل على تحقيقها . فقد كانت له طبيعة صادقة مخلصة لا تفرق بين الكلام والاعتقاد . فهو يحس الأفكار بوجدانه ،

على حين أنهم يتخذون منها أداة لإدارة ألسنتهم وسماع أصواتهم . ولقد خيل إليه أن الطريق سهل والقطوف دانية . فما من أحد يمكن أن يعترض على الإصلاح ، ولا يمكن للظلم أن يقف فى وجه العدالة .

لهذا وجد عطا لله فى خالد ضالته المنشودة . فظل يملأ أسماعه بوجوب المبادرة إلى العمل . كفى كلاما فالأمر يحتاج إلى عمل حاسم سريع . وأخذ يمهد له السبل ويبسط له الوسائل . الأمر سهل ، والطريق مأمون ، والغاية قريبة .

وفى ذات ليلة احتدم النقاش بين سكان القلعة فقال نصيف :

ــ إن الأمر صعب ، والطريق شاق ، والغاية بعيدة كل البعد .

فاحتج خالد قائلا :

ــ وما فائدة أن نظل نتكلم فيما بيننا كل ليلة ؟ يجب أن يرتفع صوتنا إلى الخارج عالياً حتى يصل إلى أسماع الحكومة فتأخذ بالإصلاح الذى ننادى به .

وضحكت هانيا فى سخرية وقالت :

ــ إننا هنا لا نقدر إلا على الكلام ياخالد بك . أما رجل العمل والحزم فلم يخلق بيننا بعد . وهو لو وجد لما احتاج إلى الكلام إطلاقا ، لكثرة ماسيزحم به يديه من أعمال .

وتنهدت الفتاة ثم أضافت قائلة :

ــ أين هو ذلك الرجل ليهدم هذه القلعة من أساسها . . . :

اكفهر وجه نصيف وبدا عليه الضجر مما سمع . فقد شعر أن هذه اللمزات موجهة إليه خاصة بوصفه زعيم الجماعة المسئول عن توجيهها . لهذا ألقى لفافته بعنف واندفع يقول :

ــ أخشى أنكم لاتدركون الحقائق حق الإدراك . إننا نقصر جهدنا على

الكلام لأن واجبنا هو أن نتكلم فحسب . فالجيل الماضى هو الذى وقعت عليه المظالم فتحملها دون أن ينطق . أما جيلنا فهو الجيل الذى عليه أن يشخص هذه المظالم ، وأن يعبر عنها بالكلام . فدورنا الأساسى الذى يجب أن نقوم به ، هو أن نسعى إلى تكوين وعى اجتماعى مدرك لوجود هذه المظالم ، ومقتنع بوجوب إصلاحها . هذا هو الدور الذى قدر لنا أن نقوم به ، وهو على خلاف ماتظنون أنبل الأدوار جميعا ، لأن القائم به يهب حياته لخدمة قضية سيعود نفعها على الأجيال المقبلة ، أما هو فيعيش ويموت جندياً مجهولا لا يدرى بخبره أحد . فإن كنتم ترونا نتكلم ، فما ذلك إلا ليعمل الجيل المقبل . وبقدر ما نتكلم وندرس ونناقش يكون اقترابنا من الهدف المقصود . فعليكم أيها الرفاق أن ترضوا بما قدر لكم ، وألا تذمروا من الدور الذى يطلب منكم التاريخ أن تضطلعوا به .

ooo

كانت كلمات نصيف تفتن لب خالد عادة . ولكن الذى سيطر على فؤاده فى هذه الليلة هو تلك الكلمات التى فاهت بها معبودته والتى ظنها موجهة اليه وحده : « أين هو ذلك الرجل » . . . عليه أن يثبت لها أنه ذلك الرجل الذى تبحث عنه ، وأنه من طينة غير طينة سائر سكان القلعة . وإلا فكيف يطمع فى أن تهتم به وأن تبادله عاطفته ، إن لم يميز نفسه عن الآخرين ؟ إن كان يريد أن يكون جديراً بحبها ، فعليه أن يسمو إلى آفاق مثلها . عندئذ يستطيع أن يحظى بإعجابها . فإلى العمل إذن . . .

فى تلك الليلة لم ينطفىء النور فى حجرة خالد . وشعرت به هانيا فى أثناء الليل وهو يجول فى غرفته كالأسد الحبيس . ومرة قامت من فراشها ونظرت من ثقب الباب فوجدته منكباً على أوراق يسودها ثم ما يلبث أن يمزقها ويعود إلى التجوال من جديد . وعند الفجر كان قد

هذه التعب والسهر. فاستلقى على فراشه ونام نوما مضطربا تتخلله أحلام مزعجة، كانت تبعثه مفزوعاً من رقاده.

وفى ضحى ذلك اليوم غادر حجرته ونزل يبحث عن المجذوب. كان أشعث، طويل اللحية سيء الهندام، كأنما هو آت من سفر طويل. ولما أن عثر على المجذوب ظل يحادثه بعض الوقت، ثم أخرج من جيبه أوراقاً أطلعه عليها، فهز المجذوب رأسه وابتسم. وعاد خالد يلح عليه ويمعن فى الإلحاح، والمجذوب على حاله من الرفض، إلى أن شعر بنقود تدس فى يده. فتغيرت معالم وجهه وبدا عليه أنه قبل ما يعرضه عليه.

وبعد لحظة غادر كلاهما القلعة ولم يعودا إلا قبيل الأصيل.

وفى تلك الليلة جلس خالد مع الرفاق، ولكنه لم يشترك معهم فى الحديث. كانوا كعادتهم يجعجعون ويتصايحون. أما هو فقد انتحى مكاناً قصيا يشرف عليهم منه كما يشرف الأستاذ على تلامذته الأيفاع. فهو يشعر الليلة بأنه قد أتى عملا يجعله ممتازاً عنهم، كما يدل على أنه من عنصر غير عنصرهم. فهم لا يزالون أطفالا يلهون. أما هو فقد صار رجلا مسئولا، تقع على عاتقه مهام خطيرة، وتتعلق به مصائر الكثيرين.

وشعرت هانيا بأنه ينظر إليها نظرات غريبة لم تدرك لها تفسيرا. لم يكن الليلة يتودد لها كما كان يفعل من قبل. ولم يكن يضطرب كلما رفعت اليه بصرها أو توجهت اليه بالخطاب. ولكنه كان يقابل نظراتها بثقة وهدوء، ويرد على أسئلتها باعتداد. بل لقد كان يعاملها أحيانا باستعلاء وترفع، كأنما الآية قد انعكست وأصبحت هى المتيمة المشغوفة. وأرادت أن تغيظه فسألته قائلة.

— هل تشعر اليوم بتوعك يا خالد بك؟

فحدجها ببصره هنيهة ثم قال:

— ما الذى دعاك إلى هذا السؤال يا هانيا ؟

كانت هذه أول مرة ينطق فيها باسمها . وخشيت الفتاة أن يكون هذا مقدمة لشيء آخر فأسرعت تقول :

— لاشيء . ولكن خيل إلى أنك الليلة منطو على نفسك لاتشارك الحديث .

وضحك نصيف وقال :

— لعلك قد كسبت اليوم إحدى قضاياك ، فأنت منتش بخمرة النصر لا تهتم بنا أو بحديثنا .

فابتسم خالد ولم يجب . أما عطا الله فقد كان يرمقه عن كثب ، وقد بدت على شفتيه أيضاً ابتسامة ولكنها من نوع آخر .

وفى مساء اليوم التالى تسلل خالد من القلعة دون أن يشعر به إنسان . ولو أن أحداً من الرفاق أبصره فى هذا الحين لما استطاع أن يتعرفه ، فقد كان متخفيا فى زى غير زيه العادى . كان يرتدى جلبابا استعاره من مليم بحجة أن منامته قد اتسخت وليس لديه غيرها . وكان يضع على رأسه قلنسوة من صوف الجمل .

خرج خالد إلى الطريق وسار مهرولا دون أن يلتفت إلى شبح كان يتتبعه من قرب . ومر فى طريقه بقهوة بلدية فوقف أمامها مترددا ، ووقف الشبح ينتظر . وكانت فى يده أوراق قدسها فى صدره ودخل القهوة . كان المكان يزخر بالرواد فانتحى مكانا منعزلا وصفق يدعو الساقى ، فلما أتاه وطلب منه أن يحضر له « تعميرة على الجوزة » لم يكن خالد قد دخن الجوزة من قبل . فما إن جذب أول نفس منها حتى أخذ يسعل سعالا شديدا ووجه اليه الأنظار . ولكنه أراد أن يتستر ويخفى ما بدر منه فصاح بالساقى قائلا :

ـــ ما هذا يا معلم ؟ هل « تعميرتك » حامية اليوم ، أم ترانى أصبت بالبرد ؟

فضحك أحد الرواد وكان يجلس بقربه وقال :

ـــ أحضر له كوباً من الكراوية يا محمدين فالجوزة نفسها ثقيل عليه .

فالتفت اليه خالد وقال :

ـــ عيب يا معلم نحن رجال .

ثم صفق وصاح بالساقى قائلا :

ـــ أحضر للمعلم « تعميرة » على حسابى . أحضر لكل من بالقهوة ما يطلبون على حسابى ، أنتم جميعا ضيوفى هذه الليلة .

اشرأبت الاعناق ، وحول القوم أبصارهم ليروا هذا القادم الجديد الذى يتبرع بضيافتهم على غير سابق معرفة . وأخذ كل منهم يعلق على هذه الدعوة ما بين ساخر ومتعجب . أما خالد فقد غادر مقعده ووقف وسطهم يرد عليهم بما تسعفه به قريحته . وارتفع ضجيج القوم وتعالت ضحكاتهم ، ثم ما لبثوا أن التفوا من حوله وقد رابهم أمره . واغتنم خالد هذه الفرصة فاعتلى مقعداً وبدأ يصيح بأعلى صوته قائلا « أيها الاخوان ... »

أعقب ذلك حديث طويل لم يفهمه أحد من المستمعين ، ولكنه على التحقيق كان مصدر تسلية كبيرة ، فقد كانت أصوات ضحكاتهم تزداد ارتفاعا . سمعوه يقول إن الفلاح يأكل المش ويشرب من الطين ، فرد عليه أحدهم ضاحكا :

ـــ وهل تريد أن يأكل بقلاوة ويشرب تمر هندى ؟

وقال إن العامل فريسة للأمراض وآفته الجهل . فرد عليه آخر قائلا :

ـــ وما شأنك انت ؟

وصاح أحد المستمعين قائلا :

ـــ اتركوه اتركوه فهو يروج لبعض الأدوية . إن هؤلاء الشحاذين

أصبحوا يظهرون فى كل مكان حتى فى القطارات .

وأخيرا أخرج خالد الأوراق التى كانت فى صدره ثم أخذ يوزعها عليهم قائلا :

ـ اقرؤا هذه النشرات فتفهموا مقصدى. قولوا معى : ويحيا الشعب ،

فصاح أحد الواقفين ساخرا وقال :

ـ يا ليل يا ليل . . . . ما هذه المصائب التى تنزل على رءوس الخلق فى آخر الليل. اقذفوا به الى الخارج .

ولكنهم لم يكونوا فى حاجة إلى هذا الاجراء. فقد دهم الشرطة القهوة فى تلك الأثناء ، وقبضوا على خالد بعد أن غلوا يديه بالحديد ، ثم جمعوا المنشورات التى كان خالد قد طبعها بمعاونة المجذوب . وقادوه إلى المخفر وسط ضحك الرجال وصياح الصبية .

وصل خالد إلى المخفر فأدخلوه إلى غرفة المأمور وهناك وجد . . . يا للعجب ! والده ! أجل إنه والده بعينه وقد جلس مضطجعا ينفث الدخان من سيجاره طويل. ولكن عجبه لم يقف عند هذا الحد فقد التفت إلى ركن الحجرة فرأى عطاالله واقفا فى خشـــوع وعلى شفتيه ابتسامة نكراء. لم يعد هناك شك فى أنه قد وقع فى فخ نصبه له والده بمعاونة جاسوسه عطاالله.

رفع أحمد باشا بصره إلى ابنه وأخذ يتفحصه ساعة ثم قال فى سخرية لاذعـــة :

ـ كان على أن ألبسك بنفسى الرداء الذى ترتديه الآن ، وأن أجلسك مع الخدم حتى أربيك التربية التى تستحقها. أهلا أهلا بالبطل المغوار ... لقد كنت فى انتظار قدومك المظفر .

ثم التفت الى المأمور قائلا :

ـــ أرجو ياحضرة الضابط أن يأخذ التحقيق مجراه العادى وألا تكون للصلة التى بين هذا الفتى وبينى أى تأثير فى مجرى العدالة .

فأومأ المأمور مبتسما وقال :

ـــ أمرك ياسعادة الباشا.

استمر التحقيق إلى مابعد منتصف الليل ، ثم أودع خالد حجرة السجن حيث قضى ليلته بين اللصوص والمشردين . وفى لحظة من اللحظات وجد نفسه يذرف دمعا سخينا وقلبه يكاد يتفتت من فرط الكمد . كان قد انعقد عزمه على الانتحار.

ولما طال به البكاء دنا منه رجل كهل فربت كتفه ثم سأله قائلا :

ـــ مالك يابنى ؟

كان الرجل يتكلم بلهجة ريفية ارتاح لها خالد . ولما رفع إليه بصره رأى وجها كثير العضون ولمح فى عينيه بريقا يوحى بالإخلاص والتسامح . وكان خالد فى أشد حاجة إلى صدر حنون يبثه شكايته ، فسأل محدثه قائلا :

ـــ ما الذى أتى بك إلى هنا ياعماه ؟

فضحك الكهل ضحكة هادئة وقال :

ـــ يظهر يابنى أن مصر ممنوعة على أهل الريف . لقد هبطت القاهرة عصر اليوم . فلم أكد أسير فى طرقاتها بضع خطوات ، حتى قبض على أحد المخبرين بتهمة الاستجداء . ولكن هذا لايهم ، فسيجزيه الله على صنيعه إن كان سىء النية فيما فعل . ولعلهم يطلقون سراحى بعد زمن قليل. أما أنت يابنى فقد ترامت إلينا بعض الأنباء من أمرك . . . .

فقاطعه خالد والدموع لا تزال تسح من عينيه وقال :

— إن الذى يحزننى ياعماه هو أن الذين اضطهدونى وسخروا منى ومثلوا بى أشنع تمثيل ، هم هؤلاء الفقراء الذين كنت على استعداد لأن أضحى بآخر قطرة من دمى فى سبيل إسعادهم . . . .

هز الشيخ رأسه وعاد يربت كتف خالد قائلا :

— وهل كنت تنتظر غير هذا يابنى ؟ إن الفقراء يسوءهم أن يقال لهم إنهم فقراء . ويكرهون من يشعرهم برقة حالهم ، لأنهم فى حقيقة الأمر لايشعرون بوجود الأغنياء . إن لنا يابنى عالما مستكملا كل من فيه من الفقراء — فما اهتمامنا بالأغنياء ؟ ليكن من أمرهم ما يكون فإننا لانحس بهم فى الواقع .

لم يكن خالد قد سمع مثل هذا الكلام من قبل . فظل يتدبره برهة ثم قال :

— أصبت يا أبتاه . وإن للأغنياء أيضا عالمهم الخاص الذى لاوجود فيه للفقراء . وكل من الفئتين تسير فى طريقها متجاهلة الأخرى حتى لأخشى أنهما لن تلتقيا أبدا . . . .

خاتمـــة

بعد أربعة أعوام من الحوادث السالفة كان سعد الدين يسير متباطئاً فى ضاحية الزمالك . كانت المجلة التى يشتغل بها قد أرسلته إلى وزير سابق ليحصل منه على حديث خاص ببعض مسائل السياسة . فلما طرق باب الوزير قيل له إنه غير موجود . وكانت الساعة قد قاربت التاسعة مساء ، ولم تكن له وجهة معينة يقصدها . فأخرج من جيبه نصف لفافة ادخرها لوقت الحاجة ، فأشعلها ، وسار يتسكع فى الطرقات المعتمة .

وعلى حين غرة دوى فى الفضاء صوت صفارة الإنذار ، وصارت تنعب نعيبها المشئوم ، كأنه مسلط على القلوب ومنبعث منها فى آن . وكان قد مضى على نشوب الحرب ما يقرب من ثلاث سنوات ، غير أن الغارات لم يحم وطيسها إلا فى تلك الأيام الأخيرة ، فلم يكن يمضى يوم دون أن تنطلق فيه الصفارات فى مثل هذا الوقت من المساء ، وقد تنطلق مثنى وثلاث ورباع فى الليلة الواحدة .

وحدث سعد الدين نفسه بأنه لن يلجأ إلى مكان يحتمى فيه إلا اذا دعت لذلك حال . فقد كان وجوده فى مكان مغلق ، وسط إناس فاغرى الأفواه ، جاحظى الأعين ، مما يزيد قلبه رعباً ، إن لم يكن يخلق هذا الرعب خلقاً . ورفع بصره فرأى سيوف الضوء تتبارز فى رحاب السماء وتندلع من هنا وهناك حتى أحاطت العاصمة بما يشبه السياج . خيل إليه أن القاهرة ما هى إلا سلة مشدودة بخيوط من نور تتجمع فى قبضة طائرة . ولكن الطائرات المغيرة لم تترك له فرصة تتبع خيالاته فسرعان ما سرى فى الجو صوت أزيزها اللعين ، فجاوبته فرقعة القنابل من كل

صوب ، وامتلأت السماء بأضواء مختلفة الألوان ، فأطلق ساقيه للريح .

وكان من حسن حظه أن صادفه مخبأ قريب فاندفع نحوه لا يلوى على شيء . ولكنه قبل أن يبلغ مدخله وجد نفسه يصطدم بجسم أدرك أنه جسم سيدة حين سمعها تسبه بلغة أجنبية . فتسمر فى مكانه فوراً وصاح قائلا :

ـــ هانيا ...

فأجابه صوت نسوى متسائلا :

ـــ سعد الدين ؟

ـــ أجل .

ـــ هل فقدت رشادك أم بصرك ؟

ـــ كلاهما . أسرعى فإن أبناء جلدتك يسرفون فى مزاحهم هذه الليلة .

فالتفتت هانيا إلى شبح وراءها وقالت :

ـــ هيا بنا يا عزيزى .

كان سعد الدين قد سبقها إلى المخبأ فلما سمعها تخاطب ثالثاً وقف والتفت إليها قائلا :

ـــ من معك ؟

فضحكت هانيا وقالت :

ـــ إنه زوجى . محمد بك سلام .

وسمع سعد الدين صوت هذا الشبح يحييه قائلا :

ـــ السلام عليكم يا سعد الدين بك ؟

فصاح سعد الدين مدهوشاً .

ـــ مليم ... ادخلا بنا . ادخلا فهذا حفل سعيد .

كان سعد الدين قد سمع بأن مليم كان يشتغل ببعض أنواع التجارة التى لها صلة بالجيش البريطانى . وكان ذلك فى أول نشوب الحرب .

ثم سمع بعد ذلك أنه أصبح متعهداً يورد إلى الجيوش المتحالفة تلك الإشارات المطرزة التى يلصقها الجند بثيابهم . ثم قيل له أخيراً إن هذه التجارة جعلته من أثرياء الحرب المرموقين .

وكان سعد الدين يعجب لسر اختيار مليم لهذا النوع من التجارة ، الذى يتطلب امرأة تشرف عليه . حقاً لقد سمع بأن هانيا تزوجت مليم . ولكن قيل له إنه مجرد زواج صورى ، قصد منه أن تتجنس الفتاة بالجنسية المصرية فى وقت كانت مصر على وشك أن تقطع علاقاتها السياسية بالبلد الذى تنتمى إليه . والدليل على أنه زواج صورى هو أنها اختارت مليم نفسه ليكون زوجاً لها وقد كان خادمها إلى حين .

غير أن ما رأى وما سمع فى تلك الليلة أثبت له قصور الأنباء التى ترامت إليه . فهانيا لم تكن زوجاً صورية لمليم فحسب ، بل كانت زوجاً ولهها حب قرينها ، فتكاد تفنى نفسها فيه . أما مليم فهو يقابل اهتمام زوجه بابتسام وصمت جرياً على عادته القديمة . كذلك لم يصبح مليم من أثرياء الحرب فحسب ، بل إنه حين سمع هانيا تدعوه بمحمد بك سلام ، أدرك أنه نفس ذلك المحسن الذائع الصيت ، ورئيس جمعية « صدق التعاون الخيرية » الذى تنشر الصحف أنباء تبرعاته الضخمة بين حين وآخر .

وكان أول سؤال ألقاه مليم حين استقر بهم المقام داخل المخبأ هو :

— وأين نصيف ؟

فهز سعد الدين كتفيه وقال :

— لا أدرى لقد اختفى اختفاء تاما فلم يعد يراه أحد .

— سمعت أنه قتل فى غارة جوية بالاسكندرية ، ثم قيل لى إنه انتحر .

— وأنا سمعت أنه تزوج عجوزاً لها بعض المال والعقار .

فضحكت هانيا قائلة :

— الخبران سيان .

وفى تلك الأثناء اشتد قصف المدافع فثار عليهم رواد المخبأ وطلبوا منهم أن يلزموا الصمت . وقال قائل :

— يا جماعة نريد أن نسمع .

ورد آخر :

— هذا صوت طائرة ألمانية من غير شك . هل تسمعون أزيزها المتقطع ؟ ياساتر استر . نحن عبيدك يارب .

وتعالت أصوات رواد المخبأ بالدعاء والاستعطاف . ولم يكتف البعض بذلك فراح ينذر النذور لأولياء الله . وارتفع صوت أحدهم قائلا :

— إن أنجيتنى يا الله من هول هذه الليلة فسأرد امرأتى إلى عصمتى .

ورد عليه آخر من أحد أركان المخبأ قائلا :

— وأنا أيضاً سوف . . .

ولكن الطائرات المغيرة أشفقت على النـــاس من أن يتورطوا فى النذور والوعود، فما لبثت أن تركت سماء العاصمة بعد أن حيتها تحية حارة مدوية . وهدأت أصوات المدافع تدريجاً ثم ساد الليل سكون مخيم ، انتهى بصفير موصول ضج له الناس فرحاً .

خرج الرفاق القدماء من المخبأ واتجه مليم صوب سيارة أنيقة مطهمة ودعا سعد الدين للركوب . وتردد سعد فى قبول الدعوة فى أول الأمر ، إلا أن مارآه من حال مليم وظرف هانيا ماليث أن بدد هذا التردد . فلم يكن يبدو على خادم الأمس أن الثروة قد أثرت فى طبيعته أى تأثير ، فهو لايزال الفتى المتواضع الخجول . لقد حسب أنه سيجد فيـــه مثالا لرجال الأعمال الحديثى العهد بالنعمة . هؤلاء الأجلاف السوقيون الذين لايطيق إنسان مهذب أن يجالسهم لحظة . ولكن الحال مع مليم كان

يشعر بأن الثروة هى التى سعت إليه وفرضت نفسها عليه فرضاً . وكل مافى أمره أنه أذعن لحكمها كما اعتاد أن يذعن لكل ما أصابته به الأقدار فى ماضى حياته من أحداث . حقاً إن هانيا قد داخلها شىء من الاعتداد والثقة بالنفس ، غير أن هذا جعلها أشد فتنة وألطف معشراً منها حين كانت فقيرة مهيضة لاعائل لها ولا قريب .

دخل ثلاثتهم السيارة فجلس مليم أمام عجلة القيادة وزوجه إلى جواره ، على حين جلس سعد الدين فى المقعد الخلفى . وانطلقت بهم السيارة فى الطرقات المظلمة تتلمس طريقها فى حذر بضوئها الأزرق القاتم . وكان مليم على حاله من الصمت لايتكلم إلا إذا سئل . أما هانيا فقد كانت تغمرها السعادة بزوجها وبما صارت إليه ، فلم تطق السكوت بل راحت تحدث سعد الدين عن رحلاتهما ونزهاتهما ، وعن قصرهما الأنيق المطل على النيل ثم راحت تقول :

ـــ ولكن الأبهى من ذلك كله « مليم الأصغر » . إنه تحفة رائعة الجمال سيبهرك حسنها حين تراها .

فأجاب سعد الدين قائلا :

ـــ لاغرو فى ذلك مادامت هانيا هى التى حملت به .

ـــ إنه لا يشبهنى ياسعد مطلقاً . بل هو صورة مطابقة لأبيه .

وانطلقت تعدد نوادر ابنها ، وتشيد بنواحى ظرفه وخفته ، إلى أن أسكتها زوجها ضاحكا بقوله :

ـــ رفقاً به فلعلك الآن قد أقلقت مضجعه .

وساد السكون بينهم ساعة إلى أن قطعه مليم بقوله :

ـــ كيف حال بقية الرفاق ياأستاذ سعد؟ إننى لم أعد أرى أحداً منهم .

فتنهد سعد وقال :

— وأنا مثلك ياصديق . فلست أرى منهم سوى الأستاذ شتا ، وما ذلك إلا لأنه مثلى لا يزال يشتغل عند سماره اليهودى ، وأنا لا أزال أشتغل بالصحافة . يخيل إلى أن الأقـــدار قد نسيت وجودنا فتركتنا حيث كنا ، على حين راحت تلعب بمصائر بقية الرفاق أيما ملعب . هل بلغك نبأ خورين ؟

— ماذا أصابه ياترى ؟

— لقد وقع فى أسر غانية لعوب أتت على كل ماخلفه له المرحوم والده من ثروة . ولكنه قابل هذه الصدمة بثبات فكان يضحك ويقول : «هذا جزاء حق . فلابد أن يكون مال النعال الأرمنية التى كان يصنعها والدى مالا حراما» .

— وماذا يفعل الآن ؟

— لعلك لاتصدق أنه يعمل بائعاً فى أحد المحلات التجارية الكبرى .

فضحكت هانيا وقالت :

— لعمرى إنه تلميذ لايشرف أستاذه . ما كنت أظن أنه يهبط بأصول الفن الذى لقنته إياها إلى هذا المستوى .

ولم يتمالك سعد الدين فأجابها قائلا :

— معذرة يا هانيا . ففى اعتقادى أن أصول الفن هى التى هبطت به إلى هذا المستوى . ألم تكونى تعلمينه الفن « فوق الواقعى » ؟ إن المحل التجارى بما يحويه من بضائع منوعة وأصناف متباينة هو أصدق صورة لهذا النوع من الفن .

فالتفتت إليه هانيا مهددة وقالت :

— وبعد يا سعد . . . هل نعود إلى المشاحنة من جديد ؟

وابتسم مليم وقال :

ـــ أجل يا سعد . عليك أن تترك الفن «فوق الواقعى» بسلام فإن لى صورة على غراره معلقة فوق رأسى على الدوام . أخبرنى هل تعرف شيئاً عن مصير عطا الله ؟

ـــ مصير عطا الله ... هذا هو العجب العجاب . إن مصيره أغرب المصائر جميعاً .

ـــ هل ترك عمله فى البوليس السياسى ؟

ـــ لقد طرد منه عقب إلقاء القبض على خالد بيومين . وكان هذا هو المطلب الوحيد الذى توجه به خالد إلى أبيه بعد أن تم الصلح بينهما . فهل تعلم ماذا فعل هذا الجاسوس القديم الذى كان البوليس يرسله فى أعقاب الحركات الثورية ليمده بأسرارها ؟

ـــ ماذا فعل ؟

ـــ لقد كون هو حركة من هذا النوع . وتراه الآن مرابطاً فى الجامعة المصرية حيث يجول بين الطلبة محاولا التغرير بعقولهم ليتخذ منهم فرائس لحركته . والأدهى أننى سمعت أنه يقوم الآن بإعداد مشروع لإصدار مجلة أسبوعية تعبر عن أفكاره .

هزت هانيا رأسها وقالت :

ـــ ما كانت أعجبها عصبة ! إننى أنظر إلى هذه الحقبة من حياتى كأنها حلم من الأحلام .

وساد السكوت بينهم ثانياً ، ولكنه كان فى هذه المرة سكوتا ناطقا . فقد سأل الزوجان عن مصير كل الرفاق فيما عدا أحدهم الذى بدا عليهما أنهما يتجنبان ذكره . لقد كان من السهل عليهما أن يسألا عن نصيف ورفاقه . أما ذلك الفتى الآخر فإن له طبيعة تختلف عن طبيعتهم بحيث

لا يستطيع المرء أن يعرفه دون أن تترك هذه المعرفة أثراً خاصاً في النفس. إنه لم يكن مثلهم عقلا يفكر ولساناً ينطق فحسب، بل كان شعوراً متدفقاً وعاطفة فياضة تعدى حرارتهما الآخرين بمجرد أن يتصلوا به. فالمرء لا بد أن يحبه أو يكرهه، أو أن يشعر نحوه بشعور غامض لا يستطيع تحديده. قد يكون الحب والكره معا، وقد يكون مجرد شعور بالضيق نحو هـذا الفتى، لأنه يضطره إلى إثارة عواطفه الصادقة — وهذا شيء لا يميل إليه الإنسان كثيرا.

ولكن هاقد أزف الحين وأصبح لا مفر من السؤال عن هذا الفتى الآخر. كان هذا السؤال يملأ الجو ويرتسم على وجهي الزوجين بالرغم من أنهما ظلا ساعة طويلة دون أن يجرؤا على النطق به. وأخيراً تكلمت هانيا بصوت خافت فقالت:

— سمعتك تقول إن خالد صالح أباه.

فأجاب سعد الدين بمثل الصوت الخافت قائلا:

— نعم. ألم تكوني تعلمين؟

— كلا. متى تم هذا؟

فضحك سعد في سخرية وقال:

— متى تم هذا... لقد تم يا عزيزتي غداة اليوم الذي قبض عليه فيه. فهو لم يبق في السجن إلا سواد الليل.

هزت هانيا رأسها وقالت:

— عجيب أمر هذا الفتى! كنت أتصور هذا لو قيل لي عن غيره. ولكن خالداً كانت له طبيعة خاصة. فكيف يمكن أن تتغير هـذه الطبيعة بين يوم وليلة؟

صمت سعد الدين برهة ثم قال:

— قد يكون معذورا إلى حد. فلا يستطيع فرد واحد أن يواجه

أمة بأسرها — خصوصا إن كان يسلم القياد لعواطفه كما هى الحال مع خالد . وإن التهمة التى ألقى عليه القبض من أجلها ، من الممكن أن تصور فى شكل تهمة عريضة وخيمة العواقب ، ومن الممكن التغاضى عن بعض ملابساتها فتصبح لاوجود لها أصلا . ويقال إن والده أطلعه فى صباح اليوم التالى على كلا الوجهين ، وأفهمه أنه يستطيع أن يوجه التحقيق إلى أيهما شاء . وكان ثمن تبرئته من التهمة هو أن ينزل عن جميع القضايا التى كانت بينهما ، وأن يدين بالطاعة لأبيه ، فدفع خالد الثمن .

فقالت هانيا :

— إذن باع نفسه للشيطان ؟

— ألم تقابليه قط بعد تلك الليلة المشئومة ؟

— كلا . لم أره مطلقا .

— إذن تعالى نقابله الليلة فهو يجلس دائما فى حان نجم وسط عصبة من أبناء الأثرياء . ولك حينئذ أن تحكمى بنفسك على نوع الصفقة التى عقدها مع الشيطان .

فالتفتت هانيا إلى زوجها وسألته :

— ألديك مانع ياعزيزى ؟

فهز مليم رأسه وقال :

— مطلقا ياهانيا .

وحولت السيارة اتجاهها بعد أن كانت قد وصلت بهم خارج حدود القاهره

* * *

كان الحان يكاد يخلو من رواده حين هبط عليه ثلاثتهم . ودار مليم بعينيه فى أنحائه فلم يعثر لخالد على أثر . غير أن سعد الدين أومأ إليهما برأسه وطلب منهما أن يتبعاه ، فسار بهما إلى نهاية الحان ، حيث كان

سلم خشبي يؤدي إلى الطبقة العليا الملحقة بالخان . وهناك في ركن منعزل طالعهم ظهر فتى جالس قبالة امرأة متبرجة تضع في فمها مبسما طويلا ، وقد انعقدت فوق رأسها سحب من الدخان . وكانت هيئة الفتى هي هيئة خالد إلا أنه صار أميل إلى البدانة . ومع ذلك فقد شعرت هانيا ومليم بأن هناك تغيراً غريباً طرأ عليه ، فجعل منه شخصاً غير الذي عرفاه من قبل . كان قفاه الممتلىء يوحي بالبهيمية والإسراف ، وجلسته المتراخية تشعر بفقدان الحيوية وسريان الإنحلال .

لم يكن في هذه الطبقة من الرواد غير خالد ورفيقته . وسمع خالد وقع أقدام سعد وصاحبيه ، فالتفت اليهم في تكاسل ، وأخذ يتفرس فيهم ساعة ، دون أن يبدو عليه أنه عرفهم . وما لبث أن أعاد رأسه إلى وضعه الأول ، ورفع كأسه إلى شفتيه فاشتف ما فيها .

كادت هانيا تصيح حين وقع بصرها على وجه خالد . لقد عرفت هذا الوجه قديماً فكان أشبه الأشياء بوجوه الأطفال رقة وصفاء ، حتى ليستطيع الرائي أن يقرأ فيه كل خلجة من خلجات نفس صاحبه . أما الليلة فقد هيء لها أنه يضع قناعاً فوق وجهه . وكأنما خالد قد استعار سحنة جدودة المتوحشين الذين كانوا يقطنون الغابات ويأكلون لحم البشر . وكان أكثر ما أفزعها تلك التجاعيد البغيضة المرتسمة على جانبي فمه ، وذلك الضوء الخابي الأثيم المنبعث من عينين شهوانيتين زائغتين .

وحدثتها نفسها بالإنسحاب فمالت على زوجها وأسرت له ذلك . ولكن سعد الدين تمتم في أذنها قائلا :

— لا تخافي فهو لا يعض .

وتقدم من خالد ومد إليه يده مسلما :

— السلام عليكم يا خالد بك .

ـ بالله لا تسخرى منى يا سيدتى . إننى رجل مسكين ولكننى صرت عاقلا . وهذا التعقل أرشدنى إلى أن طاعة الآباء هى الدعامة الأولى لسعادة الأبناء . إنها تمكننى مثلا من أن أتحدث عن والدى قائلا : « بابا الباشا » فسرعان ما تخر لى الجباه وتتفتح الطرق . إنها تمكننى من أن أعيش أفـق حياة أستطيعها ، دون أن يأخذ على أحد مأخذاً . إن جيوبى صارت مفعمة بالنقود ، ومنـازل أعرق الأسر مفتوحة فى وجهى أبداً . والناس لا يتحدثون عنى إلا بقولهم : « بارك الله فى هذا الابن المطيع » . ماذا تريدين فوق ذلك ؟

هزت هانيا رأسها وقالت وهى تتنهد :

ـ فوق ماذا يا خالد بك ؟

أطرق خالد لحظة وقد فارقته سخريته ، فعاد إلى وجهه بعض ملاحه القديمة . وكان وجهه يزداد تقطيباً كلما امتد به الزمن . وأخيراً قال فى لهجة حزينة ، تدعو إلى الرثاء :

ـ اتركينى وحالى يا سيدتى . . . .

ثم رفع رأسه فى عنف وقال محتداً :

ـ ولكن لا تحملينى تبعة هذا الحال ، فما أنا إلا صريع الجيل الذى ولدت فيه . هذا أتعس العصور للإنسان منذ بدء الخليقة . وإنك لن تجدى فرداً واحداً يعى أحوال دنياه ، ويستطيع أن يكون سعيداً فى الوقت نفسه . ولكن ما السبب ؟ إنه هذا الذكاء اللعين . فقد أصبح ذكاء الإنسان أكبر من طاقته البشرية . أكبر من معرفته الحقيقية ، أو لتسميها وجدانه إن شئت . ذلك أن المعرفة أو الوجدان ليس ذكاء محضا ، ولكنه ذكاء وجسم . فالإنسان أصبح يدرك الحقائق الجديدة التى تكشفت له بذكائه وحده ، ولكنه لم يستطع بعد أن يعرفها

انتفض خالد ورفع بصره إلى هذا القادم يتوسمه :

— من ؟ سعد ...

وصافحه وهو جالس ثم قال فى اقتضاب :

— اجلس .

سأله سعد وهو لا يزال على وقفته

— أين بقية الصحاب ؟

— لقد حملتهم الغارة فى أعقابها . اجلس .

— لقد أحضرت معى ضيفين ستدهش لرؤيتهما.

بدا الضجر على محيا خالد ، فأجاب فى شىء من الحدة :

— لم يعد يوجد ما يدهشنى . اذهب وقل لهما إنك لم تعثر بى ، أو إننى قتلت فى الغارة ... قل لهما أى شىء يمكنك من أن تأتى بدونهما. أما ترى أن معنا امرأة نكرعها الخمر من العصر لنختلى بها فى الليل ؟

ثارت طبيعة مليم الأبية حين سمع حديث خالد ، فصر بأضراسه ولمع الشرر فى عينيه . وكانت هذه الهيئة العابسة العنيفة أكثر ما يفتن قلب هانيا ، فابتسمت إعجابا بزوجها وازدادت التصاقا به . غير أن مليم نحاها عنه فى عزم وتقدم إلى خالد قائلا :

— مساء الخير يا خالد بك .

نظر خالد إلى صاحب الصوت باستخفاف وقال دون أن يتحرك :

— مساء الخير يا افندم . هل أستطيع أن أؤدى لك خدمة ما ؟

لم يبد على مليم أنه تأثر بهذه المقابلة الغليظة بل قال فى ثبات :

— أنا مليم . لقد جئت مع زوجى هانيا لنسلم عليك .

وكأنما نزلت بخالد نازلة . هاهو ذا صوت الماضى الذى حاول أن يسكته بمئات الكئوس وعشرات النسوة قد عاد يصافح أذنيه ويطرقهما

طرقا شديداً . « أنا مليم ... » . مليم محور حياته القديمة ، ورمز أنبل ما كان فى نفسه من مشاعر . مليم الذى كان يهرب من لقياه طوال الأعوام الأربعة الأخيرة ـ ها هو ذا شاخص إلى جواره يعلنه أنه قد أتى . مليم ـ ضميره المتجسد ـ قد أتى ليراه فى الحال التى هو فيها ...

ولكن خالدا كان مخموراً ، كما أنه قضى أربعة أعوام عمد فى خلالها إلى قتل كل ما يمثله مليم فى نفسه من معان . لهذا استطاع بعد فترة وجيزة أن يمسك بزمام مشاعره ، وأن يعيد إلى وجهه ذلك القناع البغيض الذى ألقى الذعر فى قلب هانيـــا . وحدث نفسه قائلا : « ألم يأت ثلاثتهم ليشاهدوا خالدا فى مباذله ؟ إذن فليتقن خالد دوره حتى لا يخيب ظنون من أتوا للتفرج عليه »

قام خالد بتثاقل وصافح مليم بفتور قائلا :

ـــ لا تقل مليم بل قل محمد بك سلام . إننى أعرف عنك كل شىء . تفضل اجلس يا محمد بك .

ثم التفت إلى هانيا وخاطبها كأنما يراها أول مرة قائلا :

ـــ تفضلى يا سيدتى .

جلس الجميع ساهمين مطرقين لا يدرون ماذا يقولون . وأخيرا تكلم خالد بلهجة تشف عن السخرية وفقد المبالاة فقال :

ـــ أظن السيدة هانيا ومحمد بك يدهشان لرؤيتهما إياى وأنا على هذا الحال ؟

لوت هانيا شفتها وأعادت قوله الأول :

ـــ لم يعد يوجد ما يدهشنى يا خالد بك .

لاحت على شفتى خالد ابتسامة تكاد أن تكون صورة من ابتسامة والده الأثيمة ، ثم تكلم فى بطء قائلا :

بوجدانه ، لأن جسمه لا يشترك فى الإدراك . فالجسم لا يزال مقيداً بتعاليم المعرفة القديمة والمثل القديمة . إنه لا يزال يرسف فى أغلال الأنانية والجشع والغيرة والقتل والخرافات التى تملأ أوهام الشعوب . فماذا تنتظرين من إنسان جسمه مقيد بكل هذه الأغلال ، على حين يدرك ذكاؤه تفاهة هذه القيم وزيفها جميعاً ؟ لا تنتظرى سوى هذا الحال الذى أنا فيه . فأنا لا أستطيع التحلل من هذه القيود إلا إذا تحلل منها المجتمع بأسره . والمجتمع لا يستطيع التحلل منها إلا إذا اتسق وجدانه وذكاؤه ، وهذا لا يتم إلا بعد أجيال وأجيال . ولا تعجبى إن قلت لك أن المدنية تمر الآن بطور من أغرب أطوارها . فقد كنا نسمع فى القديم أن الإنسان كان يصل إلى سعادته الروحية بتعذيب جسده وحرمان نفسه اللذات . بهذا أمكن للذكاء البشرى الذى كان منحطا فى هذه العصور أن يسمو إلى مستوى الوجدان . ولا غرو فى ذلك . فالوجدان أول ما نشأ كان علويا دائما . فقد عرف قدماء المصريين الآلهة . والذين من قبلهم كان لهم آلهة أخرى . هذا الوجدان العلوى أتى بقوانين من طرازه أراد أن يطبقها على الانسان نفسه فأباح أشياء وحرم أخرى . إلا أن الذكاء فى ذلك الحين كان لا يزال حيوانيا تحكمه شريعة الغابة . ولذلك كان الوجدان البشرى أسمى من العقل . أما اليوم فإن مشكلة الإنسانية عكس المشكلة القديمة . فالذكاء هو الذى صار علويا خلاقا ، لا يقف عند حد ولا يخشى سلطة أو قوة . على حين أصبح الوجدان الاجتماعى — بالرغم من أنه كان علويا فى نشأته — قاصرا عن السمو إلى مرتبة الذكاء ، لأنه حدد نفسه بالقوانين عينها التى فرضها على البشر . ولذلك فإن الإنسان اليوم إذا أراد أن يصل إلى توازنه ، وأن يحقق لنفسه نوعا من السعادة ، فرض عليه أن يرجع القهقرى بذكائه ، فيعيده حيوانيا كما كان . وهذا

مافعلت . لأنه لم يكن فى مقدورى أن أرتفع بوجدان المجتمع بأسره إلى المستوى الذى وصل إليه الذكاء العالمى . لم يبق أمامى إلا أن أتحصن داخل هذا القناع الذى أرى فى عينيك أنه قد أفزعتك رؤيته . ولكنك تظلمينى بذلك . ألم يأتك حديث القائل : « أنتم تشخصون إلى العلا إن أردتم السعادة . أما أنا فأنظر إلى أسفل للبحث عنها » ؟ هذا ياسيدتى هو حال كل مثقف فى هذا العصر المنكود . عليه أن ينظر إلى أسفل ....

كانت الكلمات تتدفق من فم خالد فى سرعة واطراد خلال هذا الحديث الطويل ، الذى بدا كأنه معد من قبل . وما أن انتهى منه حتى خيم السكون على الجميع فترة طويلة . أما هانيا الذى كان الحديث موجها إليها بصفة خاصة ، فقد اغرورقت عيناها بالدموع . وأخيرا قطع سعد الدين حبل الصمت فهز رأسه وقال وهو يتنهد :

ـــ إيه يا « هاملت » مصر الموزع اللب أبدا . . .

فرمقه خالد فى وجوم ثم قال :

ـــ بل إيه يامصر الغارسة رأسها فى الرمال . . . .

تحت الطبـــع

للمؤلف

ملك من شعـــــــاع

القصة الفائزة بالجائزة الممتازة فى المباراة التى نظمتها
وزارة المعـــارف للقصة المصرية

عنوان المؤلف : ١٣٦ شارع الملك . حـــدائق القبة
القـاهرة . مصر

لجنة النشر للجامعيين

تقدم

الكتاب التالى

للأستاذ

عبد الحميد جودة السحار

فى الوظيفة

صور انتقادية لاذعة

يظهر فى أول ديسمبر سنة ١٩٤٤

مطبعة نهضة مصر

الثمن ١٥ قرشاً

3975

VETVS &
NOVVM
TESTA-
MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
MIDDLETOWN, PA
JUNE 82
We're Quality Bound

NEC
PJ7842
A38xM5